

صنعة الأندلس

الجزء الثامن

Handwritten text, possibly a signature or name, located in the center of the page. The text is faint and difficult to decipher.

دار الكتب السلطانية

كتاب

صنعة الأسيجة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثامن

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

المقصود الثالث

فی المکتبۃ إلی أهل الجانب الجنوبي من جرت العادة بالمکتبۃ إلیه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(فی المکتبۃ إلی من هذا الجانب من العربان)

وقد ذکر فی " التثقیف " من کتوب منهم جماعة بالطرق الموصلة من الدیار
المصریة إلی بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعل هؤلاء أيضا من عربان الممالک
المحروسة ، غیر أنه لا إقطاع لهم ، وعد منهم ثمانية أشخاص ، و ذکر أنه کتب
إلی کل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول — سمرۃ بن کامل العامری .

الثانی — عبّاد بن قاسم .

الثالث — کمال بن سوار . قال : وهو مستحدث المکتبۃ فی العشر الأول من

جمادی الأولى سنة ثلاث وستین وسبعائة .

الرابع — جنید : شیخ الجوّابة من الهکاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو

مستحدث المکتبۃ فی سنة تسع وستین وسبعائة .

الخامس - شريف : شيخ النمامة ، بأبواب التوبة أيضا ، ومكاتبته مستجدة حينئذ .

السادس - عليّ : شيخ دُعيم .

السابع - زامل الثاني .

الثامن - أبو مهنا العمرانيّ .

الجملة الثانية

(في المكتبة إلى مسليى ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول - ملك النوبة . وهو صاحب مدينة دنقلة : وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في "المسالك والممالك" . قال في "التعريف" : وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حمل مقتر ، يقوم به في كل سنة ، ويخطب [ببلاده] ^(١) خليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإناوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارة وتُجمل أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهى الآن مملكة مستقلة بذاتها ، ولذلك أوردت مكتبة صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكتبة إليه إن كان مسلما على ما ذكره في "التعريف" :

صدرت هذه المكتبة إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحيد ، العُضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلطين .

(١) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك في «التتقيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته هذه المكتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنْقلة» .

الثاني — ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحُدُّ بلاد [ملك] التَّكُور^(١) من الشرق ؛ ثم يكون حدّها من الشمال بلاد [صاحب]^(١) أفريقية ، ومن الجنوب الهمج ؛ وقد تقدّم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذُرِّيَةِ سَيْفِ بن ذِي يَزَنَ ملك ابن علي ماورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازى ، المجاهد ، الهمام ، الأوحد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكُور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المفاوضة تبدي ، على ماسياتى ذكره في مكاتبته .

(١) الزيادة من «التعريف» .

وهذا صدر يليق به : ولا زالت هم سلطانة غير مقصرة ، ووفود حجة غير محصرة ، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ صدرت ، ولها مثل مسكة أفعه عبق ، وعبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليق ، وشيبة ملكه الذي يفديه سواد الحدق . أوجها وذ أسكنه [مسكنه] ^(١) من سويداء القلب لا يريم ، وأراه غرة الصباح الوضاح تحت طرة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في "التتيف" ولم يزد عليه .

ورأت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته في قطع الثلث ، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب بزؤ » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له ؛ ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعوم في الأقطار ، وسأل الكشَف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ؛ وأرسل هدية صالحة من زبتي وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتّاب الدت .

صدره : أعز الله تعالى جانب الجناب الكريم ، العالی ، الملك الجليل ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهام ، الأوحِد ، المظفر ، المنصور ، المتوكل ، نحر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الجلالة ، ظهير الإمامه .

وبعث إليه به مع رسوله الوارد صُحبة الحجيج ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانم . قال في "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدة اسمها « جيمي » ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها « زلا » وأحرها طولاً بلدة

(١) الزيادة من "التتيف" ص ٢٩ .

يقال لها « كَاكَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، ومليكم على حَقارة سلطانه ، وسوء بُقعة مكانه ، في غاية لأندرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عَنان السماء ، مع ضَعْف أجناد ، وقلة متحصِّل بلاد ، محجوب ، لا يراه أحد إلا في يوم العيدين بكرة وعند العصر ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العلووي في بني الحسن ، وهو يمتدب بمتدب الشافعي . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كرم مكتبة صاحب البرنو ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التتيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكتبة له غير الذي قد ذكره .

الرابع - ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط ، وقاعدة الملك بها بني . وهي أعظم ممالك السودان ، وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي أسم للإقليم ، والتكرور مدينة من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسا موسى ، ومعنى منسا السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه (١) ناموسا ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجا ، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نزله ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على مملكة مالي نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة الساطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموسا لنفسه » فلعن مالي الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": "وملك التكرور هذا يدعى نسبا إلى عبد الله بن صالح
ابن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف": «أدام الله تعالى نصر المقتز
العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحيد،
عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين»
الملك فلان. ويدعى له بما يناسب. وبعد إهداء السلام والتشوق «هذه
المفاوضة تبدي» .

قال: ولا يعرض له ولا يقرب بشيء من الالتاب الدالة على النسب العلوى .
وهذا صدر لهذه المكاتبه ذكره في "التعريف" .

ويسر له القيام بفرضه، وأحسن له المعاملة في قرضه، وكثر سواده الأعظم
وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه، ومتعه بملك يجد الحديد ينجف سمائه والذهب
نبات أرضه. صدرت هذه المفاوضة وصدورها به مملو، وشكرها عليه يجلو، ومن آيا
حبه في القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلي به الطرف والقلب من السواد؛ تنزل
به سفنها المسيرة في البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده وينسى موسى
منسى، وتقيم عليه والدهر لا يطرفه فيما ينوب، والفكر لا يسوقه إلا إذا هبت صبا
من أرضه أو جنوب .

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكاتبه إليه: «أعز الله تعالى جانب
الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرائط،
المتاخر، العابد، الناسك، الأوحيد، فلان، دخر الإسلام والمسلمين، نصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنِ جُيُوشِ الموحِّدين؛ رُكْنِ الأئمة، عمادِ المِلَّةِ، جمالِ الملوك
والسلاطين، ولى أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدُّستور المنسوب للفقير العلأى بن فضل الله؛ ثم قال ويقال :
«صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى مملوءة الصدر بِشُكْرِهِ ، باسمَةِ الثغر برفعةِ
قَدْرِهِ، موصَّحَةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ . وذكر أن خطابه بالجنب الكريم، والطلب
والقصد والختم بالإحاطة؛ وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكتبة إليه في قطع
الثلاث، والعلامة «أخوه» ؛ وتعريفه «صاحب مالى وغانة» .

الجملة الثالثة

(فى المكتبة إلى ملوك المسامين بالحبشة)

قد تقدم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أن ببلاد الحبشة
سبعة ملوك مسلمين ، لهم سبع ممالك ؛ كل مملكة منفردة بملك ؛ وبها الجوامع
والمساجد ينادى فيها بالأذان ، وتقام بها الجمع والجماعات ، وهم مع ذلك تحت أمر
صاحب أمحرأ ملك ملوك الحبشة ؛ يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته ، ولا يردون
ويصدرون إلا عن أمره ، وهى مملكة أوقات والزبيلع ، ومملكة دوارو ؛ ومملكة
أرابيني ؛ ومملكة هدية ؛ ومملكة شرحا ؛ ومملكة بالي ؛ ومملكة دارة .

وقد تقدم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها فى المقالة الثانية .
قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تُجاور ناصع ، وسواكن ، ودهلك ؛
وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف": ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صدر إليهم خطاب . قال : فإن ورد منهم شيء فتجربى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو . وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف" : «أعزَّ الله تعالى نُصرةَ الجَنابِ الكَرِيمِ ، وأعزَّ اللهُ تعالى جَانِبَ الجَنابِ الكَرِيمِ» على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه .

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجانب الشمالي ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم)

(المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف": وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنهى في شقيها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش ، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني وتنهى متشاملة إلى القسطنطينية ، وتنهى جنوبا إلى بلاد الأرمن ، يحدها البحر الشامي . قال : وهذه البلاد بلاد متسعة ، وهي مفترقة لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يطلق عليهم إلا اسم الإمارة ؛ ولا انتظام لكلمتهم ، ولا اجتماع لجلتهم ؛ ثم قال : وأكبرهم صاحب كرمان ، وله بينهم وضع محفوظ ، ونظام مرعي .

أما ملوكها ، فأجل من لديهم منهم جماعة بنى قرمان ، لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكباتهم في ممتلك سيس وأهل بلاد الأرمن ، وأجتيابهم لهم من ذلك

الجناب، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتبتنا إلى نبي قرمان لا تكاد تنقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميراً، وذكروا رسم المكاتبه إلى كل واحد منهم :

الأول - صاحب كرميان . قال في "التعريف" : ولم يكتب إليه مدة مقامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُسبِه أن تكون المكاتبه إليه بالمقر نظير صاحب ماردین، لكن بأبسط ألقاب : إذ هي ادعى لأستحسانهم لقله معارفهم ، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكاتبه إليه : « أعز الله تعالى نصر المقر الكريم ، العالى ، الملكى ، الأجلى ، العالمى ، العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المرابطى ، المناغرى ، المظفرى ، المنصورى ، الفلانى ، عون الأنام ؛ شرف الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، ظهير أمير المؤمنين » .

قال : فإن لم يُسمع له بكل هذه المخاطبه ، ولم يؤهل لنظير هذه المكاتبه ؛ كتبت إليه هذه الألقاب مع الجناب الكريم ، وخوطف بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك .

قال في "التنقيف" ولعل مكاتبته بالجناب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى : لأنه إذا كان بنو قرمان أجل لدى ملوكنا ، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالى ، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكاتبه بدرجتين (١) وهى : الجناب الكريم . قال : هذا هو الأولى عندى .

قلت : وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برسا الآتى ذكره ، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة ؛ أما بعد ارتفاعه وأحطاطهم دونه فينبغى أن يُنظر في قدر المكتوب إليه ، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال .

(١) لعله بدرجة تأمل .

الثاني - صاحب طَنْغَزْلُو . قال في "التعريف" ورسم المكتبة إليه :
«صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی الأمیری» ولم يذكر العلامة إليه . قال
في "التثقیف" والذي وجدته مسطوراً في مكاتبه الأسم والسامی بالياء .

الثالث - صاحب تُوَازَا . قال في "التعريف" : وهو في المكتبة نظيرُ
صاحب طَنْغَزْلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه في زمانه كان «على أرينه»
وذكر في "التثقیف" أنه لم يقف له على رسم مكتبة سوى ذلك .

الرابع - صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر في "التعريف" أن اسمه في زمانه دَنْدَار
أخو يُوُس صاحب أنطاليا ، وأنه نظير صاحب تُوَازَا في المكتبة ، فتكون المكتبة
إليه : صدرت والعالی . قال في "التثقیف" ولم أقف على رسم مكتبة إليه سوى
ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكتبة إليه الأسم والسامی
بالياء ، وذكر أن المقر الشهابي بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره في "التعريف"
ثم قال : وقد تكون هي عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال
ولم يتحزر هل هما آثان أو واحد .

الخامس - صاحب كَصَطْمُونِيَّة وهي قَسَطْمُونِيَّة . قال في "التعريف"
وكانت آخروقت لسلیمان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية
وتمنع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن
مراضيه ، وكان في حياته منفرداً بمملكة سنوب . قال : وهي الآن داخله في ملكه ،
منخرطة في سلكه .

وذكر أن رسم المكتبة اليه : «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأمیری» بأكل
الألقاب ، واتم ما يكتب في هذا الباب ؛ وذكر في "التثقیف" نقلاً عن القاضي
ناصر الدين بن النشائي ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه «أخوه» .

السادس — صاحب فإويآ. قال في "التعريف" وهو (يعنى في زمانه) مراد الدين حمزة، وهو ملك مضعوف، ورجلٌ مجالس أنسه مشغوف. قال: ورسم المكتبة إليه «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأميرى» بالياء. قال في "التثقيف" وهو غير بعيد.

السابع — صاحب برسا. وقد ذكر في "التعريف" انه في زمانه أرخان بن عثمان. ثم قال: وهو نظير صاحب فإويآ في المكتبة، فتكون مكاتبته السامى بالياء. قال في "التثقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك، إلا أنه ذكر في الفصل الأول من الباب الرابع في الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان. وقال: إن لقبه سيف الدين. ثم قال: ويقال إنه صاحب برسا، وذكر أن رسم المكتبة إليه في قطع العادة والدعاء والمجلس العالى، والعلامة أخوه، وتعريفه اسمه.

قلت: وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل في بني عثمان إلى أرخان بن عثمان جق؛ ثم إلى ابنه مراد بك؛ وأنه أوسع ملكه وجاوز في الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة؛ ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد في الملك على ما كان بيد أبيه؛ وتزوج في بنى قرمان، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان في طاعته، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس؛ فإنها كانت مع قاضيا إبراهيم المتغلب عليها، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسرته، ومات في يديه؛ وملك بعده ابنه سليمان چلبى. ثم مات؛ وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق، وهو القائم بها إلى الآن. وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد
(١)

في الأيام الظاهرية (برقوق)

(١) ترك بياضاً في الاصل لصورة المكتبة.

(١)
الثامن - صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمرخان
ابن قرأشي ؛ وذكر أن مكاتبته نظير مكتبة صاحب برسا ، يعنى السامى بالياء ؛
وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع - صاحب مرمرأ . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
بجشي بن قرأشي . وقال : إن رسم المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالى » .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج
القسطنطيني بها مَقَطَع رُخَام ، وأنَّ النصارى غلبوا عليها .

العاشر - صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان .
وقال : إن المكتبة إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده
إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة
بالإسم والسامى بالياء .

الحادى عشر - صاحب نييف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكتبة
إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى .

الثانى عشر - صاحب يركي . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت
بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه . قال : وإن المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة
المجلس العالى » بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكتبة
غير ذلك .

(١) هي كذلك في كتاب "المسالك" والذي تقدم في ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ،
وليست في نسخة "التعريف" التي بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فوكه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان ابن منتشاء ، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بريكي ، فتكون الدعاء مع العالی بالألقاب التامة أيضاً ، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب سنان الدين ، وأنه استقر بعده دادى بك ، ثم استقر بها آخراً محمد المعروف بكاجوك ، وذكر أن المكتبة إليه « أخوه » والدعاء والعالی . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قرأصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه زكرياً ، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، بلاياء ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطلع على مكتبة إليه سوى ذلك ؛ وأنه لم يكتب إليه شىء في مدة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أرمناك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه ؛ وذكر في "التثقيف" : أن اسمه علاء الدين سليمان . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی بأجل الألقاب وأكبرها ، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة علاء الدين على بك بن قرمان ؛ ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه « فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": "ولإخوة صاحبها ابن قِرمان المذكور رسوم في المكاتب، فأكبرهم قَدْرًا، وأفتكهم نابًا وظُفْرًا، الأمير بهاء الدين موسى . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحجّ مع الزكب الشريف؛ ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرّتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشورٍ بما يفتح من بلاد الأرمن فكتب له . قال في "التعريف": "وأستقرت المكاتبُ إليه مثل مكتبة أخيه . قال : أما بقية بني قِرمان فدونهما في المكتبة ."

وَأَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ "التَّحْقِيفِ" قَدْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ سِتَّةَ نَفَرٍ .

أحدهم — الحاكم بالعلايا . وذكر أنه كان اسمه حسام الدين محمود بن علاء الدين، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء، والعالى، في قطع العادة .

الثاني — صاحب بلاط وريح . ذكر أنه كان بها «أمير موسى» بن إبراهيم ابن منتشا، وأن المكاتبَ إليه في قطع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أكردور وهي أكردون . ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكاتبَ إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامى بالياء .

الرابع — صاحب آيا سلوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدم في القواعد «بلاط» فقط ولم نعر عليها بعد البحث والتصحيح .

الخامس — صاحب بلي شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكتبة اليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كيمان بن منشا . ذكر أنه ممن استجدت مكاتبته
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكتبة جماعة لم أتحقق هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجى؛ وأن المكتبة
اليه في قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، في قطع الثلث الأسم والسامى بالياء، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجري : استجدت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين
وسبعائة، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب اليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهي أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة؛ منهم نائب
خلاط، وصاحب موغان، وهي موقان، والحاكم بإسعد وهي سيرت، وصاحب
قيشان وهي قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمنيّة، وموقان من أرمنيّة، وإسعد من ديار ربيعة
من الجزيرة الفراتيّة، وقاشان من عراق العجم؛ وبالجملة فقد خلط في "التثقيف"
في البلدان تخطيا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تُمّ الكتب السلطانية وغيرها ، وأنا أذكر هنا ما يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل التصدُّ إليها لقربها ، ويحصل الغرض من ذلك ، بذكر [تسعة] أمور :

أولها — مقاديرُ قطع الورق ، قد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملةً ، والذي يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

أحدها — قطع البغدادى الكامل ، وقد مرَّ أنه يكتبُ فيه للقانات .

وثانيها — قطع النصف ، وفيه يكتبُ إلى أكابر الملوك من دون القانات .

وثالثها — قطع الثلث ، وفيه يكتبُ إلى الرتبة الثانية من الملوك .

ورابعها — قطع العادة ، وفيه يكتبُ إلى أصاغير الملوك والولاة وغيرهم .

الثانى — العُنوان ، قد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّ الذى كان يكتبُ عُنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره ، أما الآن ، فإنّ كاتب كلِّ كتاب صار هو الذى يكتبُ عُنوانه بنفسه .

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب إليه وتُعوّنه التي في صدر المكتبة في الباطن ، ثم يدعى للمكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل : أعزَّ الله أنصاره ، أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تُفتتح بها المكاتبات ، فإن كان الكتاب مفتتحاً بالحمدلة أو بلفظ من فلان ، كُتِب في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ، ثم بعد الدعاء يُحلى بياضاً قليلاً ، ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العُنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغِلظ . وتكون أسطرُه متصلةً من
أول عَرَض الدَّرَج إلى آخره، وأسطرُه متلاصقةً متتاليةً .

الثالث — الطَّرَة التي يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامةُ التي يكتُبها
المكتوبُ عنه ، والسببُ في كتابته .

وقد جرتِ العادةُ في ذلك أنه يكتب في رأس الدَّرَج في الجانب الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسط العلامة التي يعاينها
السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «أسمه» : لِيُنْظَر عند علامة السلطان على
الكتاب فيعلم حال الكتاب، ويجرى الأمرُ في العلامة على هذا الرسم، وتكون كتابتها
بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتابُ مختَصراً الطُّومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطَّرَة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب .

الرابع — البياض في أعلى الكتاب ، وقد جرتِ العادةُ في الكُتُب السلطانية أن
العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال
بياضا بما فيه من وصل العُنوان؛ ثم تكتَبُ البسمةُ في رأس الوصل الرابع؛ وإن
كانت العلامةُ إليه الأسم، ترك وصلان بياضاً فقط وكتبت البسمةُ في أول الوصل
الثالث؛ ثم يُكْتَب السطر الأول من الكتاب على سمت البسمة ملاصقاً لها؛ ثم يحلّي
موضع العلامة بياضاً، ويكتبُ السطر الثاني على سمت الأول في أواخر ذلك
الوصل على قدر إصبعين من آخره؛ ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة،
إن كان القطع صغيراً، وإن كان القطع كبيراً كان فيه قدر رُبع ذراع أو نحوه بحسب

(١) لعله في الكتابة أى يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا آتتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوَسَطِ على بُعدٍ قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب : «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البُعد المذكور : فإن كان بتلقُّ كاتب السَّرِّ خاصَّةً كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلقُّ كاتب السروكَّابِ الدَّسْتِ من دار العَدْلِ كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «من دار العَدْلِ الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدَّوَادِرِ كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «برسالة الجنابِ العالی الأميریّ الفلانیّ الدَّوَادِرِ الفلانیّ» بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته» . وإن كان من ديوان الخاص، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتَه «من ديوان الخاص الشريف» . وإن كان بخط السلطان : بأن كُتِبَ على القِصَّةِ بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخطِّ الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالیة الأميریة الکبریة الفلانیة» في سطر، وكتب تحتَه بقدر إصبع «كافِلِ المالك الشریفة الإسلامیة أعلاها الله تعالى» . وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العالیة الأميریة الکبریة الفلانیة» في سطر؛ ثم يكتب تحتَه بقدر إصبع «أستاذ الدار العالیة أعلاها الله تعالى» . على أنه قد تقدّم في الأقباب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم؛ وأنّ الصواب فيه إستدّار بغير ألف بعد التاء . وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه، سواء كان سطرا واحدا أو سطرین؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبيّ صلی الله علیه وسلم في سطر كامل على بُعدٍ قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الحسبة على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلة.

وقد تقدّم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنهيه كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يُكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك سُخًا بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاء في استقباح ذلك ، بل قد يُستبَح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء كملوك المساهمين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر؛ فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آخر في زماننا أن لأكابر الأمراء من التواب وغيرهم « أخوه » لرفعته مكان الأخ على الولد ، ولمن دونهم « والده » ولمن دون ذلك « الأسم » وبقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقت ترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكتبة إليه .

أما القانات الكبار فقد تقدّم في الكلام على المكتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغرة بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفَر ، فسيأتي أنه تكتب طُغرة بالألقاب السلطانية فوق البسمة .

السابع — طيُّ الكُتُب السلطانية : قد تقدّم في صدر الكلام على المكتبات نقلاً عن ابن شيث من كُتُب الدولة الأيوبية أن كُتُب السلطان يكون طيها

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتُب أهل المغرب الآن؛ والذي أَسْتَقَرَّ عليه الحال آخراً أنها يجعل طيها في صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضَغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره .

الثامن — ختم الكتاب : قد تقدم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تُخْتَمُ بِسِحَاءة^(١) ، ويُطَبَّعُ عليها بِطِينِ أَحْمَرٍ ، يُوتَى به من سِيرَافٍ ، وتُخْتَمُ بِخَاتَمٍ كما تُخْتَمُ المغاربة الآن ؛ أما الآن فقد أَسْتَقَرَّ الحال على أن الكتب تُلصَقُ بالنِّشَاءِ أو ما في معناه من الكَثِيرَاءِ ونحوها ؛ وقد سأل الشيخُ جمال الدين بن نَبَاتَةَ في رسالته التي كتبها إلى الشهاب محمود رحمه الله حين بلغه وقوع بعض كُتُبِ دِمَشْقَ في حقه عن غير طِينِ أَحْمَرٍ إلى النِّشَاءِ ، ولم أَقِفْ على زمان تغير ذلك ولا مَنْ غَيَّرَهُ ، على أني حلَّلتُ معظمَ أسئلة هذه الرسالة في خلال هذا الكتاب مفرقةً في مواضعها .

التاسع — أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالتقانات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم ممن يتعانى البلاغة في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعةً كلها ؛ وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة ؛ وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ؛ فإن كانت في أمرٍ بعد وقوعه : كالكتابة بالبشارة بوفاء النيل ، أو جلوس السلطان على التَّخْتِ لأوَّلِ أمره ، أو بُرْئِهِ من المرض ، أو وِلَادَةِ وَلَدٍ له ، أو البشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإنباع بِحَيْلٍ أو نحوها ؛ كتبت مسجوعةً ، وإلا كتبت مُرْسَلَةً غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاة كما يؤخذ من بقية العبارة وما تقدم في جزه .

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه

الحال، إلى ملوك الكفر)

وأعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الروم ،
والفرنج ، والكرج ، والحبشة وغيرهم ؛ إذ كانوا هم المستونين على أكثر الممالك ؛
أما اليهود ، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة ، بل هم تحت الذمة أين كانوا . قال
تعالى : (ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنًا تَقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) .
قال في " التعريف " وجميع الكتب المكتوبة إلى ملوك الكفر لا يشتملها الخط
الشريف أصلاً ، بل يكتب فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة
الشريفة أسطر قصيرة بياض من الجانيين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملك الناصر - مثلاً - العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ،
المثابر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاہ ؛ فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، محي العدل في العالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ؛
ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر
والثخوت والتيجان ؛ واهب الأقاليم والأمصار ، مبيد الطغاة والبغاة والكفار ؛ حامي
الحرمين والقبلتين جامع كلمة الإيمان ، ناشر لواء العدل والإحسان ؛ سيد ملوك
الزمان ، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ؛ أبي فلان ، ابن السلطان الشهيد الملك
الفلاني فلان ، خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه . »

وأوضح ذلك في " التثقيف " فقال : ويكون في الطرة بعد وصلين بياضاً من أول
الكتاب بهاميش جيد من الجانيين يمنة ويسرة ، ويكونان في قدر بياضهما سواء

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دون ذلك. وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقدير إبهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلًا أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتبة للمكتوب إليه.

الطرف الثالث

(في المكتبة إلى من وراء بحر القريم بالجانب الشمالي منه)

وهو صاحب البلغار والسرب. وهي بلاد في نهاية الشمال، متاخمة لصاحب السراى؛ وقد ذكر في "التعريف" المكتبة إليه في المكتبة إلى جملة ملوك المسلمين. وقال: إن صاحبها يظهر الأتقياء لصاحب السراى، وإنه أرسل رسله تطلب له الأولوية من الأبواب السلطانية فجهزت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والخيال المسرجة الملجمة. وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما كتب إذ ذاك:

«عز الله نصر الجناح الكريم، العالى، الملكى، الأجلّى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المجاهدى، المؤيدى، المرابطى، المناغرى، الأوحدى، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، جمال الملوك والسلاطين، دُخر أمير المؤمنين».

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد مشتملة على الجهات الأربع:

المقصد الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ، وجملة من بها من ملوك

النصارى المكاتبين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكرج من النصارى الملكية . قال : في "التعريف" ويقال في المسلمين الكرد، وفي النصارى الكرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم وبين بلاد أرمينية . وهي بلاد جليسة ، ومملكة مفحمة ، وكأنها مقتطعة من البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها ملك دائم ؛ وأُمُّها مدينة تَقْلَيْس ، وسلطان بيت هولاكو بمملكة إيران يحكم عليها ، ويرالغهُ تَصِلُ إليها ؛ إلا أنه لا يطغى بها سيئه ، ولا تجوس خلال ديارها للحرب المضرمة خيله ؛ وإنما له بها تومانٌ اتخذه سدادا لتغرها ، وقياماً بأمرها ؛ منزلهم فسيح بواديها ، أهل حلّ وترحال ، وتنقل من حال إلى حال . قال : وآخر من كان له في هذه البلاد سُمعة ، وأقيمت به للمهابة صرعه ؛ الشيخ محمود بن جوبان ، وكان باسلاً لا يُطاق ، ورجلاً مرّ المداق ؛ ولما جرت الكائنة لأبيه ، لاذ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تطل له مُدته ، ولا أنفجرت له حاق شده ؛ وأتاه أجله وما أستطاع رده . ثم قال : وعسكر الكرج صليبة دين الصليب وأهل البأس والتجده ، وهم للعساكر الهولاكوهية عتاد وذخر ، ولهم بهم وثوق وعليهم أعماد ، [ولا] سيمياً لأولاد جوبان وبنيه ، وبقايا مخلّقيه ، لسالف إحسان جوبان إليهم ، ويد مشكورة كانت له عندهم ، وكان صديقاً للملكهم برطلميا يفرس عنده الصنائع ، ويستترعيه الودائع ؛ فكان أخصّ خصيص به ، وأصدق صديق له ، يدعوه للمهم ، ويستصرخ به في الملم ، ويعده رداءً لعسكره ؛ ومزيلة لمنكوه .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطما المذكور عهدى به حتى يرزق من أجل ملوك
النصرانية ، وأعرق أنساب بنى المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسته المصلبه ، وأن ترفع عنها الأيدي المتغلبه ، فبرزت الأوامر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم - وهى بظاهر القدس الشريف - وأتخذت
مسجدا ، وعز هذا على طوائف العلماء والصالحاء وان لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يحسن لجوبان قصد البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الباسل ، الضرغام ، السميندع الكرار ، الغضنفر ، المتخت ، المتوج ، العالم
فى ملته ، العادل فى رعيته ، بقية الملوك الأغر يقية ، سلطان الكرج ، ذخر ملك البحار
والخلج ، حامى حى القُرسان ، وارث آبائه فى الأسرة والتيجان ، سراج بلاد الروم
وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك السريان ، بقية أبناء الثخوت والتيجان ،
معز النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظم البيت المقدس
بعقد النبيه ، عماد بنى المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ، مواد المسلمين ، خالصة
الأصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده فى " التعريف " يليق به وهو : وحى ملكه بوده لا يجنده ،
وبوفائه بعهده لا يجيشه ومدبته ، وبما عندنا من سخايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما فى رأينا المورى لا بما يقدر النار من زنده - وربما قيل مصافى
المسلمين بدل مواد المسلمين .

أما فى " التثقيف " فقد ذكر أن للكُرج ملكين (أحدهما) صاحب تفليس المقدم
ذكره ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك « داود » (الثانى) الحاكم « بسخوم » و « أنجاس »
وهما مدينتان على جانب بحر القريم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره فى الكلام على

الممالك والممالك في الجانب الشمالي ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال :
ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع النصف : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل ، المكرّم ، الخطير ، الباسل ، الهام ، المقدّس ، الروحاني ، فلان ؛ عزّ الأُمَّة
المسيحية ، كنز الطائفة الصليبيّة ، نغردين النصرانية ، ملك الجبال والكرج
والخرجان ، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما ”ملك الكرج“ .

ثم قال : وقد ذكر القاضي المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغييرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنّ ما ذكرته هو المستقرّ في المكتبة
إليه إلى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقرّ الشهابي بن فضل الله كان مرعى الجانب
بملاة التتر وانضمامه إلى جوبان ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأخفم ، فلما زالت دولة التتر من إيران ونجّمت قسوتهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنّها من إقليم أران ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكرج وملكوها ، فلو عبّر عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سيأتي ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة ”سيس“ قبل فتحها ؛ وقد سبق
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على المالك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ؛ وأنها كانت تسمى

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم؛ وأنها كانت بأيدي المسلمين، وأهلها نصارى
 أرمن؛ وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك؛ إلى أن كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك
 السلاجقة ببلاد الروم، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى
 ضُعت تلك الدولة، وسكنت شقاشق تلك الصولة، وانتدب بعضهم لقتال
 بعض، وصارت الكلمة شورى، والرعية فوضى، وشواخ المعافل مجالاً للتخريب،
 والبلاد المصونة قاصية من الغم للذيب، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ
 فيها وأستنسر بغائه، وأشد إنكائه، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه، ومتاعاً لاحامية
 له فلا منه أوساقه؛ فأستولى على هذه البلاد وتملكها، ونحيف مواريث بنى سلجوق
 وأستهلكها. وذكر في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لأون.

قال في "التعريف" وقد أخذ في أنحريات الأيام الناصرية، يعنى (محمد بن قلاوون)
 بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] الملك المنصور
 (لاچين) وأستنيب به أستدمر الكرجي؛ ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة أستدمر
 حين قتل لاچين وضُعت الدولة. وذكر أنه قرّر على الأرمن ملوك الديار المصرية
 قطعة مقررة بلغت ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف، ثم حطّ لهم منها؛
 ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان. وذكر أنه كان لملوك البيت الهولا كوهي
 عليهم حكم قاهر، وله فيهم أمر نافذ، قبل ضعف شوكتهم، ولين قسوتهم، وخلو
 غيهم من قسورتهم. ثم قال: ولو تمكّنوا من دمشق لمحو آثارها، وأنسوا أخبارها؛
 ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به، وأنه مع ذلك أوصى
 سلطاننا صاحب مصر على ابنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته، وجعل ذلك وسيلة
 لبقاء دولته؛ وكتب له تقليد عوضاً عن أبيه وجّهز إليه، وأليس التشریف فلبس

(١)
 وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بِهِ وَخَدَمَ . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورَ ،
 سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلَكَ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ،
 يَزْعُمُ أَنْ أَصْلَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ : إِذْ
 كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَالِيَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلَكَانِيَّةِ وَالْبَيْتُ التَّكْفُورِيُّ
 أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبِيَّةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنٌ نَاءً .
 وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّ اسْمَهُ لِيْفُورِ بْنِ أَوْشِيرٍ . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ
 [إِلَيْهِ] صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ،
 السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنَفَرِ ، فَلَانَ بْنِ فَلَانَ ؛ فِخْرِ الْمَلَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُخْرِ الْأُمَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ .

وهذه أدعية — ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَفَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لَطَاعَةَ يَكْفُفُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ السُّوءِ الْتِرَامُهَا ؛ وَتَجْرِي لَهُ
 بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مَنِينِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنَ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ،
 وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا
 النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَاءَ يُبِيدُهُ ، وَقَرَّضَ مِنْ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيْنٌ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ
 الْوِظِيْفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَا يُهْدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليعون بن أوشين ، ونخشي أن يكون تصحيحاً .

آخر : أراه الله ما يستدفع به من مواضع السيوف البلاء إذا نزل ، والسّمهرى الذى لا يرويه البحر إذا نهل ، والسّيل الذى لا يقف فى طريقه شيء ولا يمشى على مهل .

آخر : صان الله تعالى بمصانعه من أهل ملته كل قبيل ، وأمن الله بمداراته من خوف جيوشنا المنصورة كل سبيل ، وصد عنه بصدق صداقته بعث جنودنا الذى لا يرد وأوله بالقرات وآخره بالنيل .

آخر : ولا زال يتوقى بطاعته بوادر الأسنه ، وعوادي الخيل موشحة بالأعنه ، وعيث الجيش حيث لا يبق إلا أحد الأقسام الثلاثة : القتل أو الأسر أو المنه .

آخر : جنب الله رأيه سوء التعكيس ، وشراً ما يزين لمثله إبليس ، وأخذ جنائب قلاعه وأول تلك الجنائب سيس .

والذى ذكره فى "التثيف" أنه كان اسمه كستندين بن هتيوم ؛ وأن رسم المكتبة إليه على ما كان أستقر عليه الحال إلى حين الفتح فى سنة ست وسبعين وسبعائة ، فى قطع العادة : «صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعظم ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن العموديه ، صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته ، تباركه كذا وكذا» . وتعريفه «مملك سيس» قال : وكتبت أنا والجماعة إليه بهذه المكتبة مرّات .

قلت : وقد بطلت هذه المكتبة بفتح سيس حين فتحها قُشتمر المنصورى نائب حلب فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فى التاريخ المقدم ذكره ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رتبة نيابة طرابلس وما في معناها ؛ ثم أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةً عَسْكَرَ فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ يُقَالُ لَهُ مَمْلُوكٌ سِيسَ دُونَ مَلِكٍ سِيسَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رِئِيسُ الْأَرْمَنِ الْمُقَدَّمُ ذَكَرَهُ فَلِكُلِّهَا مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَبِاللَّهِ الْحَمْدُ فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقْرَارِهَا فِي جَمَلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(فِي الْمَكْتَابَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِيَلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ)
 وَمَا وَالَاهَا مَا هُوَ سَمَّى الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ آفَتْحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السِّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا غَرْنَاطَةَ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ؛ وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعْتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَوْلَى عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ :

الأول — صَاحِبُ طَلِيْطَلَةَ^(١) وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبُهُ الْأَدْفُونَشُ : سَمَّاهُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يَسْمُونَهُ الْفُشَّ ، وَهُوَ مَمْلُوكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَلَاتٌ مُتَّسِعَةٌ ، تَشْتَمِلُ عَلَى طَلِيْطَلَةَ ، وَقَشْتَالَةَ ، وَإِشْبِيلِيَّةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ ، وَقَرْطَاجَنَةَ ، وَجِيَّانَ ، وَجَلِيْقِيَّةَ ، وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضبطها ياقوت عن الحميدي بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاولي وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدم في جزءه هـ فليتبه .

الثاني — صاحب أشبونة وما معها، وتُسمى البرتقال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عَرْضاً له، تشتمل على أشبونة وغرب الأندلس .

الثالث — صاحب برشلونة، وأرغون، وشاطبة، وسرقسطة، وبلنسية^(١)، وجزيرة دانية، وميورقة .

الرابع — صاحب بيرة: وهي بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة، وقاعدته مدينة يبلونة؛ ويقال للملكها ملك البشكنس . ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحب إفرنسة التي هي أصل مملكة الفرنج كما تقدم في الكلام على المسالك والممالك، ومملكها يقال له الريد إفرنس . قال في "التعريف": وهو الملك الكبير المطاع؛ وإنما الأدفونش هو صاحب السطوة، وذكره أشهر في المغرب لقربه منهم، وبعد الريد إفرنس .

والمكاتب منهم ملكان :

الأول — الأدفونش المبدأ بذكره . قال في "التعريف": ويبيده جمهور الأندلس، وبسيوفه فينت بجماجمها الشمس، وهو وارث ملك لذريق . ولذريق هذا الذي أشار إليه في "التعريف" هو الذي آتت بها المسلمون من يده حين الفتح في صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف": وحدثني رسول الأدفونش بتعريف ترجمان موثوق به من أهل العدالة يسمى صلاح الدين الترحمان الناصري: أن الأدفونش من ولد هرقل المفتوح منه الشام؛ وأن الكاب الشريف النبوي الوارد على هرقل متوارث عندهم مصون؛ يأب بالديباج والأطلس، ويدنحراً أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق، وهو إلى الآن عندهم لا يخرج، ولا يُسمح بإخراجه،

(١) هي بلنسية المتقدمة أضيفت إلى برشلونة فيما بعد .

يُنظَرُ فِيهِ بَعِينُ الْإِجْلَالِ ، وَيُكْرِمُونَهُ غَايَةَ الْكِرَامَةِ ، بَوْصِيَّةٍ تَوَارَثَهَا مِنْهُمْ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ وَخَلْفٌ عَنْ سَلْفٍ .

قال : وكان الأدفونش من قَوِيّ طَمَعُهُ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي أُخْرَى لِإِلْيَ الْإَيَّامِ الْفَاطِمِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ : وَمِكَاتِبَاتُهُ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَالرُّسُلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَا تَنْقَطِعُ عَلَيَّ سُوءِ مَقَاصِدِهِ ، وَخُبْتُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ؛ أَهْدَى مَرَّةً إِلَى السُّلْطَانِ سَيْفًا طَوِيلًا وَثَوْبًا بُنْدُوقِيًا وَطَارِقَةً طَوِيلَةً دَقِيقَةً ، تَشْبَهُ النَّعْشِ ، وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى مِنْ أَسْتِفْتَاكِ بَابِ الشَّرِّ وَالتَّصْرِيحِ الْمَعْرُوفِ بِالْكَفَايَةِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلٌ أَسْوَدٌ وَحَجْرٌ ، أَيْ إِنَّهُ كَلَبٌ إِنْ رُبِطَ بِالْحَبْلِ وَالْإِرْمِيُّ بِالْحَجْرِ .

قال في "التعريف" : وَرَسَمَ الْمَكْتَابَةَ إِلَيْهِ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَضْرَةِ السَّامِيَّةِ ، حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، الْهَمَامِ ، الْأَسَدِ ، الْبَاسِلِ ، الضَّرْثَامِ ، الْغَضَنَقَرِ ، بَقِيَّةِ سَلْفِ قَيْصَرَ ، حَامِي حُمَاةِ بَنِي الْأَصْفَرِ ، الْمُنْعِ السُّلُوكِ ، وَارثَ لَدْرِيقَ وَذَرَارِيَّ الْمُلُوكِ ؛ فَارِسَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، مَلِكَ طَلَيْطَلَةَ وَمَا يَلِيهَا ، بَطْلَ النُّصْرَانِيَّةِ ، عَمَادِ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، حَامِلَ رَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَارثَ التَّيْجَانَ شَبِيهَ مَرْيَحِنَا الْمَعْمَدَانَ ، مُحِبِّ الْمُسْلِمِينَ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ .

دعاء وصدور يليقان به

وَكَفَاهُ شَرَّفَ نَفْسَهُ ، وَجَنَاهُ ثَمَرَ غَرَسِهِ ، وَوَقَاهُ فَعَلَ يَوْمَ يُجْرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَمْسِهِ ، وَأَرَاهُ مِقْدَارَ النَّعْمَةِ بِالْبَحْرِ الَّذِي تَمَنَعَ لِسُورِهِ وَتَوَقَّى بِرُؤْسِهِ .

أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَجَنَدُ اللَّهِ لَا يَمْنَعُهُمْ مَانِعٌ ، وَلَا يُضِرُّهُمْ فِي اللَّهِ مَا هُوَ جَامِعٌ ، وَلَا يَلِيَاؤُونَ أَكْتَابَ يُخَلِّفُونَهَا أَمْ كُتِبْنَا ، وَجَدَاوِلُ تَعْرِضُ لَهُمْ أَمْ بِحَارٌ لَا تَنْقَطِعُهَا إِلَّا وَثْبًا .

آخِرُ : وَوَقَاهُ بِتَوْفِيقِهِ تَلَاْفَ الْمُهَجِّ ، وَوَقَاهُ بِأَسِّ كُلِّ أَسَدٍ لَمْ يُجِجْ ، وَحَمَاهُ مِنْ شَرَفْتِهِ لَا يَلِيُّ الْبَحْرُ الَّذِي تَحَصَّنَ بِهِ غُبَارَهَا مِنَ الرَّجْحِ .

أصدرناها إليه وأسنننا لا تُرد عن نحر ، وأعتننا لا تُصد بسور ولو ضرب من وراء البحر .

قلت : وينبغي أن تكون في قطع النصف .

الثاني — صاحب برجلونة ، ووهم في ” التثيف ” بفعله هو الأدفونش المقدم ذكره . وقال : إنه يلقب أفتونش ، دُون حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكيتلان ورسم المكتبة إليه في قطع النصف بقلم الثلث الكبير « آدم الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرم ، الريدأرغون ، فلان ؛ نصير النصرانية ، نخر الأمة العيسوية ، ذخر الملة المسيحية ، حامى الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد العمودية ، ظهير بابا روميه ، ملاذ الفرسان ، جمال التخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب برجلونة » .

قال في ” التعريف ” : أما الريد فرنس فلم يرد له إلا رسول واحد ، أ برق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاية مع ولاته ، والبلاد مناصفة ، ومساجد المسلمين قائمة ، وإدراتات قومها دارة ، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل ومجمل في [كل] سنة ، نظير دحل [نصف] البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسن هذا كتاب من كتبة القبط ، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعائم بيض وسراير سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و [ان] سرى في البدن هذا السم ، وتطلب له الدرياق فعز .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من ” التعريف ” ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ ،
وحصاةٌ في دهناء .

قال : وبلغ هذا أبي رحمه الله ، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا ، ويجاهدَ بما أمكنه ،
ويدافعَ بهما قدرَ عليه ، ولولاوى السلطانِ على رأيه إن أصغى إلّا أولئك الأفكّة ؛
وقال لى : تقوم معى وثنكلم ، ولو خُضِبَتْ منا ثيابنا بالدم ، وراسلنا قاضى الفضاة
القزوينى الخطيب ، فأجاب وأجاد الإستعداد ؛ فلما بكرنا إلى الخِدمة وحضرنا بين
يدى السلطانِ بدار العدل ، حضرت الرسل ، وكان بعضُ أولئك الكتبة حاضرا ،
فاستعدّ لأن يتكلم ، وكذلك استعدينا نحن : فما استتم كلامهم حتى غَضِبَ السلطانُ
وحجى غضبه ، وكاد يتصرّم عليهم حطبه ، ويتعجّل لهم عطبه ، وأسكت ذلك المنافقُ
بخزيتيه ، وسكتنا نحن اكتفاءً بما بلغه السلطان مما رده بحجيتيه ؛ فصدّد ذلك
الشیطانُ وكفى الله المؤمنين القتال ؛ وردّت على راميا النصال . وكان الذى قاله
السلطان : والكم أتم عرقم ما لقيتم نوبةً دمياط من عسكر الملك الصالح ، وكانوا
جماعة أكرادٍ ملفقة مجمعة ؛ وما كان بعد هؤلاء الترك ؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال
الترک ؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح [نحن وإياهم] ^(١) من جنسٍ واحد ما يتخلى بعضه
عن بعض ، وما كنا نريد إلا الابتداء ؛ فأما الآن فتحصّلوا وتعالوا ، وان لم تجوا
فنحن نجيمكم ولو أننا نخوض البحر بالحيل ؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها
القدس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابه إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب !
وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم ، وردّهم أقبح ردّ ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا ردّ
عليهم سوى هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن اتفق أن يكتب إلى الرّيد إفرنس المذكور فتكون المكتابة إليه مثل المكتابة إلى الأدفونش أو أجل من ذلك .

وأعلم أن الرّيد فرّنس هو الذى قصد الديار المصرية بمواطاة الأدفونش : صاحب طليطلة المقدم ذكره ، وماكوا دميّاط ، وكانت الواقعة بينهم فى الدولة الأيوبية فى أيام الصالح أيوب ؛ وأخذ الرّيد فرّنس وأميسك وحيس بالدار التى كان ينزلها نحر الدين بن لقمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورسم عليه الطواشى صبيح ، ثم نفّس عنه ؛ وأطلق لأمر قرّر عليه ؛ وقال فى ذلك جمال الدين بن مطروح أبياته المشهورة وهى :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَتَّه * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا * تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَةَ يَاطِلُ رِيحُ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ * بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
خَمْسِينَ أَلْفًا لَاتَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ
وَفَقَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَنْبَيْتَ عَبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَبِيحِ :
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشَى صَبِيحِ^(١)

(١) بيض لهذه الأبيات فى الاصل وبقاناها مما تقدم فى ج هـ

المقصود الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم مِلْكان :

الأول - صاحب أَمْحَرَا: ملكِ مُلُوكِ الحَبَشَةِ ، ولقبه عندهم حَطَّى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين ، سَمَّةَ على كَلِّ من مُلْكٍ عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي ، يحكم على تسعة وتسعين ملكا ، منهم سبعة مسلمون ، وهم صاحب وقَات ، وصاحب دَوَارو ، وصاحب أَرَايِنِي ، وصاحب شَرْحَا ، وصاحب هَدْيَةَ ، وصاحب بَالِي ، وصاحب دَارَةَ ، وأنه لولا أن معتقد دين النصارى لطائفة اليعاقبة أنه لا يصحُّ تعمد معمودي إلا باتصال من البَطْرِيْرِك ، وأن كَرِسِيَّ البَطْرِيْرِك كنيسته الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مَطْرَانٍ بعد مَطْرَانٍ من عنده ، لشمخَ بأَنفه عن المكتبة ، لكنه مُضْطَرٌّ إلى ذلك .

قال في "التعريف" ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العلية ، الملك ، الخليل ، الهمام ، الضَّرْدَام ، الأسد ، الغَضَنَقَر ، الخطير ، الباسِل ، السَّمِيدَع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب في أقضيته ؛ عزَّ الملة النصارى ، ناصر الملة المسيحية ، رُكِن الأُمَّة العيسوية ، عماد بني المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين ، والأخبار الربانيين ، والبطاركة القديسين ، معظَّم كنيسته صهيون ، أُوحد مُلُوكِ اليعتوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاءً مفحماً يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف":
وأظهر فضله على من يدانيه من كل ملك هو بالتاج معتصب، ولكف البجاج
بالعدل معتصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصراً وللحق معتصب.

صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس مسراها، ومن
أسرة الملك القديم سراها؛ وعلى صفاء تلك السرية الصافية ترد وإن لم يكن بها
خليل، وإلى ذلك الصديق الصديق [المسيحي] تصل، وإن لم تكن بعثت إلا من
تلقاء الخليل.

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه. أما في "التثقيف": فإنه ذكر أنه
يكتب إليه في قطع الثلث بقلم التوقعات مانصه:

أطال الله بقاء الملك، الجليل، المكرم، الخطير، الأسد، الضرعام، الهمام،
الباسل، فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته، حطى ملك أمحوا، أكبر
ملوك الحبشان، نجاشي عصره، سند الملة المسيحية، عضد دين النصرانية، عماد بني
العمودي، صديق الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «صاحب الحبشة».

قال: فإن كانت المكتبة جواباً، صدر الكتاب إليه بما صورته: ورد كتاب الملك
الجليل، ويذكر بقية المكتبة. ثم قال: وهذه المكتبة هي التي استقر عليها الحال عند
ما كتب جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعائة.



وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سبطنة الملك المظفر
صاحب اليمن، على الملك «الظاهر بيبرس» رحمه الله، بطلب مطران يقيمهم لهم
البطرك؛ مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي:

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهام، العادل في ملته، حظّى ملك أمحراً أكبر ملوك
 الخُشنان، الحاكم على ما هم من البلدان، نجاشي عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمحرا حرس الله نفسه، وبني على الخير أسه، فوقفنا عليه وفيهنا ماتضمنه :
 فأما طلبُ المطران فلم يحضر من جهة الملك أحدٌ حتى كان تعريف الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام . وأما وخم بلاده فالآجالُ مقدرة من الله تعالى، ولا يموت أحدٌ إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات .

وأعلم أن العادة جرت أنه كلما كتب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب
 قرينه كتابٌ عن البطريرك . قال في "التعريف" : ولأوامر البطريرك عنده
 ما لشريعته من الحرمة ، وإذا كتب كتاباً فأتى ذلك الكتابُ أول مملكته ، خرج
 عميدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ على رأسِ علم، ولا يزال يحملُه بيده حتى يُخرجه
 من أرضه ، وأربابُ الديانة في تلك الأرض : كالقسوس والشمامسة حوله مُشاةً
 بالأذخنة ؛ فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقّاهم من يليهم أبداً كذلك في كل أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحرا، فيخرج صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفعلِ
 الأول ؛ إلا أن المطران هو الذي يحمل الكتابَ لعظمته لا لتأبى الملك . ثم لا يتصرف
 الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب، ويجتمع له يوم الأحد
 في الكنيسة، ويُقرأُ والملك واقف ؛ ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

الثاني — صاحب دُنُقَلَة . قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك
 أن دُنُقَلَة هي قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت في الأصل يكون ملكها من نصارى

الثوبة، ومعتقدهم معتقد اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعض المسلمين من العرب فلما كتبها؛ وقد تقدم ذكر المكتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً؛ أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه: هذه المكتبة إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسد، الباسل، فلان؛ مجد الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُّنقله» .

المقصد الرابع

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار بالجنب الشمالي من الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدهم معتقد الملكانية)

وجملة ما ذكر من المكاتب في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكتبة:

الأولى - مكتبة الباب، وهو بطريرك الملكية، القائم عندهم مقام الخليفة؛ والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحرير .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يُسمون القسيس ونحوه أباً، ويُسمون البطريرك أباً؛ فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمه له تميزه عن غيره من الآباء، فاختروا له لفظ الأب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصوا اسم الباب ببطريركهم؛ فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ .

هناك ، ورسمُ المكتبة إليه على ما ذكره في ” التثقيف “ ضاعفَ اللهُ تعالى بهجةَ الحضرة السامية ؛ الباب الحليل ، القديس ؛ الروحاني ؛ الخاشع ، العامل ، بأبأ رومية ؛ عظيم الملة المسيحية ، فُدوة الطائفة العيسوية ، مملكِ ملوكِ النصرانية ، حافظ الجُسور والخُجان ، ملاذِ البَطاركة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتبة .

قال في ” التثقيف “ : هذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في ” التعريف “ جملةً ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتبة المتقدمة .

الثانية - المكتبة إلى ملك الروم صاحب القُسطنطينية . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخر إلى بني الأشكرى ؛ فصار الأشكرى سمة لهم ملكا بعد ملك . قال في ” التعريف “ وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكا جليلا ، يرجع إليه من عبَاد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك ؛ وكتب التواريخ مشحونةً بأخباره ؛ وذكر وقائعه وآثاره ، وأول من ألبس هامته الذلَّة ، وأصار جمعه إلى القلَّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه ، فأزال السَّم من أنفه ، وثنى جامع عطفه . فأما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حدَّ النكايه ؛ ولا أعظمت له الشكاية ؛ قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أربك) قد كاد يبترتاجه ، ويعقم نتاجه ؛ ويحل من جانب البحر المغلق رتاجه ؛ فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضض

الآحتال؛ وكانت له عليه قطيعةٌ مقرّره، وجملةٌ مالٍ مقدّره؛ ثم عمّيت علينا بعده منهم. الأخبار، وتوتّى بالدنيا الإديبار .

ورسم المكتابة إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجةَ الحضرة العالية ، المكرّمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغصنفر ، الباسل ، الضّرغام ، المعرّق ، الأصيل ، المجدد ، الأثير ، الأثيل ، البلا لاوس ، الرّيدأرغون ، ضابط الممالك الروميّة ، جامع البلاد الساحليّة ، وارث القياصرة القدّماء ، محيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأموار دينه ، العادل في مملكه ، معزّ النصرانيه ، مؤيد المسيحيّه ، أوحد ملوك العيسويه ، محوّل التخوت والتيجان ، حامى البحار والخلجان ، آحر ملوك اليونان ، ملك ملوك السريان ، عماد بنى المعموديّه ، رضىّ الباب پايا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسامين ، أسوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما في التعريف .

وجعل له من السّلامة يّاً لا تُزعزعه من أوطانه ، ولا تنزعه من سلطانه ، ولا تُوجب له إلا استقراً لتيجانه ، واستمراً بمملكه على مادارت على حصونه مناطق حُلجانه ، ولا برحت ثمار الودّ تدنو من أفنانه ، وموائيق العهد تبوئ له مايسر به من إشادة معالم سلفه وشدّ بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بكاره البحر لا يوقف له على آحر ، ولا يوصف مثل عقده الفاجر ، ولا يكثر إلا قيل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

آخره : وَنَظَمَ سِلْكَه ، وَحَمَى بِحُسْنِ تَأْتِيهِ مُلْكَه ، وَفَفَى مُحِبِّه هُلْكَه ،
وَأَجْرَى بُوْدَه رَكَابَه وَفُلْكَه ، وَوَقَاهَ كِذْبَ الْكَاذِبِ وَكَنَفَ إِفْكَه ، وَأَشْهَدَ عَلَى وَدَه
الليل والنهار وما جنَّ كافرُ هذا كافرُه ولا مسك هذا مسكُه .

قلت : هذا الدعاء والصدور وإن أوردته في "التعريف" في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخصَّ هذا بحالة
مناذرة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في "التتيف" أن الذي استقر عليه الحال في المكاتبة إليه أنه يُكتَب إليه
في قطع النصف ما نصه : ضاعف الله تعالى [بهجة ^(١)] حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، المبجل ، الأسد ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، فلان ،
العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، عز الأمة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ،
جمال بنى المعمودية ، صمصام الملوك اليونانية ، حسام المملكة الماكسونية ،
مالك اليرغلية والاملاحيه ، صاحب أمصار الروس والعلان ، معز اعتقاد الكرج
والشربان ، وارث الأسرة والتيجان ، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان ، الضوقس
الأنجالوس الكنينيوس الببالوغس ، صديق الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكراً لمولاته ، (ومن هذه المادة) وتوضَّح
لعلمه السعيد .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله : فيحيط بذلك علما ، والله تعالى
يديم بهجته .

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكتبة هي المتداولّة بديوان الإنشاء بين كُتّابه ، وأنه هو كُتّب بها إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكتبة التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثة - المكتبة إلى حُكّام جنوة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكتبة إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع التُّلث :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرّمين ، الموقّرين ، المبجلّين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكاير المحترمين ، أصحاب الرأي والمسورة ، الكنون بجنوه ، أجداد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم « الحُكّام بجنوة » .

قال في "التثقيف" والذي استقرّ عليه الحال آخرًا في مفتتح سنة سبع وستين وسبعائة إبطل المكتبة إلى البودشطا والكبطان ، بحكم أنهما أبطلا ، وأستقرّ [ت مكتبة] الدوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكتبة إلى الدوج الجليل ، المكرّم ، المبجلّ ، الموقّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره . كانا على ماسياتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرَسٍ ، وقيل إنه كان بالمأغوصة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردت مكتبة المُحْتَشِمِ ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسِيحِيَّةِ ، كبير الطائفة الصَّليبيَّةِ ، غرَس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
وتعريفه «مقدم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّةِ بِقُبْرَسٍ» .

الرابعة - المكتبة إلى صاحب البندقيَّة . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه على ما استقرَّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكْرِيَادُو في قطع الثلث :

وردت مكتبة حضرة الدُّوَج ، الجليل ، المَكْرَم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ، المَفَحَّم ، مَرَكْرِيَادُو نَحْرِ الملة المَسِيحِيَّةِ ؛ جمال الطائفة الصَّليبيَّةِ ، دُوجِ البندقيَّةِ والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعموديه ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء .
وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوكِ البنادقة :

وردت مطالعةُ الدُّوكِ الجليل ، المَكْرَم ، المَبَجَّل ، الموقر ، البطل ، الهام ، الضَّرغام ، الغَضَنَفَر ، الخطير ؛ مَجْدِ الملة النَّصْرَانِيَّةِ ، نَحْرِ الأئمة العيسويَّةِ ، عماد بنى المعموديه ، معزُّ يَابَا رُوميَّة ، صديق الملوك والسلاطين ، دُوكِ البنادقة ، وديارقة ، والرُّوسا ، والإصطنبُولِيَّةِ . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطْعِ الورق الذى يُكْتَبُ إليه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضاً أن المكتبة إلى دُوكِ البندقيَّةِ : هذه المكتبة إلى حضرة المحتشم ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، المَكْرَم ، المَفَحَّم ، الباسل ، الضَّرغام ، فلان ؛

عزَّ الامَّة المسيحيَّة، جمال الطائفة العيسويَّة، دُخر الملة الصليبية، صديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتُه من غير ذكر تعريفه ولا القُطْع الذي يكتب إليه فيه . قال : وما يبُعد أنه غيرُ الأوَّل ولم يزد على ذلك .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدوك غيرُ المملكِ نفسِه . على أن المكتبة الأولى والثانية في الجواب متقاربتان . اما المكتبة الثالثة فنحطَّة عن الأوَّلَتين . على أنه قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البندقيَّة نقلا عن ابن سعيد أن ملك البنادقة يقال له الدوك بضم الدال المهملة وواو وكاف في الآخر، وهذا مما يحتاج إلى تحرير؛ فإن كان الدوك هو المملك فتكون المكتبة إليه اختلفت باختلاف الحال، أو باختلاف غرض الحُكَّاب، أو عدم اُطلاعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع ما يُلقي إليهم من المزاحمة في كل وقت وهو الظاهر .

الخامسة — المكتبة إلى صاحب سنوب، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفتح ويستولى عليها التروكان . قال في "التعريف" وهي على ضفَّة الخليج القُسطنطينيِّ، وملكها روميٌّ من بيت المملك القديم، من أقارب صاحب القُسطنطينيَّة . قال : ويقال إن أباه أعرق من آباءه في السلطان . قال : ولكن ليس ملكه بكبير، ولا عدده بكثير، ويكونُ بينه وبين أمراء الأتراك حروب، يكون في أكثرها المغلوب . وذكر أن رسم المكتبة إليه مثل مملك سيس، فتكون على ما ذكره في مكتبة مملك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك، الجليل، البطل، الباسل، الهمام، السميّدع، الضرغام، الغضنفر، فلان؛ فخر الملة المسيحيَّة، دُخر الامَّة النصرانيَّة، عماد بن المعمودية، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" :

وكفاه شَرَّ مَائُتُوبٍ ، وروحَ حَاطِرِهِ فِي الشَّمَالِ بَرِيًّا مَائِبٌ مِنَ الجُنُوبِ ، ووقاه
سُوءَ فِعْلٍ يُورِثُ النَّدَمَ وَأَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّنَّ سَنُوبٌ .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البلغار والسرب . قد تقدم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي تقلا عن " التعريف " ما يقتضى أن
ملكها مسلمٌ ، وُذِكِرَتْ مكاتبته الإسلامية هناك ، وعلى ذلك اقتصر في "التعريف"
وتقدم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النصرانية ، وعليه اقتصر
في "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التثقيف " تقلا عن ابن النشائي في قطع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، الهام ، الضرغام ،
الباسل ، الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينوس ، فلان ؛ عماد النصرانية ، مالك السرب
والبلغار ، نحر الأئمة العيسويه ، ذنر الملة المسيحية ، فارس البحور ، حامى الحصون
والثغور . والدعاء ، أصدرنا هذه المكتبة ، وتعريفه «صاحب البلغار» .

وأعلم أنه في "التثقيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار،
تقلا عن ابن النشائي ذكر تقلا عنه أيضا أن المكتبة إلى صاحب السرب في قطع
الثالث نظير متملك سيس ، فتكون المكتبة إليه على ما تقدم أنه الذى استقر عليه الحال
في المكتبة لتملك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ،
الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله نعمته ، وحرس مهجته ، تعلمه
كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السَّرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارةً فيكون بهما آثان تارةً وواحد
تارةً أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكالبة
صاحب البُلغار وحده مفردًا كما ذكر مكالبة صاحب السَّرب وحده مفردًا .

قلت : كِلا الأمرين محتملٌ ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحدٍ ، وأنه كتب
تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر ، أو أنه كتب إلى صاحب
السَّرب بمفرده ، ولم يحطَّ رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتماعه له ، ولا يلزم من
ذلك أنه كان يكتب لصاحب البُلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذٍ ،
وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكالبة إلى ملك رُودِس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل
شُطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية ، إذا ظفروا بالمسلم ،
أخذوا ماله ، وأحيوه ، وباعوه أو استخدموه ؛ وإذا ظفروا بالقرنجي ، أخذوا
ماله وقتلوه .

ورسم المكالبة إليه مثل مملك سِيس ، إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية ،
وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه ، وحينئذٍ فيتجه أن تكون المكالبة إليه :

صدرت هذه المكالبة إلى حضرة الملك الجليل ، البطل ، الباسل ، السَّميدع ،
فلان ؛ نجر الملة المسيحية ، ذخر الأمة النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، وأنحو
ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكالبة إلى مملك سِيس ، معزٍ بابا
رومية ؛ فلم يكن ليحتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به ، ذكره في "التعريف" وهو

قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْدَارَ ، وَكَفَاهَ قَوَامِعَ الْإِنْدَارِ ، وَحَدَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْحِدَارُ .
 آخِرُ : فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَاسُورٍ ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ
 وَجَنَاحَهُ مَكْسُورٍ ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا آقَرَفَ ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَمْجُرٍ ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مِائَةٌ سُورٍ .

الثامنة - المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية ، وصاحبها صغيراً في مالٍ ولا في رجال ؛
 وجزيرته ذات فحط لا يطربها بزرع ، ولا يدربها بضرع ؛ إلا أنها تبتت
 هذه الشجرة فتحمل منها وتجلب ، وترسى السفن عليها بسببها وتطلب ؛ قال :
 وفي ملكها خدمة لرؤسنا إذا ركبوا شبح البحر ، وتجهز لهم إلى حيث أرادوا ، وتجزئ
 لهم إذا توجهوا وإذا عادوا . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رودس المتقدمة الذكر آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" ، دعاء من ذلك ، وفقه الله لطاعته ،
 وأنهضه من الولاء بقدر طاقته .

آخر : أطاب الله قلبه ، وأدام إلينا قربه .

آخر : لا زال إلى الطاعة يبادر ، وعلى الخدمة أنهض قادر ، ومكانه تزم
 إليه ركائب السفن بكل واردٍ وصادر .

التاسعة - المكتبة إلى ممتلك قبرس . وإنما قيل له ممتلك قبرس لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى وملكوها ؛ فقيل لمن غلب عليها ممتلك

ولم يُقَلْ له مَلِكٌ ؛ وذكر في "التثقيف" عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكتبة إليه [مثل] ممتلك سيس ولم يَزِدْ على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكتبة إليه مثل ما استقر عليه الحال في المكتبة إلى ممتلك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، البطل ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن المعمودية ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته . وتعريفه « ممتلك قبرس » .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقف على مكتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاي اليوسفي عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعائة ، يعني عند ما كان الجاي أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكتبة إلى ملك مؤنفراد . ذكر في "التثقيف" أنه كان بها ابن ملك إصطنبول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهمام ، الأسد ، الضرغام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نجر العيسوي ، عماد بن المعمودية ، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مؤنفراد ، وارث التاج ، معز الباب ، أدام الله بقاءه ، وحفظه ووقاه ، وأورثه من أبيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكتبة المذكورة ، ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولم أدر ما تعريفه ، ولا في أي قطع يكتب إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه « ملك مؤنفراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان اسم صاحبها جوانا، وأنه كتب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ما صورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الجليلة، المكرمة، المبجلة، الموقرة، المفخمة، المعززة، فلانة، العالمة في ملتها، العادلة في مملكته، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الأئمة العيسويه، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء؛ نتضمن إعلامها، وتعريفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكته رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبته في "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكفر؛ فإن اتفقت المكتبة إلى أحد سواهم فليقس على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثقيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية في حكم جنوة؛ وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ؛
من جرت العادة بمكاتبتة إليها من أهل المملكة وغيرها من
سائر الممالك المكتابة عن هذه المملكة ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكاتبُ الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول — في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية ، من التواب وغيرهم ؛
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معانهم ؛ وهم على
ضريين :

الضرب الأول

(في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية)

والبلاد الشامية : من التواب ومن في معانهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي ، شيء اختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن المملوك لا يُكْتَبُ إليهم إلا «يَقْبَلُ الأَرْضَ»
 وَيُنْهَى . وَيُخْتَمُ الكِتَابُ بما صورته : طالع المملوكُ بذلك وللآراءِ العاليةِ مَزِيدُ العُلُوِّ،
 أو أنهى المملوكُ ذلك وللآراءِ العاليةِ مَزِيدُ العُلُوِّ، والعنوان «المَلِكِيُّ الفلانيّ» ، مطالعة
 المملوكِ فلان « وحينئذ فالذى جرت به العادةُ في ذلك أن يبتدئ الكاتبُ فيكتب
 فهرست الكتاب في رأس الدرّج من جهة وجهه ، في عَرَضُ إصبع ، في الجانب الأيمن
 « إلى الأبواب الشريفة » وفي الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » ثم يقلبُ الدرّج
 ويكتبُ في ظاهره ، بعد ترك ما كتبت الفهرستُ في باطنه ، العنوانُ ؛ فيكتب :
 « المَلِكِيُّ الفلانيّ » في أوّل العنوان ، و« مطالعة المملوكِ فلان » في آخره . ثم بعد ذلك
 يقلبُ الدرّج ، ويترك وصلًا أبيض ، ويكتبُ بالبسملة في رأس الوصل الثاني بعد
 خلوّ هاميش من الجانب الأيمن . ثم يكتبُ تحت البسملة ملاصقًا لها ما صورته
 « المَلِكِيُّ الفلانيّ » بحيث يكون آخر المَلِكِيِّ الفلانيّ مسامتًا لجلالة البسملة ، بلقب
 السلطان ، كأنه يَنسُبُ نفسه إلى سلطانه . ثم يكتب صورة المكتبة على سمت البسملة
 في سطرٍ ملاصقٍ للمَلِكِيِّ الفلانيّ « يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى كذا وكذا » فإن كان ابتداءً
 كتب وَيُنْهَى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتي بمقاصد المكتبة : فإن كانت فصلا
 واحدا ذكره وختم الكتاب بأخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملا على فُصولٍ أتى
 بالفصل الأول إلى آخره . ثم يخلى بياضا قدر خمسة أسطر . ثم يسردُ الفصولَ بعد
 ذلك فَصلاً فصلاً : يُخَلِّي بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضا ، ويقول في أوّل
 كل فصل « المملوكُ يُنْهَى كذا وكذا » وإذا أتى على ذكر السلطان ، قال : خَلَّدَ اللهُ
 سلطانه ؛ أو خَلَّدَ اللهُ ظله ؛ أو أتى على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شَرَّفَهُ اللهُ
 وعظّمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل في أمر ، قال : والمملوكُ يَعْرِضُ على الآراءِ الشريفةِ
 كذا وكذا ، أو إن اقتضت الآراءُ الشريفة كذا فلها مَزِيدُ العُلُوِّ ، ولا يقال : يسألُ

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خلّد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرى، ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتته الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهز المملوك بمطالعته هذه مملوكه فلانا السيقي مثلا المائل بها. وإن كان ثم مشافهة، قال: وقد حملته مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو يُنهيها إلى المسامع الشريفة إذا رُسم له بإنهائها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة الثواب بالبلاد الشامية أن يُقدّموا في صدر المكاتب ما شتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواجر هذه المملكة: من تجدد أمر، أو حركة عدو، أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال في أول المكاتب، وينهى أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصاده.

وإن كان الخبر نقلا عن نائبي من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصا. وإن كانت المطالعة جواب مائل شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريديّ بالأبواب الشريفة يتضمّن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نصّ المثال الشريف حرقاً حرقاً . ثم يقال : وتفهّم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامثال ؛ وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقّف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر ككاتب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهى فى أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة فى أمر مهمّ كأسقرار نائب أو بشارية بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجّعا وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، ويُنهى أنه ورد على المملوك مكاتبه نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قُصّاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخدول فلانا قد نرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكّر راجعا إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة ، وأحبّ المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك يُنهى أن مطالعة نائب الرّحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركمانى قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولاذ بمراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا انخوف من السطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له وجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يدهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمثلة ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته . والمملوك ينظر ما يردُّ به الجوابُ الشريف في أمره لكاتبِ نائب الرحبة المحروسة بما يعتمدُه في أمره .

المملوكُ يُنهي أنه قد بلغ المملوك أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب الفرنج ، ولم يعلم إلى أيِّ مكان يقصدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المركرين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوكُ ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوكُ يُنهي أن الأمير فلانا الفلاني : أحد أمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة قد توفى إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار أمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لحاطر المملوك ، فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فالرأى العالى مزيد العلو .

المملوكُ يُنهي أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيمُ الشريفةُ باستقراره في نيابة صفد المحروسة ، وقد توجه إلى محل نيابته ، والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأى الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان : أحد الأمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة ، فإنه كفاء لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوكُ ينهي أن فلانا : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاة ، وقد كتب المملوكُ مربعةً باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجهزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية ، فإن حسن بالرأى الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقرّ على إقطاعه من تبرُّز المراسيم الشريفة باستقراره، وقد جهّز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا ، في جواب مكتبة شريفة وردت عليه وهي :

يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي أَنْ المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظّمه - وردَ على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدى ، بالأبواب الشريفة ، يتضمّن أنّ المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والموانى ، وإقامة الأيالك والأبدال في أوقاتها على العادة ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة ، وتعهد أحوالها وتفقدتها ، وتقويم أحوالها بحيث تقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها ، ولا يقع على أحدٍ درك بسببها . وأنّ المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه . فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظّمه ، وتفهم ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال ، وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك ، وأخذ في حفظ السواحل والموانى ، وإقامة الأيالك والأبدال ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر [فقامت الأحوال] على أحسن العوائد ، وجرت على أكمل القواعد ، ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصده من ذلك ؛ وقد أعاد المملوك فلان الدين فلانا البريدى المذكور بهذه المطالعة : ليحصل الوقوف عليها . طالع بذلك



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه قد حضر رسولاً من القان فلان بالمملكة الفلانية [وقصدّه التوجه] إلى الأبواب الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ، وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالأمثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور ، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من نواب السلطنة ومن في معناهم ، إلى الأبواب الشريفة
الجانب الأيمن الطرة الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة
العنوان

الملكي الفلاني مطالعة المملوك
فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكي الظاهري مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدي ، ويكل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

(١)
المطالعات الواردة من الولاية ومن في معناهم .

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة. وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رتبة القدر. وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة، وعظيم النفع، وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بحك المعرفة.

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق، في الأيام الظاهرية الشهيديّة برقوق سقى الله تعالى عهده، وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك، ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك؛ فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة، فخرجوا وتلقوه بالتعظيم، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره؛ وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره؛ فلما عرض كتابه نظر فيه المقرّ البدرى بن فضل الله، تغمده الله تعالى برحمته، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف، فوجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة؛ فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان، فأنكر عليه ذلك، وحطّ رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه، وعلا بذلك مقدار المقرّ البدرى بن فضل الله المشار إليه عند السلطان، وشكر له ما كان من ذلك.

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكرخان؛ ولها حالان)

الحال الأولي — ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجري في كتابتهم مجرى المخاشنة ، والتصريح بالعداوة ، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هولانكو بن طوحى ، بن جنكرخان ، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حوّلها من الأعمال ، أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحلّ عليه غضبه ، فسأموا إلينا أموركم تسألوا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا نحرّبنا البلاد ، وقتلنا العباد ، فلکم منا الهرب ، ولنا خلقكم الطلب ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَاص : خِيولنا سَوَاق ، وسُيُوفنا قَوَاطِع ، وقُلُوبنا كالجبال ،
وعَدَدُنا كالرِّمال ، ومَنْ طَلَبَ حَرْبنا نَدِم ، ومَنْ قَصَدَ أماننا سَلِم ؛ فإن أتم لشرطنا
وأوامرنا أطعتم فلنكم مالنا ، وعلينكم ما علينا ؛ فقد أَعَدَر مَنْ أُنذِر . وقد ثبت عندكم
أننا كَفَره ، وثبت عندنا أنكم الفَجَره ، فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تُضِرَّ الحربُ
نارها ، وتريمكم بشرارها ، فلا يبقِ لكم جاهٌ ولا عزٌّ ، ولا يعصمكم منّا جبل ولا
حِزْز ، فإبقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أتبع الهدى ،
وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

الحال الثانية — ما كان الأمر عليه بعد دُخُولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
بين الدولتين .

وكان عادتهم في الكتابة أن يكتب بعد البسملة « بقوة الله تعالى » ثم يكتب
بعد ذلك « بإقبال قان فرمان فلان » يعني كلام فلان .

ولهم في ذلك طريقتان .

إحدهما — أن يكتب بسم الله سطرًا ، ويكتب « الرحمن الرحيم » سطرًا
تحتها ، ويكتب « بقوة الله » سطرًا « وتعالى » سطرًا آخر تحته ؛ ثم يكتب تحت
ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بإقبال قان » سطرًا ، وتحت « فرمان فلان »
باسم السلطان المكتوب عنه سطرًا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكتب البسملة جميعها سطرًا واحدًا ، ثم يكتب تحت
وسَطِ البسملة « بقوة الله تعالى » سطرًا « وميامين الملة الحمّدية » سطرًا آخر ؛
ثم يكتب تحت ذلك سطر آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فرمان السلطان فلان »
يعني كلام السلطان فلان .

ولم أَقِفْ على قَطْعِ الورقِ الذي كُتِبَ فيه حينئذٍ ، والظاهرُ أنه في البَغْدَادِيّ الكاملِ تعظيماً لِسَانِ المكتوبِ عنه عندهم . وبالجملة فإنَّ الظاهرُ أنَّ الكتبَ الواردةَ عنهم على نَمَطِ الكتبِ الواردةِ من هذه المملكةِ إليهم ، جَرِيًّا على قاعدةِ كُتَابِ هذه المملكةِ من أنَّ الغالبَ مضاهاتهمُ لأَكْبَرِ المملوكِ في كُتُبِهِم في الهيئةِ والترتيبِ شَرْقًا وغَرْبًا .

وهذه نسخةُ كُتَابِ عليّ الطريقةِ الأولى ، وردَ عن السلطانِ « أحمد » صاحبِ مملكةِ إيرانِ ، من بنى هُوَ لَأَكْبَرِ المقدمِ ذكره ، وهو أوَّلُ من أسلمَ منهم ، كتبَ به إلى الملكِ المنصورِ « قلاوون » صاحبِ الديارِ المصريةِ ، تَعَمُّدَهُ اللهُ تعالى بِرِضْوَانِهِ ، وردَ مؤرَّخًا بأوسطِ جُمَادِيِ الأولى سنةِ إحدى وثمانينِ وستمائةِ ، ورأيتُ في بعضِ الدساتيرِ أنه من إنشاءِ الفَخْرِ بنِ عيسى المَوْصِلِيِّ ، ووردَ بخطه وهو :

بقوة الله

بسم الله

تعالى

الرحمن الرحيم

بإقبال قان .

فرمان أحمد .

إلى سلطانِ مصرٍ ، أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بسابقِ عِنَايَتِهِ ، ونورِ هِدَايَتِهِ ، قد كانَ أَرشَدَنَا في عُقُوقَانِ الصَّبَا ، وَرِيعَانِ الحَدَاثَةِ ، إلى الإقرارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، والاعترافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، والشهادةِ لمحمدٍ ، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ، بِصِدْقِ نُبُوتِهِ ، وَحُسْنِ الاعتقادِ في أوليائه الصالحينِ من عباده وَبَرِيَّتِهِ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ فلم نَزَلْ نَمِيلُ إلى إعلاءِ كلمةِ الدينِ ، وإصلاحِ أمورِ الإسلامِ والمسلمينِ ، إلى أَنْ أفضى إلينا بعدَ أَيْنَا الجليلِ ، وَأَخِينَا الكبيرِ ، نَوْبَةُ المُلْكِ ، فأضفى علينا من

جَلَابِيبِ أُلطافه وِلطائفه ، ماحقق به آمالنا في جَزِيل آلائه وَعَوارفه ، وِجَلَى هذه
المملكةَ علينا ، وأهدى عَقِيلَتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قُورِيَّائِنا المَبارك - وهو المَجتمع
الذي تُقدِّحُ فيه الآراءُ - جميعُ الإخوان والأولاد والأمرء الكبار ، ومقدِّمو العساكر ،
وزعماء البلاد ، وأنفقت كلهم على تنفيذ ما سبق به حُكْمُ أخينا الكبير ، في إنفاذ الحَمِّ
الغفير ، من عساكرنا التي ضاقت الأرض برُحْبها من كثرتِها ، وأمتلأت الأرض رُعباً
من عظيم صَوْلَتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة بهمةٍ تخضع لها صُمُّ الأطواد ؛
وعزيمةٍ تلين لها الصُّمُّ الصِّلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زُبْدُ عزائمهم عنه ، واجتمعت
أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة
عن تقوية شعائر الإسلام ، وأن لا يصدُرَ عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يُوجب حَقْنَ
الدِّماء ، وتسكينَ الدِّهْماء ، وتَجْرِي به في الأقطار ؛ رُخاءُ نَسائمِ الأمان والأمان ،
ويستريحُ به المسلمون في سائر الأمصار ، في مهاد الشَّفقة والإحسان ؛ تعظيماً لأمرِ الله ،
وشفقةً على خلقِ الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتنِ النَّائرة ،
وإعلامَ مَنْ أشار بذلك الرأى بما أُرشدنا الله إليه : من تقديم ما يُرجى به شفاءُ مزاجِ
العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وأتينا لانبج المسارعة
إلى هزِّ النَّصالِ للنِّصالِ إلا بعد إيضاحِ المَحجَّة ، ولا نُنادِرُها إلا بعد تبيينِ الحقِّ
وتركيبِ الحُجَّة ، وقوى عزِّمنا على ما رأينا من دواعي الصِّلاح ، وتنفيذِ ما ظهر لنا به وجهُ
النِّجاح ؛ إذ كان ، الشيخُ قدوةُ العارفين « كمال الدين عبد الرحمن » الذي هو نعمَ العونِ
لنا في أمور الدين ؛ فأرسلناه رحمةً من الله لمن [لبي] دُعاه ، ونقمةً على مَنْ أعرَضَ عنه
وعصاه ؛ وأنفدنا أفضى القضاة قطبَ الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين
هما من ثقاتِ هذه الدولةِ الزاهرةِ ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما تنطوى عليه
لعُموهم المسلمين جميلُ نيتنا ، وبيناً لهم أننا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام

يُجِبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، ونشهد أن عظيم
نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أن لا يجرموا بالنظر
إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شأن ؛ فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحکم
بسببه دواعي الإعتماد ، ومجّة يثقون بها من بلوغ المراد ؛ فينظروا إلى ما ظهر من
أمرنا مما أشتهر خبره ، وعم أثره ، فإننا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين
وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره ، تقديمًا لنا ميسر الشرح المحمدي ، على
مقتضى قانون العدل الأحدي ، إجلالًا وتعظيمًا ؛ وأدخلنا السرور ، على قلوب
الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ولنا عفا الله عما
سلف ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ،
وعمارة بقاع الدين والريط الدوآرس ؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى
مستحقها بشروط واقفيها ؛ ومنعنا أن يلمس شيء مما استحدث عليها ؛ وأن لا يغير
أحد شيئًا مما قرر أولًا ؛ وأمرنا بتعظيم أمر الحجّاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ،
وتسيير قوافلها ؛ وإنّا أطلقنا سبيل التجّار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب
أختيارهم على أحسن قواعدهم ؛ وحرّمنا على العساكر والقراغولات والشحّاطي
في الأطراف التّعرض لهم في مصادرههم ومواردهم ، وقد كان قراغول صادف جاسوسا
في زى الفقراء كان سبيله أن يهلك ، فلم يهرق دمه : حرمة ما حرّمه الله تعالى وأعدناه
إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجوّاسيس من الضرر العامّ للمسلمين ، فإن
عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنسّاك وأهل الصّلاح ، فسأت ظنونهم
في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وآرتفعت الحاجة
بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذنتنا به من فتح الطريق وتردد التجّار ، فإذا أمعنوا الفكر
في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جيّلة طبيعيّة ، وعن شوائب

التكلف والتصنع عريه . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المصرة التي كانت موجبة للخالفه ، فإنها إن كانت طريقا للدب والذود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور الميين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فن يتجرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفي وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب ، وعرفناهم [طريقتنا و] ما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمتنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضي الله والرسول ، ويُلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ؛ وتسترخ من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الائتلاف ، ظلمة الاختلاف ، والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر . ويعنى عن سالف الجرائر ؛ فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والإلتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمّر تلك الممالك وتيك البلاد ؛ وتسكن الفتنة النائرة ، وتعمد السيف الباتر ، وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون ، وتحلص رقاب المسامين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُدنا ، (وما كنا معدّين حتى نبعث رسولا) والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيم على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية ، كتبت به عن السلطان « محمود غازان » صاحب إيران أيضا ، إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَّامِينَ الْمَلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلَمَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةُ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِنَادِنَا، كِبَارِدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهِرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فَيَمَنَ ظَفِرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعِهِ، وَأَرْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَخَرَقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجُمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ تَقْصَمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحِمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِخُذْبَتِنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمَقَابَلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ، فَرَكِبْنَا بِنِ كَانِ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقِ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ،
وَقَبْلَ وَقُوعِ الْفِعْلِ مَنَا، وَأَشْتَهَارِ الْفِتْكَ عِنَا، سَلَكْنَا سَنَنَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لَثَلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْفَدْنَا
صُحْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكْرَجِيِّ جَمَاعَةً مِنَ الْقَضَاةِ، وَالْأُئِمَّةِ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ
النَّذْرِ الْأُولَى أَرْفَتِ الْآزِفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكَمْتُمْ عَلَيكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَنَنَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تَمَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهَ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قَضَاءَهُ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَّا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَقُوا مَا فَتَقُوا
بَعْدَرِهِمْ، وَوَجَّهَ إِلَيْنَا وَجْهَ عُدْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا سَيَّرُوا إِلَيْنَا حَالَ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَبَقَيْنَا بِدِمَشْقَ غَيْرِ مُتَحَنِّينَ، وَتَبَطَّنَا تَبَطُّ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّمْهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي صِلَاحِ حَالِهِمُ التَّوَانِي، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بالأمانى، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، ورأوا
 جبراً ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه، وأن عزيمتهم
 مصر على ذلك لاسواه؛ فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتدين
 ثبوت دعواهم، وقلنا لعل وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا نذر شارق، فقدمنا إلى
 أطراف حلب، وعجبنا من تبطيطهم غاية العجب؛ وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا
 الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أنحرب البلاد مروها، وبإقامتهم فيها
 فسدت أمورها، وعم الضرر العباد، والخراب البلاد؛ فعدنا بقياً عليها، ونظرة لطف
 من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومُسحِدُونَ غِرَارَ
 عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد
 الإنذار ﴿وما كنا معدّين حتى نبعث رسولاً﴾. وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب
 الأمير الكبير ناصر الدين على خواجاً، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى
 ابن يوسف، وقد حملناهما كلاماً شافهما به، فلتيقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما
 من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
 فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر،
 وإن لم تداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطولة بتديريهم، ومطلوبة عند الله
 في طول تقصيرهم.

فليمنع السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال صلى الله عليه وسلم «من ولّاه
 الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وحلتهم، احتجب دون
 حاجته وحلته وفقره». وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذر، والسلام على من

(١) أتبع الهدى - في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة - بجبال الأكراد،
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا [مجد] المصطفى وآله وصحبه
وعترته الطاهرين .

قلت : وقد تقدم جواب هذين الكآين في الكلام على المكآبات إلى القانات
ببلاد الشرق من نبي جنكخان فلينظر هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
(٢)
من الملوك والحكام ببلاد أتباع القانات ومن في معناهم)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسط بل العشر الوسطى أو الوسط قال وبعض النحويين أجازوه
فما في الجواب على ذلك الرأي .

(٢) ترك في الأصل باقي الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمين إلى هذه المملكة)

وعادة مكاتبتِه أن يحدو حدو الديار المصرية ، فيما يُكتب إليه عنها ، فيبتدئ المكاتبه بلفظ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الفلانى بلقب السلطنة ؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصد ، ويختم بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قطع الشامى الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهر سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، على يد القاضى برهان الدين المحلى ، تاجر الخصاص ، والطواشى آفتخار الدين فاجر دوادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى ، وزاده فى البسطة والقُدرة ، وضاعف له موادَّ الاستظهار والنظر العزيز ، وجعل الظفر مقرونا برايته أينما يمت ما بينهما تميز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح بركة أيامه كلَّ مقفل ممتنع بأمي وجيز ؛ ولا زال ممتثل الأوامر والمراسم ، رافلاً فى أردان العزِّ والمكارم ، ممدوداً على الأمة [منه] ظلُّ المراحم ، بمنه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبدة زبيد المحروسة مُعربة عن صدق ولآئه ، متمسكةً بوئيق أسباب آلائه ، ناشرةً طيب شئائه ، مترجمةً ناظمةً لمشور الكتاب الكريم الظاهرى الوارد على يد المجلس العالى البرهانى ، بتاريخ ذى الحجة عظم الله بركاتهما ؛ سنة سبع وتسعين وسبعائة ، أحسن الله خاتمتها ؛ فتلقيناها باليدى ، ووضعناه على الرأس والعين ، وأستدللنا به على شريف همته ، وصفاء مودته ، وتأكيد أجوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتنعنا بقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغرب أعلامه الزاهره؛
ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم
الشريف ما يحجل منه توار الربيع وبهائه، فانشرح به الصبور، وتزايد به السرور؛
وقرت به الأعين، وكثر التهد به لما استعدتته الألسن، وأمتلنا المرسوم الشريف
في تعظيم المجلس العالي ذى الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نُجَلِّه ونُجَلِّه، ونوجب حقه ولا نجعله، فهو
عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مرآسنا إلى النواب
بشعر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول، وحملناه على ظهور مرآكبنا عزيزنا
مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
المتقبلة، محبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخارى : افتخار الدين فاجر الدوادار،
وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة، للقام الشريف والأمرء الأجلء الكبراء، ومحبتهما
نفر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
الحياد . على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
بمقدار همته الشريفة العاليه، ورؤيته المنيفة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
والشهب السائر، واستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقتته طرفه، ولم
نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا، ونجبي إليه ثمرات كل شيء قبلا، ولو رام
محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستمر

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد ،
فوتق بهذه القضية ، وأفد إلى المقام الشريف على يد موصولها هذه الهدية ، راجعاً
إلى إنعامه في بسط عذره ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين
أوامره المثلثة ، ومراسيمه المتقبلة . والمسئول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة
شرفها الله تعالى وعظمها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بؤده ، وأشرقت
سعوده ، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارب فتناولها باليمين
(نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) وفتح القلاع والمصانع ، والاستيلاء على
العرايع والمزارع ، واستئصال شافة المارقين ، واسترجاع حصن قاف المحروس بعد
طول مكثه تحت يد العرب ، فكم من كمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك
سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عوبلها ، فخرنا المعاول ، وأطلقنا العقائل ، وأوطنناهم
الحميم (وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله
العزيز الحكيم) وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير آفتخار الدين :
فانحر الدوادار ، لفضاء بعض الحوامج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة
وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام
الشريف العالي ، بروز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنفذه الله تعالى شرقاً
وغرباً ، وأمضاه بعداً وقرباً ، في قضاء حوائجها وسرعة تجهيزها وقبولها إلى يمين
اليمين ، وعزّ تعزّ قريباً .

وبعد ، فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الحُرُمات ، بل
هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى
أنصاره ، وضاعف اقتداره ، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة ،

وغير الإسكندرية، والشام، بالجلالة والإحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقيماً، وأن يُعار في مهماته، جلالة تفيماً ظلالتها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهرها، إن شاء الله، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح خدامنا القديما، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتبت لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يُبدي المستعطي مافي ضميره إلى المعطي، والأشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة المههده، والمصافاة المؤكده، والمودات المحككة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الإرسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه؛ وتعاطى كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما أفترض على عباده الرحمن؛ فقال في محكم كتابه المين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ . ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف : ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمساعرة العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُنلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تُملى . جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتفسير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، لحاج اليمن تعذرت عليه الطرقات، ولم يُطبق حمل النفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه .

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهانيّ فإنها متينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبينه ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأسماؤه للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نظّم معاقِدَ الائتلاف ، وتزايد بشرحه الأئس في محاورته والإختلاف ؛ ولولا المهّم الشريف لاستوقفناه عندنا عامّاً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُملّي علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرفه الله تعالى وعظّمه . وعلى لسانه ما يُديه في المواقف الشريفة شفاها إن شاء الله تعالى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتسعين وسبعائة ، أحسن الله تعالى ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكتّبة ، وإن كان المقرّ الشهابيّ ابن فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مكتّبةٌ إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالب على الظنّ أنّ مكتّبه أعرابية ، كما أن إمارته أعرابية : إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفنّ الإنشاء جملةً ؛ وإنما يكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقلّعون من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يُعول .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكتّبة إلى صاحب الهند تُسبّه المكتّبة إلى القانات العظام بإيران وتوران . وتقدّم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكُتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب ، من حيث إن الغالب جريانُ العادة

في الأجوبة بأن تكونَ على نَمَطِ الكُتُبِ الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكُتُبِ الواردة من صاحب الهند في هيئة الكُتُبِ الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البَغْدَادِيّ الكَامِلِ بقلم مختَصَرِ الطُّومارِ بالطُّغْرَاءِ والخَطْبَةِ المَكْتَبَتَيْنِ بالذهب ، إلى ما يجري مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكاتبات إلى القانات .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرف بالسيلان ، وقد رأيت في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ أنه في سنة أثنين وثمانين وستمائة ، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صحيفة ذهب رقيقة ، عرض ثلاثة أصابع ؛ في طول نصف ذراع ، وحواله مدورة (حلقه) داخلها شبيه بالخوص أخضر ، عليه كتابة تُشبه الخط الرومي أو القبطي ، فطلب من يقرؤه فلم يوجد ؛ فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها . ف قيل : إنه سيررسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف ، ف قيل له : ما لهم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هرمز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السيلان مصر ، وبلاد مصر السيلان ؛ وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحجة مولانا السلطان خلد الله ملكه ؛ وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسله ، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والألآئ والفيصلة والقماش الكثير من البر وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم ؛ وأن عنده في كل سنة عشرين مراكبا يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التّقادِمَ والفيلةَ حتّى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعطه شيئاً ، وأنه يُعَيّ التّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سيّان سبعمائة وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهرِ والياقوتِ ومَعاصُ اللؤلؤِ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب "الذيل" على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السّيّان في طُرُقها .

المقصد الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على تَمَطِّ واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كتبهم في طومارٍ واحدٍ ، في عَرَضِ نحوِ شبرين ، في طول نحو ثلاثة أشبار ، والبسملةُ بعد بياضِ نحوِ شبرٍ وثلاثةِ أصابعٍ مطبوقة من أعلى الطومار ، وعَرَضُ سبعةِ أصابعٍ مطبوقة عن يمين البسملة ؛ والسُّطورُ منحطَّةُ الأوائلِ مرتفعةُ الأواخرِ حتّى يصيرَ البياضُ الذي في أعلاها في آخرِ سَطْرِ البسملة قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلِّ سَطْرَيْنِ قدرُ عَرَضِ إصبعٍ ونِصْفِ إصبعٍ ؛ وكلُّ سَطْرٍ يتقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج ، حتّى يكون السطرُ الآخرُ قطعةً لطيفةً في زاوية الطومار التي على اليسار من أسفل ؛ ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأسِ خِنَصِرٍ ، ويتبدى السطرُ الأوّلُ منها بقطعَةٍ لطيفةٍ منحطَّةِ الأوّلِ مرتفعةِ الآخرِ ثم السطرُ الثاني قطعةً أطولَ من ذلك ، ولا يزال كذلك حتّى يكمل السطرُ فيكتب أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّل كلِّ سَطْرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتّى يكون السطرُ

الأخيراً قدر الأتملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة ، أسطرًا متضابفةً حتى ينتهي إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوفة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تونس)

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ : « من عبدالله الفلاني » بلقب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آباءه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أختينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ، ويختتم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو : من عبدالله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ؛ أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام .

إلى أختينا الذي لم نزل نُسأه من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا أنتراح ، ونثار من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ؛ ونبادر لما يبعث القلوب على الإبتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الإختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتنايت

الصُّور والأشباح . وَتَعْتَرِفُ بِمَا لَهُ مِنْ مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِمِجَاوِرَةِ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَالقِيَامِ بِمَا هُنَاكَ مِنْ مَطَالِعِ الوَحْيِ الكَرِيمِ وَمَشَاعِرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الكَرِيمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ العَالِيَةِ المُنِيفَةِ ، وَجُوهَ البَشَائِرِ رَائِقَةَ العُرْرِ والأَوْضَاحِ . وَتَسْتَمْدِي مَا يُسْرِنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تِلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ وَسُقْرَاءِ الرِّيَاحِ ، وَتَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ بالدعاء أَنْ يُخْبِرَنَا عَنْهُ ، وَيُطَاعِنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يُقَرُّ عِيُونَ الفَوْزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ النَجَاحِ - السُّلْطَانِ الجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، المَلِكِ الأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، بِجَمَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، مُؤَيِّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ العُلْيَا ، سَيْفِ المِلَّةِ المَرْهُوبِ المَضَاءِ ، بِيَدِ القَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا البَاسِقِ العَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا المُنْدَاحِ لِلقَضَاءِ ، المَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حَلِّ التَّائِمِ ، وَلَوْثِ العَامِّ ، بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الأَسَدَ فِي أَحْجَاهَا ، وَتَسْتَعْجِدُ لَهُ سَائِرَ الأُمَّمِ : تُرْكِيهَا وَعَرَّيْهَا وَعَجَّجْهَا ؛ المَخْتَارِ للقِيَامِ بِحَقِّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، الفَائِزِ مِنْ جِوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ الحُجُجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ المَقَامَيْنِ ؛ كَوَكِبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدْرِ الدِّينِ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ أُنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ العَدْلِ لِإِنصَافِ الحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الهُدَايَةِ النَّبِيَّةِ العُروْبِ وَالشُّرُوقِ ؛ (أَبِي سَعِيدِ بَرَقُوقِ) وَصَلَ اللَّهُ لَهُ رَتَبَةً رَاقِيَةً يَتَدَوَّى بِمَحَامِلِهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَقَيَّأُ ظِلِّهَا ، وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِيمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسَفَهَا وَدُظِّلَهَا ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَازِمِ الشَّمْلِ وَقَدْ رَابَ نَثْرُهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدْ آتَسَعَتْ عَنِ الحَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَ الأَمْرَ وَقَدْ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَفَوَاتُهُ ، وَوَاوَصِلِ الحَبْلِ وَقَدْ آسْتَوَلَى انْقِطَاعُهُ وَأَنْبِتَاتُهُ ، العَالِمِ الَّذِي لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكِنُّهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ، الَّذِي قَرَنَ العُسْرُ يُسْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تُتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُنْفِذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكالين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى صدعت بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته ، المبعوث بالملة السمحة ، ومن أركاها حج بيت الله المقدسة أركانه ووجراته ، المعظمة عند الله حرمانه ، المعفورة ان سبقت له الحسنى بحجه سبائته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضاوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولائه ، وأنصار حزيه المفلح وحماته ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء ووجاته .
والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خاصت لله نيافته ، وصدقته فى ذاته دعواته ، وصممت لإظهار دينه القويم عزماته ؛ وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقى ، بنصر ترضى به فى صدور أعدائه شبائته ، وعز يطرد به استقلاله وثباته ، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسعاده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا العلية "تونس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنة محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه سبحانه مسلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إيالتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجهه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى مله الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصلة الخلوص عائده ، وثبت فى مرسوم الصداقة الصادقة زائده ؛ إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكمتنا وسياستنا .

الله تعالى في مَطَانَّ قُبُولِ الدَّعَاءِ، وَرَفَعِ الدَّاءِ؛ بَانَ يُجْبِرُكُمْ بِفَضْلِهِ مِنْ حَيْثُ صَدَعَ، وَيَصِلْكُمْ بِخَيْرِهِ إِثْرًا مَقْطَعًا، وَيُعْطِيَكُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ أَضْعَافَ مَآمَنَعَ، إِلَى أَنْ دَارَكَ اللَّهُ بُلْطَفَهُ وَأَجَابَ، وَتَأَذَّنَ بِفَضْلِهِ فِي قُبُولِ الدَّعَاءِ بَظَهْرِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُسْتَجَابٌ، فَرَدَّ عَلَيْكُمْ مُلْكَكُمْ، وَصَرَفَ إِلَيْكُمْ مِلْكَكُمْ، فَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا، وَفَوَّقَ السَّهْمَ مَقْرَظُهَا وَرَامِيهَا، وَأَنْفَذَ الْقَضَايَا حَكْمًا وَمُقْتَبِيهَا، وَإِذَا كَانَ الْعَوِيلُ يُفْضِي إِلَى النَّجْدِ، وَالْبِلَاءُ يَقْضِي بِالْجِدَّةِ، وَالْفَرْجُ يُدَافِعُ فِي صَدْرِ الشَّدَةِ، فَلَا جَرْمَ خَفَرَ اللَّهُ لِلْأَيَّامِ مَا أَقْتَرَفَتْ، لَمَّا أَنْابَتْ وَأَعْتَرَفَتْ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا التَّمْحِيصُ الْإِلَهِيُّ أَرَاكُمْ اللَّهُ مِنْ بَاطِنِ الضَّرَاءِ سَرَاءَكُمْ، وَأَجْزَلَ مِنْ جَانِبِ الْغَمَاءِ نَعْمَاءَكُمْ، وَالتَّبَرُّعَ بَعْدَ السَّبْكِ يُرِوقُ النُّوَاطِرَ خُلَاصَةً نُضَارِهِ، وَالبَدْرُ بَعْدَ السَّرَارِ تَتَأَلَّقُ أَشْعَةُ أَنْوَارِهِ .

ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من نية الهناء بأحكام السرور إلينا يسير، هزرتنا له أعطاف الأرتياح، وتلقينا منه وارد التهانى والأفراح، وحمدنا الله لكم على مآمن به من الفوز والتجاح؛ ورأينا أن تهنتكم به من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة، وأنه لا يقوم به عنا هنالكم، ويؤدى ما يجب منه بين يدي كرمي جلالكم، إلا من له من ديار الملوك، قرب الأدب والسؤوك؛ فاقضى نظرنا الجميل أن عيناً له شيخ دولتنا المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يسار؛ فلان .

وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نحلى للبحر سبيله، ونبلغه من ذلك مأمولة، ويد الضنة لا تسمح به طرفه دين، ونفس الإعتباط لا تُجيب فيه دواعي البين، إلى أن تعين من تهنتكم الكريمة ماعيته، وسهل شأنه علينا وهونه، فوجهناه والله تعالى يسعد وجهته، ويجعل حجه لقبول الأعمال حجة . وحملاه من أمانة الحب ما باقى إليكم، ومن حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم، ومن طيب الثناء ما يقص ختامه

بين يديكم، وأحسبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة ما يسر الحُب سبيلها ، وأوضح الخُلوص دليها ، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها ، إذ لو كانت الملوكة تُهادى على قدر جلالها ، لما أنسعت لذلك خزائن أموالها ، لكنّها عنوان الحُب السليم ، حسب ما اقتضاه الحديث النبوى الكريم .

وفي أثناء شروعتنا في ذلك ، وسُلوكتنا منه أيمن المسالك ، وصل إلينا كتابكم الكريم ، تعرف النواظر في وجوه بشاره نضرة النعم ؛ فأطلعنا منه على ما راق العيون وصفنا ونعتنا ، وعبر للخُلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمثا ؛ والله هو من كتاب كتب من البيان كُتِّب ، وأستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب ، قسما بالقلم وما سطر ! والحبر وما حبر ! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد ، أو بصر به لبيد لأعاده في مقام بليد ، ولو قصص على قس إباد فصاحته لنزله عن منبر خطابته بعكاز ، أو سحب على سبحان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه ، وخطابه الكريم ونجواه ؛ تشوقكم لأخبار جهادنا ، وسروركم بما يسنيه الله من ذلك بلادنا ، رأينا أن نُثخف أسماعكم منه بما قوت به أعين الإسلام ، وأتلع صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر ، حسب ما جرّه محتوم القدر ، لم نزل يُبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه ، ونطرق طروق الغارة الشعواء بلادَه وقراه ، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها ، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم ، وتعرفوا عاقبة مكرمهم .

وكان من جزائهم المعترضة شبيبا في حُلوق الخطار ، ومتجشمي الأخطار ، وركاب البحار : من الحجاج والتجار ، جزيرة "غودش" ، وبها من أعداء الله جم كثير ، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غير بانا نعقت عليهم بالمنون ، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون ، وشحنها عدداً وعدداً ، وأستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً ، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها ، وتحوم إلى أن رمت تحالب مراسيها عليها ؛ فلما نزلوا بساحتها ، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها ، هبت الذي كفر ، وودَّ الفرار والحين يناديه أين المفزء ؛ فلما قضى السيف منهم أوطاره ، وشفى الدين من دماهم أواره ، وشكر الله من المسلمين أنصاره ، عمّدوا إلى ماتخطاه السيف من والدٍ وولد ، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد ، فجمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعائة على الأربعين ، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرنين ، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين ، وأقلّبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين ، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه ، وتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يطاعنا ويطعكم على ما يسر النفوس ويهينها ، ويحلو وجوه البشائر ويبيديها ، بمنه وكرمه ، والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائداً عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقعت عليه في المكاتب الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفحمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ، ويؤتى بحُطبة ، ثم بالسلام ؛ ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويختتم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعائة :

إلى الحضرة العلية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُبدل عبدة الأصنام ؛ الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأسمى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، الجادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعلي كلمة الموحدين ، المقدس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخور ، الملك المنصور ، أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذى أظهر الأمر العلى الناصرى وأيده ، وبسط في قول الحق
وفعله لسانه ويده ، وسدد نحو الصواب منحاه كله ومقصده ، والصلاة التامة المباركة
على سيدنا محمد رسوله المصطفى ، الذى خصه الله بعموم الدعوة وأفرده ، وقرن ذكره
بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده . والرضا عن آله الكرام ، وصحابة الأعلام ، الذين
حفظوا بالتوقيير والتعزير مغيبه ومشمده ؛ وكانوا عند استئلال السيوف ، ومجال
الحتوف ، عدده المظفر وعدده . والدعاء لذلك المقام الشريف بسعد يطيل في شرف
الدين والدنيا مدده وأمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من أخيكم، البرّكم، الحريص على تصافيتكم، عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرخصها، وأثبتها عزاً وأوضحها، من حصن "نلمسان" حرسها الله تعالى، ولا ناشئ بفضل الله تعالى إلا ما عود من بشائر نحث جياؤها، ومسار يتناول إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسامين بطول بقائكم، فإننا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير، فنلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم، وتبّعنا فصوله، وأستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا ما أنطوى عليه من المنن والإفضال، وأشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظم ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيق في المحشر، الذي وجبت له نبوته، ومثى الغيب عليه مُسدل، وأدم صلوات الله عليه في طينته مُنجدل، وعلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقة بتلك المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقة إلى تلك المشاهد العظيمة؛ فلنا في ذلك نيات صادقة التحويم، وعزّات داعية التصميم، وكان بودنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبّه من ذلك ونختار، أن نمتع برؤية المواطن التي تُتمرّ أبصاراً، ويتشفي بها إيراداً وإصداراً، ولعلّ الله تعالى ينفعنا بخالص نياتنا، وصادق طويّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، وأتصلت المحبة والمودة طول الحياة، غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلك المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكرم حَقِّكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يُحشئ والحمد لله من كيد، ولا يبالي بهزله ولا جدّه، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرأبنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكل الزاهد أبو زكريّا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدّس المرحوم أبي عبدالله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يُلقيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الودِّ والإخاء، والمحبة والصِّفاء، مما يعجز عنه الكتاب، فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفوه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنة العظمى، والمزية القُصوى، والله تعالى يُبقي ذلكم المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأول من كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بنى مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمر المؤمنين مضاهاةً للخلفاء. وهو: من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوتين، أبي سعيد، ^(١) ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا في الأصل الوحيد وصوابه "أبي الحسن" كما يؤخذ مما تقدم في الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أبا الحسن وأنه ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق فلعل ما في الأصل من أعمال النسخ قننه.

دين الحق ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفَسَّحَ لفتح
معاقِل الكفر وكَسَّرَ جحافل الصُّفْرَ أَيامَهُ .

إلى السلطان ، الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافل ،
الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المناغر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الأُسعد ،
الأُسعد ، الأرق ، الأوق ، ناصر الدنيا والدين ، وقامع البُغاة والمعتدين ، مُفيد الأوطار ،
مُبيد الكُفَّار ، هازم جيوش الأَرمن والفرنَج والكرج والتتار ؛ ما لي صدور البراري
والبحار ، حامى القِبْلَتَيْنِ ، خديم الحرمين ، غيث العَفاه ، عون العَناه ، مُصَرِّف
الكُتَّاب ، مُشَرِّف المَوَاقِب ، ناصر الإسلام ، ناسِر الأعلام ، فَخِر الأنام ، ذُنُحْر الأيَّام ،
قائد الجُنُود ، عاقد البُنُود ، حافظ الثُّغُور ، حامى الجُمهُور ، نِظَام المِصَالِح ، بَقِيَّة السَّلَف
الصالح ، ظهير الخِلافة وَعَضُدِهَا ، وليَّ الإمامة وسِنْدِهَا ، عاضِدِ كَلِمَةِ الموحِّدين ، وليَّ
أمير المؤمنين ، أبي المعالي (محمد) ابن السلطان ، الكبير ، الجليل ، الشهير ، الشهيد ،
الخطير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافظ ، الحافل ، المؤيد ، المظفر ، المعظم
المبجل ، المكبر ، الموقر ، المعزز ، المجاهد ، المرابط ، المناغر ، الأوحِد ، سيف الدين
(قلاوون) أدام الله فضلَ عزمه الماضى بتأييده ، وأدار الأفلاك بتشيده مُلكه
الشامخ وتمهيده ، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين ، وأذناس المارقين ، بما يُرىق
عليها من دمائهم ، فما كلُّ متطهرٍ يُجْزَى عنه غَسْلُ مائه أو تيمُّ صعيده .

سلام كريم ، طيب عميم ، أرجب السَّميم ، متضوع النَّسيم ، تستمدُّ الشمسُ باهرَ
سَنَاه ، ويستعيرُ المسكُ عاطرَ شَدَاه ، يُخْصَّ إِيَّاهُ كم العليِّ ، ووفاء كم الوفيِّ ،
ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أيد المؤمنين ، على عُدُوهم فأصبحوا ظاهرين ، وعرف
الإسلام وأهله من السَّرِّ العجيب ، والصُّنْعِ الغريب ، ما فيه عِبْرَةٌ للسامعين والنَّاظِرِينَ ؛

حِكْمَةٌ عَجَزَتْ عَنْ فَهْمِ سِرِّهَا الْمَكْتُومِ ، وَقَصُرَتْ عَنْ كُنْهَيْهَا الْمُخْتُومِ ، أَلْبَابُ عَيْبِهِ
الْقَاصِرِينَ . وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي أَرْشَدَ بِهِ الْخَائِدِينَ
الْحَاثِرِينَ ؛ وَأَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بَرِّغْمَ الْجَاهِدِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ وَبِلَادِهِمْ هَجَرُوا ، وَالَّذِينَ آوَأُوا مِنْ أَوْىِ
إِلَيْهِمْ وَنَصَرُوا ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ فَصَبَرُوا ، فَفَازُوا بِذِكْرِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَأَجْرِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ ؛ وَصِلَةَ الدُّعَاءِ لِحِزْبِ الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا
بِفَضْلِ لَا يَزَالُونَ مَعَهُ لِأَعْدَائِهِمْ قَاهِرِينَ ، وَسَعْدٍ لَا يَنْفَكُونَ لَهُ بِأَمْلِهِمْ ظَافِرِينَ ،
وَنَصْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لَكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مَجْدًا مَدِينَةَ الظَّلَالِ ، وَعَضُدًا حَدِيدَ الْإِلَالِ ، وَسَعْدًا^(١)
جَدِيدَ السَّرْبَالِ - مِنْ مَنْصُورَةٍ "تَيْمَسَان" حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَالصَّنَائِعَ الرَّبَّانِيَّةَ تُكَيِّفُ
الْعَجَائِبَ ، وَتُعَرِّفُ الْعَوَارِفَ الرِّغَائِبَ ، وَتَسَنِّفُ الْأَسْمَاعَ بِمَا تُسْمِعُهَا مِنْ إِجْزَالِ
الْمُنُوحِ وَالْمَوَاهِبِ ، وَتُقَوِّفُ الرَّقَاعَ بِمَا تُودِعُهَا مِنْ أَحَادِيثِ الْفُتُوحِ الْغُرَائِبِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
عَلَى مَا يَسَّرَ مِنَ الْمَأْرَبِ ، وَسَمَّلَ مِنَ الْمَوَاهِبِ . وَإِخَاؤُكُمْ الصَّادِقُ مَبْرُورُ الْجَوَانِبِ ،
مَأْثُورُ الْمَنَاقِبِ ، مُشْرِقُ الْكَوَاكِبِ ، مُغْدِقُ السَّحَابِ ، نَامِي الْمَرَاتِبِ ، سَامِي الْمَرَاقِبِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُثَبِّتُهُ فِي ذَاتِهِ ، وَيَقِيهِ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ وَأَذَاتِهِ . وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ
لَكُمْ سَعْدًا جَدِيدًا ، وَجَدًّا سَعِيدًا ، وَبِحَمْدِ حَمِيدًا ، وَحَمْدًا مَجِيدًا ؛ فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ
الْأَثِيرَ ، الْمُزْرَى بِالْمَسْكِ الثَّيْرِ ، فَاجْتَلَيْنَا مِنْهُ رَوْضَةً جَادَهَا الْبَيَانُ فَأَمْرَعَهَا ، وَرَادَهَا الْبَيَانُ
فَوْشَعَهَا ، وَاجْتَنَيْنَا مِنْ غُصُونِ سَطُورِهِ ثَمَرَاتٍ وَدَادٍ مَا أَيْنَعَهَا ، إِنْبَاءً عَمَّا تَلَقَّاهُ الْإِخَاءُ
الْكَرِيمَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْخِ الْأَجَلِّ ، أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَرَّاحِ مِمَّا عَنَّا تَحْمَلُ ، وَفِي إِقْفَائِهِ

(١) جمع آلة بمعنى الحرية .

وأدائه بمحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة
ألحقها الله تعالى رضوانه ، وبوأها جنة : من حج البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثالثها في شد
الرحال المسجد الأقصى ونعم المغنم ، وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرك
بتلك المعالم المنيفة والمعاهد ، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ووصف
من أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي ، وما منحنا الله من تدبير لقلوب أهل
الإيمان مبهج ، ولصُدور عبدة الصلبان مُحرج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أهبي آتتهاج ، وحل منه محلّ القبول الذي آتتهج له من آقنفي سبيل القصد أنهي
آتتهاج ؛ فعقد العزم على تلقى الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحج من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحالنا إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشعور
بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده ، وقرئها من جهاته المجودة من جود جوده
بمهاده ، يقدم للخروج من يتلقى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جنابها ، حتى تتحد وجهتها
الشريفة بجميل نظره وإيابها ، وقام عنا بما نودّه من برّها ، وساهم فيما تُقدّمه إلى الله عزّ
وجلّ من صالح أجرها . وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البرّ بأحفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم وده وكريم إخوانه ، من تخليص ولآئه ، وتمحيص
صفائه ، منّا لا يزال عهد الأتيق في نهائه ، وحقده الوثيق في أزياده ونمائه ، وغضنه
الوريق في رونق غلوائه ؛ ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها ، وبرد ضريحها ،
قد وافت بما قدّمت عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما أبرمته في قصد البيت
الشريف من نية وأمل ، اذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك ، واعتدّت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك ، وعلى الله إجزال
نواياها ؛ وعنده نحتسب ما ألمّ فآلم من مصابها - فإنّ لدينا ممن يمتُّ بحرمة الحرم إلينا ،

ويلزم بحق التربية علينا، من يقومُ عندنا مقامها، ويرومُ من ذلك المقصد الشريف مرَّامها، وسنوردها إن شاء الله تعالى على تِلْكَ البِقَاعِ، ونوردها من تِلْكَ الأَفْطَارِ والأَصْفَاعِ؛ ما يَجْمَلُ بِحُسْنِ نَظَرِكُمْ مَوْرِدُهُ ومَصْدَرُهُ، وَيَطَّابِقُ فِي جَمِيلِ أَعْتِنَائِكُمْ وَحَفِيلِ أَحْتِفَالِكُمْ خَبْرَهُ وَمُخَبَّرَهُ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَعُونِهِ .

وأما تشوقُ ذلِك الإخاءِ، لمواصلةِ الكُتُبِ بسارِّ الأَنْبَاءِ؛ فَإِنَّ من أقرَّبها عَهْدًا ، وأَعَدَّهَا حَدِيثًا يُهَادِي وَيُهْدِي ، ما كان من أمرِ العاقِّ قاتِلِ أبيه ، الحالُّ من إقليمِ تِلْهُسَانَ ومالكها بالمحلِّ النَّبِيِّ؛ وذلك أَنَّ أسلافه بنى زِيَّانَ، كانوا قد آسَتَوْا على هذه المملكةِ في سالفِ الزَّمانِ ، ولم يزل بينهم وبين أسلافِ المحتوين على مُلْكِ المغربِ الأَقْصَى وقائِعُ تُورِدُهُم الحِجَامُ، وتَذيقُهُم الموتَ الرُّؤْمَ، فيدعون المنازعة، ويعودون للوادة، ثم لم يلبثوا، أن يَنْكَبُوا، ولم يصبروا، أن يَغْدِرُوا، إلى أن كان من حِصَارِ عَمَّا المقدَّسِ المرحومِ أبي يعقوبَ قدس الله تربيته إياهم، فأكثر موتهم وكدر حياهم، وتماذى بهم الحصارُ تسع سنين، وما كانوا غيرَ شَرِذِمَةٍ قليلين، وهنالِكِ آنصَلتْ بينكما المرَّاسِلُهُ ، وحصلت الصِّداقَةُ والمُواصلَةُ، ثم حُمَّ موته، وتمَّ فوته، رحمة الله تومهُ، ورضوانه يشمله ويعمه، فنُقِسَ خِنَاقُهُم، وعاد إلى الإبدارِ محاقهم، وصرف القائمُ بعده عنهم الحين، عَمَّا كان هو رحمة الله قد طَوَّعَهُ من بلادِ مَغْرَاوَةٍ وتحين، فألَّسَعَتْ عليهم المسالكُ، وملَّكُوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طَمَعٌ من الممالكِ، لكنَّ هذا الخائنُ وعمه كانا من أسارتهِ الفتنِ ، وعم به فيها غوامِرُ المِحَنِ، فسلكا مسلكَ أسلافهما في إذاعةِ المُهادنَةِ، والرَّوْضانِ عن الإعلانِ بالمُقاتنَةِ .

ولما سَوَّلَ الشَّيْطَانُ لهُذا العاقِّ قتلَ والده ، والإستيلاءَ على طارفه وتالده ، لم يقدِّمَ عملاً على إيشخاصِ إرساله بحضرة مولانا المقدَّسِ أبي سعيد ، قدس الله

مَنَواهُ ، وجعل الجنة مأواه ، في السَّلمِ راعبا ، ولحُكْمٍ ، ووادعته طالبا ، فاقنضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه ، وإن كان باطنه على مرضه ، فقوى أمره ، وصرى ضره ، وصرى شره ، ووقد تحت الرماد جمره ، وصرى إلى بلاد جيرانه الموحدن داؤه ، وطال عليهم تضييقه وأعداؤه ، وأستشعر ضعفهم عن مدافعتِهِ ، ووهنهم عن مقاومتِهِ ومنازعتِهِ ، فبغى وطفى ، ولم يدر أن من فوقه سقب السماء رغا ، وباطن جماعة من عرب أفريقيا المفسدين وجروه بحبل الأطماع إليها ، وأقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار ، ويشن على أحواز تونس الغار ، حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان ، بمالأة منهم ومن غيرهم من وراثيه (؟) كابن الليثاني ، وابن الشهيد ، وابن عمران ، فأدنى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزّه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة رسولا ، وأوقد علينا أعزّ ولده أبا زكريا في إذهاب المضرة عنه دحلا ، فحاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين ، وبقوله تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحا ما بينهما ﴾ مذكرين ، فما زادت الموعظة الأشرأ ، ولا أفادت التذكرة إلا بطرا ، وحين ذُكر فلم تنفعه الذكرى ، وفكر فلم يتيسر لليسرى ، أمثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى ﴾ فأزمننا قدعه ، وأجمعنا رده وردعه . وفي أثناء ذلك وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصارى أعداء الله جيرانه على طاغيتهم ، المصير على عداوته وعداوتهم ، فجهرنا معه ولدنا عبد الواحد في أربعة آلاف من الأبطال ، وأممدناهم بما كفاهم من الطعام والعدة والمال ، فأجاز من سبته إلى الخضراء بجلا ، ولم يُقدم على منازلة جبل الفتح عملا ، وكان هذا الجبل الخطير شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين سبجا في لهوات أهل العدوتين ، وغصّة نفوس الساكنين بالجنتين ،

لإطلائه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تحطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرمل وأتم، وأنكل وأيم - فأحاطت به العاديات السواجج برأ وبحرا، وأذاقت من به من أهمج الأعلاج شرا وحضرا؛ إلى أن أساموه للسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحا ونصرا، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بجبله ورجله إزاعه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقى منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقاع بعد شهرين وأيام مذبلا، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "عمرناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة أزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إزام؛ فسمناه تركها وإسقاطها، وأزمناه فيما عقدها له من السلم أن يدع أشراطها؛ والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعتنينا بتحصين حصن هذا الجبل تميها لها وتكيلا، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجا وإكليلا . وكأ في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعمرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا المتنع "بسيجماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والصلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البغي والعُدوان، فسهل الله آفتاحها، وعجل من صنائه الجميلة منها مباحها؛ وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف .

وفي خلال تلك المنازلة ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للخائن التماساني قُرْصه ، جُرَّعَ منها غُصَّه ، إذ ظنَّ أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سِجِّلماسة وجبل الفتح معتمِلون ، فخرج من بلدِه على حين غفلة بالعزيمة والحدِّ ، إلى حصن ماوررت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحدِّ ؛ فوجد هناك ولدنا الأسعدَ تاشفين ، في ثلثة من بني مرين ، آسادِ العرين ، فلما نذروا به ناروا إليه مسرعين ؛ فنكص على عقبه ، ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وواد لذلك ثانيه ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه ، بل ردتَه في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساعره :

إن عادتِ العقبُ عُدنا لها * وكانت النعلُ لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلك الشواغل ، وأرغنا من الخائن التماساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل ؛ فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ؛ نهدنا نحو أرضه ، لتجزيه بقُرْصه ؛ بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى ، وخبول تذر الأكم للحوافر سُجدا ؛ تنقض على الأقران أمثال الأجادل ، وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل ؛ فكفنا بتسلم منازلِه منزلا فمزلا ، وتسئم معاقله معقلا فمعقلا ؛ وجل رعاياه تُقرُّ بفضلنا ، وتفرُّ من جورِه إلى عدلنا ؛ ومن تسك منهم بجبله ، أو سلك من النى في سبله ؛ قاده السيف برعْمه ، وأستزله على حكمه ؛ والعفو مع ذلك يؤمهم ، والإحسان يشملهم ويعمهم ؛ حتى لم يبق إلا معقله الأشب ، ومنزله الذي رأى أنه عن عين الشوايب محتجب ؛ قد شمخ أنفا حيا ، وصاح كفا للثريا ؛ ولم يرض لمانته عمائم إلا الغائم ، ولا لأنامل شرفاته خواتم ، إلا النجوم العواتم ؛ فنزلنا بساحه ، وأقبلنا على كفاحه ؛ وجعلنا تقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثال النيق ؛ ومن كيزان النقط الموقده ، بأمثال الشهب المرصده ، ومن السهام العقاره ، بأمثال العقارب

(١) كذا في الأصل باهال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الجرّارَه ؛ حتى غَدَّتْ جُدْرَانُهُمْ مَهْدُومَه ، وَجَسُومُهُمْ مَكْلُومَه ؛ وَتَغُورُ شُرْفَاتُهُمْ
 فِي أَفْوَاهِ أِبْرَاجِهِمْ مَهْتُومَه ؛ وَظَلَّتِ الْفَعْلَةُ تُسَيِّدُ إِزَاءَ أِبْرَاجِهِمْ أَبْرَاجَا ، وَتَمَهَّدَ مِنْهَا
 لَتَسْوِيرِ أَسْوَارِهِمْ أَذْرَاجَا ؛ وَلِلْعَاوِلِ فِي أَسَافِلِهَا إِعْوَالٌ ، وَلِلْعَوَاسِلِ عَلَى أَعَالِيهَا أَعْمَالٌ ،
 وَلِلْأَشْقِيَاءِ مَعَ ذَلِكَ شِدَّةٌ وَجَلْدٌ ، وَعُدَّةٌ وَعَدَدٌ ، وَحِدَّةٌ وَلَدَدٌ ، يَقَاتِلُونَ حِمِيَه ؛ وَيَنَازِلُونَ
 بِنَفْسِ أَيْبِه ، وَحِجَارَةُ الْحَجَانِيْقِ تُسَدِّخُ هَامُهُمْ ، وَبِنَاتِ الْكَيَّانِ تُنْزِلُ أَقْدَامَهُمْ ؛ وَهُمْ
 فِي مِثْلِ ذَلِكَ لِأَزْمُونِ إِقْدَامِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَشْتَدَّتْ أَزْمَتُهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ فَرِيحٍ ،
 وَأَحَاطَتْ بِهِمِ الْأَوْجَالُ مِنْ خَارِجٍ ؛ وَهَدِمَتْ أِبْرَاجَهُمِ الشَّوَاهِقُ ، وَرُدِمَتْ حَفَائِرُهُمْ
 وَالْحِنَادِقُ ؛ وَأَخَذَتِ الْكُكَّةُ ، فِي الْعُرُوجِ ، إِلَى الْبُرُوجِ ، وَالْحِمَاةُ ، فِي السَّبَاقِ ، إِلَى الْأَنْفَاقِ ،
 وَالرَّمَاةُ ، فِي النَّضَالِ ، بِالنَّصَالِ ، فَهِنَّ مُرْتَقِي سُلَمَا ، غَيْرُ مُتَقِي مَوْلَا ، وَمَشْتَغِلِ بِالنَّقَبِ ،
 غَيْرِ مَحْتَفِلِ بِشَابُورِ الْحِجَارَةِ الْمَنْصَبِ ؛ وَأَفْرَجَ الْمَضِيْقُ ، وَأَتَهَجَّحَ الطَّرِيْقُ ؛ وَأَقْتَحَمْتَهُ
 أَطْلَابُ الْأَبْطَالِ ، وَوَجَحْتَهُ أَقْيَالُ الْقَبَائِلِ وَوَلَّى الْأَشْقِيَاءُ الْأَذْبَارَ ، وَعَاذُوا بِالْفِرَارِ ،
 وَبَدَّتْ عَلَيْهِمْ عِلَامَاتُ الْإِدْبَارِ ؛ وَسَابَقُوا إِلَى الْأَبْوَابِ ، فَكَانَ مَجِيئُهُمْ مِنْ أَقْوَى
 الْأَسْبَابِ ، وَقَتْلَ مِنْهُمْ الرِّحَامُ ، مِنْ أَسَارِهِ الْهَدْمِ وَالْحُسَامِ ؛ فَمَمْلَكَنَا مَا دَارَتْ عَلَيْهِ
 الْأَسْوَارُ الْخَارِجَةُ : كَفَرَارِ السَّبْعِ وَالْمَلْعَبِ ، وَجَمِيعِ الْحِنَانِ وَالْعُرُوشِ الَّتِي مَا أَنْفَكَ الشَّقِيُّ
 يَجْتَهِدُ فِي عِمَارَتِهَا وَيَتَعَبُ ؛ وَأَعْلَنَّا بِالنَّدَاءِ أَنْ كُلٌّ مِنْ جَاءَنَا هَارِبَا ، وَوَصَلَ إِلَيْنَا تَائِبَا ،
 مَنَحْنَاهُ الْعَفْوَ ، وَمَحَوْنَا عَنْهُ الْهَقْفَ ؛ وَأُورِدْنَاهُ مِنْ إِحْسَانِنَا الصَّفْوَ ؛ فَتَبَادَرُوا عِنْدَ ذَلِكَ
 يَتَسَاقَطُونَ مِنَ الْأَسْوَارِ ، تَسَاقَطَ جَنَابَاتِ الثَّمَارِ ؛ فُرَادَى وَمَثَى ، آتِيْنَ إِلَى الْحُسْنَى ؛
 فَيَسْعُهُمُ الصَّفْحُ ، وَيُجْسِبُهُمُ الْمُنُّ وَالْمُنْحُ .

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه ، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه ، أمر
 بسراح من قبضته وسجنه ، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه ووهيه ،
 واعتمد الناس في بقية يومهم السور فتوسع أنقابه ، وتفتخر أبوابه ؛ إلى أن جهم

الليل، وحقّ منهم بالأعداء الويل؛ ولزم كلّ مكره، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه؛ وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، ومع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدل بالمرأصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى امتطيت تلك الصهوة، وتسنمت فيها الدرّوه، وتسلمت بيد العنوه، وفصمت عراها عروة عروه، وأززلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن عليّ معينه عليّ البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكفّهم هنالك أولياء دولتنا عليه، فأوردوهم ويوسف ولد الشقيّ السالب حياض المنية، ونذت بالعرء أجسامهم، وتقدّمتا للبين، بأن يمدّ على الرعية ظلّ التامين؛ ويوطأ لهم كفّ التهدئة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العافية، وتكفّ عنهم الأكفّ العاديه، حتى لا تمتدّ إليهم كفّ متبب، ولا ينفت نحوهم طرف مستلب؛ ومن أنتب شيئاً أمر برده، وصدّ عن قصده - وكلّ لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونسخت منها دولتهم، ومجيت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوض الرعايا من خوفهم أمنا، ومن شومهم يمنا؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيفة التي بهرت الصنائع جمالاً؛ وأضفت على المسامين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حقّ هذا الإنعام الجسيم، والصنغ الرائق الوسيم؛ أن نتبع العفوب بعد المقدّره،

(١)
بالإحسان لمن أسلف لنا غمّطه أو شكره ؛ [فمنّا] على قبائل بني عبد الوادِ ، وأضفينا
عليهم صنوف الملابس نساءً ورجالاً ، وأوسعنا لهم في العطاء مجّالاً ، وأفعمنا لهم
من الحياء سبجلاً ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير
من بلادهم ، وحبّوناهم منها بما كفل بإحساب مرّادهم ، وإخصاب مرّادهم ،
وخططناهم بقبائل بني مرّين ، وحطّناهم بانّحاد الكلمة من تقوّل المتقولين ، وتزوير
المزورين ؛ وأعدّنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعدّنا من فرسانهم ورجالهم
لطيّان الأعادي أكبر مدد ؛ وأزِيل عن الرعايا هذه البلاد الشرقيّة إضرهم ، وأزيح
عنهم بتوتحي العدل فيهم جورهم ووزرهم ؛ وحققنا عنهم ما آد من المعارم ، وهاد
من المكّارم ؛ فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي تلى محالّ الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ،
وأخذهم بما احتقّبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلّوا من المحارم ؛
وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربّعهم معيدن
الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيّما في أيام المسرور بهنّاته ،
المغرور بما سؤل له الشيطان وأملّ له من ترهّاته ، المشهور بقتل أبيه ، الماثور
من مثالبه ومعاييه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ،
وبلغت أخبار خيانتيه من باطراف المعمور وأفاصيه ، ولكن الله تعالى أملّ له
ليكثر ما نّمه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمه .

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورخص عنها بأيدينا
أوضار أدناسه وأنجاسه ؛ وأتاح لأهلها بهلاك هذا المرّيد المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بيض في الأصل لهذه الكلمة وقد أفتينتهاها من المقام قبل من قبائل بني عبد الوادِ

(١١) البلاَدَ والعبادَ ؛ ولولم يكنْ إلا مانال الجُجَّاجَ من تَعْنِيهِ وتَعَدِّيهِ ، وطالَ عليهم من تَعَرُّضِهِ لَهُم وتَصَدِّيهِ ؛ حَتَّى حَجَزَ عَنِ المِجَازِ الشَّرِيفِ قُصَادَهُ ، وَحَجَرَ بَقْطَعِ السَّبِيلِ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ ؛ فَكَمْ سَلَبَ المِجَاجَ ، وَسَدَّ عَلَيْهِم المَسَالِكَ وَالفِجَاجَ ؛ وَفَرَّقَ فَرِيقَهُم ، وَعَوَّقَ طَرِيقَهُم . وَالآنَ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ حَقَّتِ الحَقَائِقُ ، وَأَرْتَفَعَتِ العَوَائِقُ ؛ وَصَحَّ العَلِيلُ ، وَوَضَحَ السَّبِيلُ ؛ وَتَسَهَّلَ المَرَامُ ، وَتَيَسَّرَ القَصْدُ إِلَى البَيْتِ الحَرَامِ ؛ مَكَانَ تَرَدُّهِ الزُّوَّارِ عَلَيْكُمْ أرسالا ، وَوَفودُ الأَبْرَارِ لِلسَّلَامِ خِيفًا وَثِقَالًا ؛ يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَقْضُونَ مَا يَقْضُونَ مِنْ مَنَاسِكِهِمْ ، آمِينَ فِي مَسَالِكِهِمْ ، إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ ؛ وَهَكَذَا أَيْضًا خَلَا وَجْهُنَا لِجِهَادِ الرُّومِ ، وَإِلْعَادِ مَنْ يَغْزُوهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمُ لِلقَصْدِ المَرُومِ ؛ وَأَنْ نَجِدَّ مِنْ هَذَا العَمَلِ بِجَزِيرَةِ الأَنْدَلُسِ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَا لَسَلَفْنَا بِهَا سَافٍ ، وَنَبَدَّ مِنْ شَمَلِ عِبَادِ الصَّلِيبِ مَا خَلَفِيهِمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرَ خَلْفٍ ؛ فَعَمَلُ الجِهَادِ ، بِهَذِهِ البِلَادِ ، هُوَ الفَضِيلَةُ الَّتِي لَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَخْرَهَا ، وَالحَسَنَةُ الَّتِي فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِنَا سَطْرَهَا ، وَبِجَويشِنَا المَنْصُورَةَ عَزَّ دِينُ الإِسْلَامِ بِهَذَا المَغْرِبِ الغَرِيبِ ، وَبِسُيُوفِنَا المَشْكُورَةَ وَاللَّهُ المَشْكُورُ ذَلَّ بِهَا الصَّلِيبُ ، أَوْزَعَنَا اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ آلَائِهِ ، وَأَمْتَعَنَا بِنَوَاتِرِ نِعَائِهِ ، بِمَنَّةٍ وَفَضْلِهِ .

وَأُنهِينَا لِعَالِمِكُمُ الكَرِيمِ هَذِهِ الأَنْبَاءَ السَّازِرَةَ ، وَالآلَاءَ الدَّائِرَةَ : لِمَا ذَكَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِطْلَاعِهَا ، وَسَطَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِمَاعِهَا ، وَلِعَالِمِنَا أَنْكُمْ تُسْرُونَ بِقَطْعِ دَابِرِ البَاغِينَ ، وَتَسْتَبْشِرُونَ بِحَسَمِ أَدْوَاءِ الطَّاعِينَ ؛ وَتُؤْمِرُونَ الإِخْبَارَ بِإِتِّلَافِ الكَلِمَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ الكَافِرِينَ بِإِثَارِ الحَامِدِينَ لِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِظْهَارِ دِينِهِ الشَّكْرِينَ . لِأَزَلْتُمْ تُشْرَعُ نَحْوَكُمْ البِشَائِرُ ، وَتُفْرَعُ بِذِكْرِكُمُ المَنَابِرُ ، وَتُرْفَعُ لِاجْتِلَاءِ آثَارِ أَمْرِكُمُ السَّنَائِرُ ،

(١) لم يذكر في الكلام جواب لو، ولكنه معلوم أي تكفى تأمل .

وَأَسْجَلَاءَ أَخْبَارِ سِيرِكُمْ الْبَاهِرَةِ النَّوَظِرِ، وَتُجَمِّعُ لَسْجَايَاكُمْ السَّنِيَّةِ الْعَلَاءِ، وَمَزَايَاكُمْ الْعَلِيَّةِ السَّنَاءِ؛ نَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَثْمُ ، الْأَضْوَعُ الْأَثْمُ ، يُحْصِ إِخَاءَكُمْ الْأَوْفَى ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدم] في الكلام على المكتاتبات عن الأبواب السلطانية في المكتاتبات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المرينيِّ صحبة الهدايا ، والحرة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ونصه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملا البرين ، سلطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبي سعيد^(١) ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ، الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأبعد ، الأرقى ، الأوقى ، الأجد ، الأجد ، الأضخم ، الأوح ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، محيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر ملوك الأقطار ، مفيد

(١) تقدم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنبه .

الأوطار، مُبِيد الكُفَّار، هازِمُ جِيوشِ الأَرَمَنِ والفَرَنْجِ والكُرُجِ والتَّارِ، خادِمِ
 الحَرَمِينَ، غَيْثِ العُقَاةِ، غَوْتِ العُنَاةِ، مُصَرِّفِ الكُتَّابِ، مُشَرِّفِ المَوَاكِبِ، ناصرِ
 الإِسْلَامِ، نَاشِرِ الأَعْلَامِ، نَخْرِ الأَنَامِ، ذُنْحِرِ الأَيَّامِ، قائِدِ الجُنُودِ، عاقِدِ البُنُودِ، حافِظِ
 الثُّغُورِ، حائِطِ الجُمُهورِ، حاميِ كَلِمَةِ المُوَحِّدِينَ، أبنِ المَعَالِي، مُحَمَّدِ بنِ السُّلْطَانِ،
 الجَلِيلِ، الكَبِيرِ، الشَّهِيرِ، الشَّهِيدِ، الخَطِيرِ، العَادِلِ، الفَاضِلِ، الكَافِلِ، الكَامِلِ،
 الحَافِظِ، الحَافِلِ، المُؤَيَّدِ، المُكْرَمِ، المُبَجَّلِ، المُكَبَّرِ، المُوقَّرِ، المُعَزَّرِ، المُعَزَّزِ، المُجَاهِدِ،
 المُرابِطِ، المُتَنَاغِرِ، الأُوْحِدِ، الأُسْعَدِ، الأَصْعَدِ، الأَوْفَى، الأَنْفَعِ، الأَخْصَمِ، المُقَدَّسِ،
 المُرْحومِ، المُلِكِ المُنْصُورِ، سَيفِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، قَاسِمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. أبقَى اللهُ مُلْكَهُ
 مُوصُولِ الصَّوْلَةِ وَالْأَقْتِدَارِ، مَحْمِيَّ الحَوْزَةِ حَامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدِ المَأْتَرِ المَأْتُورَةِ وَالْآثَارِ،
 عَزِيزِ الأَوْلِيَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَالْأَنْصَارِ.

سَلامٌ كَرِيمٌ، زَاكٍ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشْرَاقَ النِّهَارِ صَفْحَاتُهُ، وَتَعْبِقُ عَن شِدَا الرُّوضِ
 المُعْطَارِ نَفْحَاتُهُ، يُخْصُّ إِحْاءَ كَمِ العَالِيَةِ، وَرَحْمَةَ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ.

أما بعد حمد الله الذي وسع العباد منّا جسيماً، وفضلاً جزِيلاً، وأهمهم الرِّشَادَ
 بأنْ أبدى لهم من آثار قدرته، على مَقْدَارِ وَحْدَتِهِ، بُرْهَانًا وَاضِحًا وَدَلِيلًا، وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
 الإِسْلَامِ، حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ، من أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا؛ وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ من تَقْوَى
 القُلُوبِ، وَمَثَابَاتِ مَحَطِّ الأَوْزَارِ وَالدُّنُوبِ؛ فَمَا أَجْزَلَ نِعْمَتَهُ مَنِيلاً، وَأَجْمَلَ رَحْمَةَ رَبِّهِ
 مَقِيلًا؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى من أَفْضَلِ العَرَبِ
 فَصِيلَةً، فِي أَكْمَلِ بَقَاعِ الأَرْضِ فَضِيلَةً، وَأَكْرَمِهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا، المُحْتَبَى لِنَحْتُمِ الرِّسَالَةَ،
 وَحَسْمِ أَدْوَاءِ الضَّلَالَةِ، فَأَحْسَبَ اللهُ بِهِ النُّبُوَّةَ نَتْمِيًا وَالرِّسَالَةَ تَكْمِيلًا، المُخْصُوصِ بِالْحَوْضِ
 المَوْرُودِ، وَالمَقَامِ المُحْمُودِ، يَوْمَ يَقُولُ الظَّالِمُ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا حَلِيلًا﴾ المَبُوءَا

من دار هجرته ، ومقرّ نصرته ، محلاً ما بين بيته ومنبره فيه روضةٌ من رياض الجنة لم يزل بها تزيلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضّلهم سابقاً السعادة تفضيلاً ، وأهّلهم العناية [بأمر الدين إلى أن يُوسّعوا الأحكام برّهانا ودليلاً ، فإننا نحيط علم^(١) الإخاء الأعزّ ما كان من عزّم مولاتنا الوالدةِ قدس الله رُوحها ، وتورّضَ رِيحها ، على أداء فريضة الحجّ الواجبه ، وتوفيةِ مناسكه اللابيه ؛ فاعترض الحِمَام ، دُونَ ذلك المَرَام ، وعاقَ القَدَر ، عن بلوغ ذلك الوَطَر ، فطوى كتابها ، ومجّل إلى مقرّ الرحمة بفضل الله ما بها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يُحتسبُ دُخْرها ، وإنّ لدينا من نوجب إعظامها ، وتقييمها بحكم البرّ مقامها ، وعزّمها إلى ما أمّلته مصروف ، وأمّلها إلى ما كانت أمته موقوف ؛ وهى محلّ والدتنا المكرّمة ، المبرورة ، الأثيرة ، الموقرة ، المبجلة ، المفصلة ، المعززة ، المعزرة ، المعظمة ، المطهرة ؛ أسنى الله مكانتها ، وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها ؛ وقد شيعناها إلى حجّ بيت الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام ، والفوز من السلام ، على صريح الرسالة ، ومثابة الحلاله ، بنيل السؤل والمَرَام : لتظفر بأملها المرغوب ، وتفرّ بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحين شخّص لذلّم الغرض الكريم ، موكبها ، وخلص إلى قصد الحرم العظيم ، مذهبها ؛ والكرامة تلحفها ، والسلامة إن شاء الله تكنفها ؛ أصحابنا من حور دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ؛ من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر ، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدّور ؛ من أعيان بني مريم أعزّهم الله تعالى والعرب ، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى المالئين دلاء القرب ، إلى

(١) في الأصل وأهّلهم العناية الإخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شيء . فردنا ما بين الترييعين لاعلى أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ؛ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَثْرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشُهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّابِحَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ
 مَأْثُورَةٌ ؛ وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرُدُّهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 مَنَهْلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرُدُّهَا ؛ وَهَكَذَا سَيَرْنَا مِنْ تَحْفِيفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرُ فِي الْوَقْتِ
 تَيْسِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَدَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَلِهَذَا الْغَرَضُ أَرْدْنَاهُ تَيْسِيرُهُ ، لِطَوْلِ الْمَغِيبِ
 عَنْ الْحَضْرَةِ ، وَالشُّغْلِ بِتَهْيِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّفَرِ ؛ وَعَيْنًا
 لِإِيرَادِهَا لَدَيْكُمْ ، وَإِيرَادِهَا عَلَيْكُمْ ؛ أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَثْمَانَ
 السُّوَيْدِيَّ ؛ وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنُ
 ظَنَّهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّيْ لِمَنْ مِنَ الْيُسْرَى وَالتَّسْمِيلِ الْقَصْدَ
 وَالسُّوْلَ ، وَيَأْمُرُ نُوَابَ مَالِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقُوَّامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَالِكِ ، لِتَكْمُلَ الْعِنَايَةُ بِهِمْ
 فِي الْمَمَرِّ وَالْقَفُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوَجْهِةِ الْمُبَارَكَةِ إِيصَالُ الْمُصْحَفِ الْغَزِيرِ
 الَّذِي خَطَطْنَاهُ بِيَدِنَا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً لِيَوْمِنَا لَعَدْنَا ؛ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ
 دِينِنَا وَدُنْيَانَا ؛ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَبِيبَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبِي عَلَى
 الْأَيَّامِ نَحْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْقَوْزِ بِحِطِّ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ
 يَوْمَ الْمَاءِ .

وَقَدْ عَيْنًا بِيَدِ مَحَلِّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبْهَتَهَا ، وَيَمِّنُ وَجْهَتَهَا ، مِنْ
 الْمَالِ مَا يُسْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمَسْتَعْلَاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقَرَاءَةِ
 فِيهِ ، مَوْبَدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَمَجَانِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقَّى
 مِنَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ مَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْتَيْنَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْتِضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ
 بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْعَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَاتِهِمْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرُّ لَهُمْ
 أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنُهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السُّبُل الواضحة؛ وشكراً بآدراككم موطد الأساس،
مطرِد القياس، متجدد مع اللحظات والأنفاس؛ والله يَصِل للإخاء العلى نُصرة أيامه،
ويوالى نُصرة أعلامه؛ ويُنقى الثغور القصية، والسُّبُل السرية، موطئة بتقضيه
وإبرامه، مَحُوطة بمعاوضة أسيافه وأقلامه، والسلامُ الكريمُ العميم، يخص إخاءكم
الأعز، ورحمة الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين
من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعائة .



(١)
وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني، في العشر الأوسط
من شعبان سنة أربع وثمانمائة، وهو:

من عبد الله ووليه: عثمان أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، سلطان
الإسلام والمسلمين، ناسر بساط العدل في العالمين، المقتدى بآثار آبائه الكرام،
المقتفى سنتهم الحميدة في نُصرة الإسلام، المعجل نفسه العزيزة في التهم بما قلده
الله من أمور عبادته، وحياطة تُنوره وبلاده، سيف الله المسلول على أعدائه، المنتشر
عدله على أقطار المعمور وأنجائه، ظل الله تعالى في أرضه، القائم بسنته وقرضه،
عماد الدنيا والدين، علم الأئمة المهتدين، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة
الإمام، ملك الملوك الأعلام؛ فاتح البلدان والأقطار، مُمهد الأقاليم والأمصار؛ جامع
أشتات الحماد، ملجأ الصادر والوارد؛ الملك الجواد، الذي حلت محبته في الصدور
محل الأرواح في الأجساد؛ أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين؛ أبي العباس
ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سالم، ابن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وإن كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين،
 المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل
 رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ وصل الله تعالى أسباب تأييده
 وعَضِدِهِ، وقضى باتصال عُرف تجديد سَعْدِهِ، وأناله من جميل صنعه ما يتكفَّل
 بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محلِّ أخينَا الذي نُؤثِرُ حَقَّ إِيَّاهُ الكَرِيمِ، وَنُثْنِي عَلَى سُلْطَانِهِ السَّعِيدِ ثَنَاءَ الْوَالِيِّ
 الْحَمِيمِ، وَنَشْكُرُ مَا لَهُ مِنَّا مِنَ الْحُبِّ السَّلِيمِ، وَالْوَدِّ الثَّابِتِ الْمُقِيمِ، السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ،
 الْمَاجِدِ الْأَصِيلِ، الْأَعَزَّ الْخَطِيرِ الْمَثِيلِ، الشَّهِيرِ الْأَمْجَدِ الْأَرْفَعِ، الْهَامِ الْأَمْنَعِ؛
 السَّرِيَّ الْأَرْضِيَّ؛ الْمَجَاهِدِ الْأَمْضَى؛ الْأَوْحَدِ الْأَسْنَى، الْمَكِينِ الْأَحْمَى؛ خَدِيمِ
 الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، حَازِلِ الْفَخْرَيْنِ الْمُنِيفَيْنِ؛ نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، مُجِي الْعَدْلِ
 فِي الْعَالَمِينَ؛ الْأَجَدَّ، الْأَوَدَّ، الْمَكِينِ، الْأَخْلَصِ، الْأَفْضَلَ، الْأَكْلَ، أَبِي السَّعَادَاتِ
 فَرَجِ، ابْنِ السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ، الْأَعَزَّ الْمَثِيلِ، الْخَطِيرِ الْأَصِيلِ، الْأَرْفَعِ، الْأَمْجَدِ،
 الشَّهِيرِ، الْهَامِ، الْأَوْحَدِ، الْأَسْمَى، الْأَسْرَى، الْأَرْضِيَّ، الْمَجَاهِدِ، الْأَمْضَى، خَدِيمِ
 الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، حَازِلِ الْفَخْرَيْنِ الْمُنِيفَيْنِ، الْأَفْضَلَ، الْأَكْلَ، الْمَبْرُورِ، الْمَقْدَمِ،
 الْمَرْحُومِ، أَبِي سَعِيدِ (بَرْقُوقِ) بْنِ أَنْصَ؛ وَصَلَّ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلْطَانِهِ الْمُؤَيَّدِ جَدًّا
 لَا يُعْجَمُ عُوْدُهُ، وَعِزًّا لَا يَمِيلُ عَمُودُهُ، وَنَصْرًا يَمْلَأُ قَطْرَهُ بِمَا يَغْصُ بِهِ حَسُودُهُ،
 وَعَضُدًا يَأْخُذُ بِرِمَامِ أَمَلِهِ السَّنِيِّ فَيُسَوِّقُهُ وَيُقَوِّدُهُ .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى سُبُوغِ نِعَمَائِهِ، وَتَرَادُفِ لُطْفِهِ وَآلَائِهِ؛ الَّذِي عَرَّفَنَا مِنْ وِلَايَتِكُمْ
 الْكَرِيمِ مَا سَرَّنَا مِنْ أَطْرَادِ أَعْتِنَائِهِ، وَأَبْهَجِ النُّفُوسِ وَالْأَسْمَاعِ مِنْ صَفَاءِ وَآلَائِهِ،

ومواصلته صَفَائِهِ ، والصلاة والسلام الأَكْبَرِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَمَبْلَغِ رِسَالَتِهِ وَأَنْبَاءِهِ ، صَاحِبِ الْمَقَامِ الْمُحْمُودِ ، وَالْحَوْضِ الْمُرْوُودِ ، وَاللَّوَاءِ الْمُعْقُودِ ، فَأَكْرَمَ بِمَقَامِهِ وَحَوْضِهِ وَلِوَانِهِ ؛ وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، الَّذِينَ هُمْ لِلدِّينِ بِدَوْرٍ أَهْتَدَائِهِ وَنُجُومِ أَقْتَدَائِهِ ؛ وَصَلَةَ الدُّعَاءِ لِمَقَامِكُمُ الْكَرِيمِ بِدَوَامِ عِزِّهِ وَأَعْتِلَانِهِ ، وَأَقْبِيَالِ النَّصْرِ الْمُبَالِغِ فِي أَحْتِفَالِهِ وَأَحْتِفَائِهِ ، وَحَيَاطَةِ أَنْحَائِهِ وَأَرْجَائِهِ ، وَتَأْيِيدِ عِزِّ مَاتِهِ وَأَرَائِهِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ سَعْدًا سَافِرًا ، وَعِزًّا مَا ظَافِرًا ، مِنْ حَضْرَتِنَا الْعَالِيَةِ بِالْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ كَلَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَحَرَسَهَا ، وَنِعْمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَدِينَا وَكَفَّةِ السَّجَالِ ، وَوَلَاؤُهُ جَلُّ جَلَالِهِ سَابِغُ الْأَذْيَالِ ، وَخِلَافَتِكُمْ الَّتِي نَزَعْنِي بَيْنَ الرَّجْوَانِيهَا ، وَنَقْتَنِي فِي كُلِّ مَنْقَبَةٍ كَرِيمَةٍ سَيَّرَهَا الْحَمِيدَةَ وَمَدَاهِبَهَا - وَإِلَى هَذَا وَصَلَّ اللَّهُ سَعْدَكُمْ وَوَالِي عِزِّدِكُمْ ، وَكَتَابْنَا هَذَا يُقَرَّرُ لَكُمْ مِنْ وِدَادِنَا مَا شَاءَ وَذَاعَ ، وَيُؤَكِّدُ مِنْ إِخْلَاصِنَا إِلَيْكُمْ مَا نَتَحَدَّثُ بِهِ الشُّرَّارَ فُتُوْعِيهِ جَمِيعَ الْأَسْمَاعِ ؛ وَقَدْ كَانَ أَتَيْتُنِي 'إِلَيْنَا حَرَكَةُ' عِدْوِ اللَّهِ وَعِدْوِ الْإِسْلَامِ ، الْبَاغِي بِالْأَجْتِرَاءِ عَلَى عِبَادِهِ سَبْحَانَهُ بِالْبُؤْسِ وَالْإِتِّقَامِ ، الْآخِذِ فِيهِمْ بِالْعَيْثِ وَالْفَسَادِ ، السَّاعِي بِجَهْدِهِ فِي تَهْدِيمِ الْحُصُونِ وَتَخْرِيبِ الْبِلَادِ ، وَتَعَرَّفْنَا أَنَّهُ كَانَ يَعْتَلِقُ أَمَلَهُ الْخَائِبَ بِالْوُصُولِ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِكُمُ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأَتَهَازِ الْفُرْصَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ خِلَافَتِكُمُ الْعَالِيَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَى بِفَضْلِهِ شَرَّهُ ، وَدَفَعَ نِقْمَتَهُ وَضَرَّهُ ، وَأَنْصَرَفَ نَاكِصًا عَلَى عَقْبِهِ ، خَائِبًا مِنْ نَيْلِ أَرْبِهِ . وَلَقَدْ كُنَّا حِينَ سَمِعْنَا بِسُوءِ رَأْيِهِ الَّذِي غَلَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَضْمَرَ خَلْقِ اللَّهِ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَجِدُّهُ فِي أَنْجِرِهِ ظَلَّهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ [عِزُّنَا عَلَى] أَنْ تُمَدِّدَ مِنْ عَسَاكِرِنَا الْمَظْفُورَةِ بِمَا يَضِيقُ عَنْهُ الْفَضَا ، وَنَجْهَزَ لِحَيْتِكُمْ مِنْ أَسَاطِينِنَا الْمَنْصُورَةِ مَا يُجْمَعُ فِي إِمْدَادِ الْمُنَاصِرَةِ وَيُرْتَضَى ؛

فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهياً لخلافكم السنة وللسلمين ، هناءً يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنبأته ، والحب الذي أوضح
الإخلاص برهانه ، وقع تحيُّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله ، وتقدير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأجل ، الأوجه ، الأئوه ،
الأكل ؛ أبي عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجل ، الأعز ، الأسنى ، الأوجه ، الأئوه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهي ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المثل ، الأشهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسنى العراقى ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السنة وفادته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله ،
ويكل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم
سعادتم ، ويحفظ مجادتكم ، ويسني من كل خير إرادتم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان الدلاني» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعوله ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتى بـمُحطبة في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، والرضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول: فإننا كتبنا اليكم، ويأتى على مايناسب المقام، ثم يخْرِط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كُتِب به عن أمير المسلمين السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة الفرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور. وهى:

الأبواب الشريفة^(١) التى تعنو لعزة قدرها الأبواب، وتعتري إلى نسب عدلها
الحكمة والصواب؛ وتناديها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها،
فيصدُر بما يشفي الجوى منها الجواب؛ فإذا حسن مناب عن أمة الهدى، وسبق
المدى، كان منها عن عمومة النبوة النواب؛ وإذا ضفت على العفاة بغيرها أثواب
الصلوات، ضفت منها على الكعبة المقدسة الأثواب - أبواب السلطان الكبير،
الجليل الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحى، الأسعد، الأصعد، الأجد، الأعلى،
العادل، العالم العايل، الكامل، الفاضل، الكافل؛ سلطان الإسلام والمسلمين،
رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام، علم الأعلام، نجر الليالي والأيام،
ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار والأقطار، وعاصب تاج
الفتح، هزيم الفرنج والترك والتتار، الملك المنصور أبى الفتوح شعبان، ابن الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح".

الرفيع المجآده ، الكريم البنوة والولآده ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشهير ، المعظم ،
 المجدد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نخر الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
 الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمة الدين ، سمام الطفاة والمعتدين ،
 المقدس ، المظفر ، الأمير أبي عليّ حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ،
 ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، وليّ
 أمير المؤمنين ، وظهير الدين] سلطان الحجّ والجهاد ، وكاسي الحرم الأمين ،
 قامع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنّة ، محيي الملة ، ملك البرين
 والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
 الظاهر ، الأبعد ، الأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيد المعان ، المرفع ،
 المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
 الصالحى أبقاه الله ، وفقّ الصباح يشهد بكاله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
 مذهب على حلة أعماله ، ومسورات الإسلام ، أمنة على طول الأيام ، من إهماله ،
 ولا زال ركنًا للدين الحنيف ، تترأحم على مستلمه الشريف ، شفاه أماله .

سلام كريم ، برعميم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
 مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يسرى من الطيب ، والحمد المظيل
 المظيب ، فى الصّوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه • بما استحفظ
 من الأمانة إلى محل الإمامه ، وقوف الحفيظ العليم ، يعمد مشاريع تلك الأبواب
 الشارعة إلى الفضل العميم ، المقابلة لذمام وسائل الإسلام بالصّدر المشروح ، والبر
 المنوح ، والقلب السليم - من معظم سلطانه ، ومجلّ شاناه ، المفتخر بالانتظام فى سلّك

خُصَّانَه ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أفضى سوله ، وأعانه على جهاد عدو الله
وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنة من الإنحرام ، والإنتثار ،
مفصلة النظام ، بحرز المآثر العظام ، والآثار . معترف أهلها ، في حزن البسيطة وسهولها
عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوى العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
والاستكثار ، ولا يبدل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمة الوجوب ، في خزائن
الاستثثار ، حتى تظهر خبيثة عنيته بأوليائه ، المعترفين بآلائه ، بادية للأبصار ، فيما
قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الاستغاثه به والانتصار ، في مختلف الأقطار
والأمصار . الولي الذي لا تمكدر هبات فضله شروط الاعتصار ، ولا تسيب خطب
حمده ضرائر الاقتصار والأختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نعمة الاكوان ، وسر الدهور والأزمان ؛
وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهامله ، على الهضاب والوهاد
والنجد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
وتفاضل الأطوار . منقذ الناس من البوار ، ومبويههم من جور الله خير الجوار .
نبي الرحمة والجهم والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمثوى نبوته على
الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فمهما
أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الدمار ، ومقتحبي الغمار ، وباذل كرائم الأموال من
دونه ونفائس الأعمار ، القائمين في سماء ملته للاهتداء بسنتهم ، والإقتداء بسنتهم ،

مَقَامَ النُّجُومِ الْهَادِيَةِ وَالْأَقْصَارِ؛ مَا صَقَلَتْ مَدَاوِسُ النَّسِيمِ سُيُوفَ الْأَنْهَارِ، وَتَجَلَّ
الْوَرْدُ مِنْ تَبَسُّمِ الْبَهَارِ، وَغَازَلَتْ عَيُونُ زَهْرِ الْحَبْرَةِ عُيُونَ الْأَزْهَارِ، وَطَرَدَ أَدْهَمُ اللَّيْلِ
أَشْهَبَ النَّهَارِ .

وَالدُّعَاءِ لَتِلْكَ الْأَبْوَابِ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْمِحْجَابِ، الْمَعُودَةِ بِاجْتِلَاءِ غُرْرِ الْفَتْوحِ، وَالْمَطَالَعِ
الْمَشِيدَةِ الْمَصْنَعِ عَلَى الْعَزِّ الْمُنُوحِ، وَالْأَوَاوِينَ، الْمُؤَيَّدَةِ الدَّوَاوِينَ، بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ،
بِإِعْلَاءِ الْمَظَاهِرِ وَالشُّرُوحِ، وَإِنَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَهْلَةِ تِلْكَ الشُّرُوحِ سَاحَاتِ تِلْكَ
الشُّرُوحِ، وَلَا زَالَتْ أَقْلَامُ بَشَائِرِهَا تَأْتِي عَلَى سُورَةِ الْفَتْحِ بِأَكْلِ الشُّرُوحِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ لِمَثَابَتِكُمْ السَّاطِنِيَّةِ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمِيِّ، وَالْمُلْكِ الْأَشْرَفِ الْأَسْمِيِّ،
وَالصِّبْتِ الْبَعِيدِ الْمَرْحَمِيِّ، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ النُّعْمِيِّ،
وَجَعَلَ غَيْثَ نَوَاهِهَا الْأَهْمِيِّ، وَحَفَّظَ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَثْمِيِّ، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمُزَّقُ جَلَابِيبَ الظُّلْمَا، وَأَخْبَارَ بِأَسْهَائِهَا وَجُودِهَا، وَسَعَادَةَ وَجُودِهَا، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رَكَابُ الدَّأْمَا، وَتَرْفِرُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَا حِجَاهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا، مِنْ مَنزِلِنَا الْمُحِبُّورِ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ، وَخِزْيِ عَدُوِّهِ الْمُدْحُورِ، بِحِمَاةِ غَرْنَاطَةِ: دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِحِزْبَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ، وَالِي اللَّهِ عَنْهَا الدَّفَاعِ، وَأَنَارَ بِمَشْكَاتِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْإِيْفَاعِ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْإِرْتِفَاعِ وَالْإِنْتِفَاعِ، حَتَّى تَشْفَعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْأَوْتَارَ وَتُوتِرَ الْأَشْفَاعِ، وَالْأَاءُ اللَّهُ لَدَيْنَا، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا،
قَدْ أَجْلَسْتِ اللِّسَانَ الشُّكُورِ، وَإِنْ أَسْتَنْفَدْتِ الرُّوْحَ وَالْبُكُورِ، وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الشُّعْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتْ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَى الزُّورَ، وَالنُّوْطِينَ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ، وَأَقْتَطَعَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَاللُّدُورَ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَقِيدَةٌ لِأَسْبَدَلِ، وَأَدْوَاخُ عَلَانِهَا حَائِمٌ الْجَمْدِ بِهَا تَهْدَلُ، وَمَحَافِلُ

شأنها تترآكم في سماءها الألوَّة والمندل؛ [والحال ما علمتم : بحر زاجر الأوج ، وعدو
 وأفر الأفواج] وحرم^(١) لولا آقاء الله مفتح السياج ؛ وحياد ضمرتها مصابرة الهياج ،
 وداء على الأيام متوقع الأهتياج ، وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الأحتياج ؛
 فالنفوس إلى الله تُجهز وتُسَلَّم ، والصبيان في المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة
 وتعلم ، والألسنة بغير شعاع الإسلام لا تنبس غالباً ولا تنكلم ، إلا أن عادة الخبير
 اللطيف ، تخفيف الدعر المطيف ، ونصر النزر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛
 والحال تُرجح بين الحرب والسلام ، والمكاملة والكلم ، وتأميل الجبر ، وأرتقاب عاقبة
 الصبر ، على حمة الدبر .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التي كان دفاع الله من دونها
 سداً ، والملائكة جنداً ، والعصمة سورا ، والروح الأمين مددا منصورا ، وأنها
 استنفدت الوسع في أحشادها ، حتى ضاقت البلج عن أعوادها ، وبلغت المحجود
 في استنفادها ، حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصيح بهم التائب ، ويدمرهم
 الصليب ، وقد سول لهم الشيطان يكاد تغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
 أمال غرورهم ، ومحوم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليتموا تغر الإسلام بصدمتها ،
 ويقودرا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعزة ، ويتلقفوا في القدس
 كرة الكزة ؛ ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام ؛ ويشيموا^(٢) سيوف التغلب على
 الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم
 الذي يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كل طريق ، وقبر نبيهم الذي
 يظفئون بزيارته من الشوق كل حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الربحانة وهي لازمة كما لا يخفى .

(٢) شام السيف غمده واستله ضد . والمراد هنا المعنى الثاني كما لا يخفى .

وشهيق ، وشوقٍ بذلك الحبيبِ خَلِيق . ويقطّعون حبلَ المسلمين حتى لايتأتى بلوغُ فريق ولا غرضٌ تشريق ، والله من ورائهم مُحِيط ، وبدمائهم مُشِيط ، وعباده بصير ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونصير ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلا أن صمأ جرادهم ، وخلص إليها مرأدهم ، وفاض عليها بحرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى آسرتك الشرك بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا تُرْفَع ، والمُصيبة التي غلّتها لا تُنقَع ، وأشتعل الباس ، ودُعمَ الناس ، وأرى الشدة من تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ربح النصر عاطرة الأرج ، ونصر حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر الحق على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاطل ، فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوفُ تُرْفَعُ حيث تُفْلِيه ، والسهام تُثْبِتُه وتَفْلِيه ، وغرماً كره الإسلام تستقضي منه دينها وتستوفيهِ ، والخزى قد جَلَّ سبأله الصُّب ، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشُّب ، والغلب قد أخضع رقباه الغلب ؛ فكم من غريق أردته دُروعه ، لمّا حشى بالروع روعه ، وطعينٍ نُظمت بالسهمري ضلوعه ، فغلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة ضفت على الإسلام ظلالها ، وخطة نعمة أوسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعه راق عيون المؤمنين جمالها ، فاهترت بها الأرض وربت ، ونشكر الله جلّ جلاله أعربت ، وأستبشرت النفوس ، وذهب البوس ، وضمناً بمنة الله اللبوس ، وظهرت عناية الله بمقامكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ؛ فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(١) صمأ عليهم كنع طلع أنظر القاموس في باب المهموز .

الحرمين ، وإنها للوسيلة الكبرى ، والدريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهي
عهدة الله التي يَصُونُهَا من كل أهتِضام ، وقِلادته التي ما كان يتركها بغير نظام .
وكان من لطائف هذا الفتح الذي أجزَلَ البشري ، وأوسع أعلام الإسلام نَشْرًا ،
ورُودُه بعد أن شُفِيَت العِلَّة ، ونُصِرَت المِلَّة ، وبعد أن جَفَا الدهرُ وتجاوَى ، وعادى
ثم صافى ، وهجرَ ووَافى ، وأمرَضَ ثم عافى ؛ فلو ورد مُقَدِّمُه قبل تَالِيه ، ونَقَدُه متأخرًا
عن كَالِيه ، أو كانت أوارِحُه بعيدًا ما بينها وبينَ أَوَالِيه ، لَأَوْحَشَتِ الظُّنُونُ وساءتْ ،
وبلغتِ الهمومُ من النفوسِ ماشاءتْ ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسدِ يتداعى كله لتألم بعضه ،
ويتسأهم إخوانه في بسطه وقبضه ، وسماؤه مرتبطة بأرضه ، ونقله متعلق بقرضه ،
فالحمد لله الذي خَفَّفَ الأثقالَ ، وألهم حالَ الضَّرِّ الأنتقالَ ، وسوَّغَ في الشُّكْرِ المَقَالَ ،
وزاروا قالَ ، وجمع بينَ إيقاظِ القلوبِ ، وإزالةِ المَطْلُوبِ ، وأنَّ وجدَ العدوَّ طعمَ
الإسلامِ مرًّا فما ذاقه ، وعودَه ضَلْبًا فما أطاقه ، وورَعَ عن طريقِ بيتِ الله ماعاقه ،
وقاد إليكم في بُيُوتِكُمْ فَضْلَ الجهادِ وساقه [وردَّ المكرَ السَّيِّءَ على العدوِّ وأحاقه]^(١)
فما كانت هذه المَكِيدَةُ إلا داهيةً للكفرِ طارِقَه ، ونَكْثَةً لعَصَبِ التثليثِ عارِقَه ،
ومُعْجَزَةً من آثارِ النبيِّ الشريفِ لهذا الدينِ المنيِّفِ خارِقَه ، واستأصلتْ للعدوِّ المالَ ،
وقطعتْ الآمالَ ، وأوهنتِ اليَمِينِ والشَّمالَ . فبادرنا عندَ تَعَرُّفِ الحِبرِ ، المختالِ من
أثوابِ المَسْرَةِ في أبهى الحِبرِ ، المُهْدِي أعظمِ العِبرِ ، إلى تهنئتكُم تطيرُ بنا أجنحةُ
الإرتياحِ ، مُبارِيَةً للرياحِ ، وتستفزنا دواعي الأفراحِ ، بحسبِ الوُدِّ الضراحِ ؛ وكيف
لا يُسْرُّ الأيسارَ يمينه [والوجهُ بيمينه ، والمسلمُ بدينه ، وخاطبنا كم مهنتين ولولا العوائق]^(١)
التي لا تَبْرَحُ ، والموانعُ التي وصَّحتْ حتى لا تُشْرَحُ ، ومكايدهُ هذا العدوِّ الذي يأسُوبه
الدهرُ ويَجْرَحُ ، لم نَجْتَرِ بِإعلامِ القلمِ ، عن إعمالِ القَدَمِ ، حتى نتشرفَ [بالورودِ على

(١) الزيادة من "الريحانة" .

(١) تلك المثابة الشريفة، وامتاز بزيارة الأبواب المنيفة، فنفضى [الفرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمله، ونية المؤمن أبلغ من عمله؛ فهينئاً بما خولكم الله من ظفرٍ شهدت برضا الله مرأسه، وأفتتت عن تغور العناية الربانية مباسمه، وتوقرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهيئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجته، ويهيئ الإسلام عصمة ثغره المؤثر، وطهارة كتابه المنشئ، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه: مرفأ الفسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحط رحال الأغباط، ومتخير الإسكندر عند البناء والأختطاط. ومما زادنا بيجها بهذا الفتح، وسرورا زائدا بهذا المنح، ما تحققنا أنه يشير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرفه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الأصنام، بحيث البرموصول، والكفر بكثرة العدد يصول، ونيران الحوار [متراية للعيان، والفراسخ القليلة] متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريح إلا من عند الله لا يحسب، فتنجدنا بالدعاء السنة فضلائه، ونسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصرتنا في أرضه بملائكة سمائه.

وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملاً اليد أستكثارا، والخلد اعتداداً واستظهاراً، والهيم تغاراً، وأضاء القطر أنواراً: جوابكم الكريم يئتم من نفعاته شدا الإذخر والخليل، وتلتمس من خلال حاقاته بركات الخليل، وتقربى الوجوه به آثار المعاهد، وتلتمع من ثنايا وفادته بوارق الفوائد، فأكرم به من وافد مخطوب، وزائر مرقوب، صدعنا به في حفل الجهاد اتحاء وأفتخارا، ثم صنائه

في كرائم الخزائن آفتاءً للخلف وأدخارا ، وجعلنا قرآه سُكْرًا مِعْطَارًا ، وثناءً يبقِي
 في الخاقين مَطَارًا ، ودعاءً يُعَلِي اللهُ به لمقامكم السني في أولياته مَتَدَارًا ، ويجهزُ به
 لِمُدِّكُمْ كما فعل أنصارا ، ويشيئكم الجنة التي لا يرضى السعداءُ بغيرها قرآرا ،
 والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا ، ويُقيمُ الشكرَ
 ألزم الوظائف لحقكم آبتدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدم شعارا ، ويقيمكم للإسلام
 رُكْنًا شديدًا ، وظلاً مديداً ، وسماءً مدرارا ، ما استأنفتِ البدورُ إبدارا ، وعاقب الليلُ
 نهارا ، والسلام .

المقصد الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى صاحب مالى^(١))

وهو المستولى على التكرور وغانة وغيرهما ، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين
 مملكةً ، ولم أقف لأحدٍ منهم على صورة مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقر
 الشهابي بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
 تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ؛
 وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(١) كذا في الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو)

ورسم مكاتبه أن تكتب في ورق مربع بخط نخط المغاربة: فإن فضل من المكاتبه شيء كتب بظاهاها، وتفتح المكاتبه بخطبة مفتحة بالحمد، ثم يتخلص إلى المقصد بعديّة، ويأتي على المقصد إلى آخره، ورأيت قد ختم مكاتبه إلى الأبواب السلطانية بقوله: والسلام على من اتبع الهدى. وكان ذلك جهل من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء، إذ لا يتدون إلى حقائقها.

وهذه نسخة كتاب ورد على الملك الظاهر «أبي سعيد برقوق» ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبة ابن عمه، مع هدية بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عرب جذام المجاورة لهم، وهي في ورق مربع، السطر إلى جانب السطر، بخط مغربي، وليس له هامش في أعلاه ولا جانبه، ونجمة الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخط ترأساً بين الأبعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات. وصلوات الله على نبينا المصطفى، ورسولنا المرتضى، الذي أعلق الله به باب النبوة وختم، وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مانحاً الورق، وما عاقب الشروق الأصيل. ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى ، الملك ، الأجل ، سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ،
 الملك المقدم ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ،
 ودهر وزمان : الملك ، العادل ، الزاهد ، التقى ، النقي ، الأتجد ، الأجد ، الغشمم ،
 نجر الدين ، زين الإسلام ، قطب الجلالة ، سلاله الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح
 الظلام ، أبو عمرو عثمان الملك ، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله
 ضريحه ، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لأننا ولا نخر -
 إلى ملك المصر الجليل ، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر ، وأعذب من ماء الغمام وأليم ، زاد الله ملككم
 وسلطانكم ؛ والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم ، الذين يدرسون القرآن والعلوم ،
 وجماعتكم ، وأهل طاعتكم ، أجمعين .

وبعد ذلك ، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا ؛ وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بن محمد
 من أجل الحاجة التي وجدناها ، وملوكتنا ، فإن الأعراب [الذين] يُسمون جدّاما
 وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم
 من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يُمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين
 فقتلوهم قتلا شديدا ؛ لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
 ملكنا ، عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونا ابن أبننا إدريس الحاج ، بن إبراهيم
 الحاج ؛ ونحن بنو سيف بن ذي يزن ، و [الذين] قبيلتنا ، العربي القرشي ، كذا
 ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، في بلد بنوكافة
 حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، ويبيعونهم لجلاب مصر والشام
 وغيرهم ، ويخندمون ببعضهم ؛ فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
 أسوان ، فإنهم قد اتحدوا متجرا ؛ فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويحنون ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليتسلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسامون فصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصالحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيتون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تتخذوهم يسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم». وقال: «المؤمنون كالبنيان يسد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسامه» إلى آخره. وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين) وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وإن لم يقدر فبقلمه، (أراد بذلك عامة المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال عليه السلام: «كلكم راجع وكلكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من أتبع الهدى - ولم يورث.

الطرف الثالث

(في المكاتب الصادرة عن ملك "الكائِم" ولم أَقِفْ له على مكتبةٍ إلا أنه يُسَبِّه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو"
فإنه على قُرْب من مملكته والله أعلم

المقصود الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشمالي، وهي بلاد الروم)
قد تقدّم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأنّ كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا
إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برساً^(١).

القسم الثالث

(من المكاتب الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكُفَّار،
وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتب الواردة عن ملوك الكُرج^(٢))

الضرب الثاني

(الكتب الواردة عن ملوك الحبشة^(٣))

والعادة فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا
المعنى إلا مكتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب
اليمين، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من المكتبة ولا ترك لها بياضاً كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض في الأصل .

أقل الممالك يقبل الأرض، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه، أن رسولاً وصل إلى من وإلى قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك [أن] يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً، لا ينجي ذهباً ولا فضة، ويرسله إلى مدينة "عوان". وأقل الممالك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر: صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى [ما] بين يدي مولانا السلطان إلا أنني كنت في سكار (؟) والملك داود قد توفى، وقد ملك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين؛ وأما النصارى فكثير لا يحصون، والكل غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين؛ وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الممالك، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون؛ وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض، وبلادنا ونحمة. أي من مريض لا يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته فيمرض فيموت. ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين، فسيروا مطراناً يحفظهم.

قلت: وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة، وأنه لولا اضطرابه إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يسمع بنفسه عن المكاتب، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم.

الضرب الثالث

(الكتُّبُ الواردةُ عن ملوك الروم، ورأس الكَلِّ صاحبِ القُسطنطينية)

وقد وقفتُ على كتابٍ ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربع عشرة
وثمانمائة في درج ورق فرنجيٍّ في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه
وصلُّ واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامشٌ عن يمينه وهامشٌ عن يساره، كلُّ
منهما تقديرٌ إصبعين، ومقدارُ ما بين السطور متفاوتٌ: فأعلاه بين كلِّ سطرين
أربعة أصابع مطبوقة؛ ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كلِّ سطرين قدرُ ثلاثة
أصابع؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين قدرُ إصبعين؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين
قدرُ ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة ب] قلم الرِّفَاعِ الدقيق،
وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعةٌ بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتابٍ معرَّبةٌ بترجمة بطرك الملائكية، بحضور سيف الدين سيف^(١)
الترجمان، وهي:

المعظم، المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق
وحلب وغيرها، الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق)
المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يُحِيطُ علمه أني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - أن شاء الله
تعالى - سلطنتك المجددة طيبة في خير، وأنَّ المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم
وبين والدي إلى آخر وقت. ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع.

وتؤكد أيضا المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد ، فإن ذلك واجب ،
وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا ، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم ؛ وكان قصدنا أن نجهز
إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا ، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت
مملكته ، ولم نعرف إلى أي مكان توجه ، أوجب تأخير ذلك ؛ وأن حامل هذا الكتاب
المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ،
وله عادة بالتردد إلى مملكتم المعظمة ، ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي ؛
فجهزنا لكم صحبة المذكور نحس كواهي و بازدار ، ليكون نظركم الشريف عليهم ،
وكذلك على البطاركة والنصارى والكائنس على حكم معدلة السلطان ومحبه ، والوصية
بهم ، ومعاوتهم و رعايتهم وإجراؤهم على جاری عواندهم ، من غير تشويش على
مالفوه من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهم ،
مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم ، والإحسان
إليهم ، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته ، ونضعف شكرنا من إحسانكم
على ذلك ، وتكونوا ان شاء الله تعالى طيبين ، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا ،
ومهما كان لمولانا السلطان بمملكنا من أطواع^(١) ، فيرسم يعرفنا بها وينادِر بذلك .

والذي بآخره بالجرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحي بنعمة الله ،

ضابط مملكة الروم البلاوغس) .

(١) كذا في الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس، والجهات الشمالية،

وما والى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق قرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجى وقلمه، ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهرا من الطى، ثم يحرز ويختم بسعاء، ويختم عليه بطمغة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب، فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكختمه، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه فى ورقة مفردة وأصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، الترجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخة ورق قرنجى مربعة متقاربة السطور، وهو:

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه. يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة^(١)، ويسأل الله أن يزيد عظمته: لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها. وينهى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا. فتنبه

والحجة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتمسين والمتردددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حسن العرفي تغردمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتمسين من التجار بغير الإسكندرية المحروس، وزجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدة بين جنوسهم والضرر والقهرة الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك: لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكنا بكثرة عدله، وبجيبته لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع ثوابنا: إنهم يكرمون من يجذونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه، والمسئول من إحسانه الوصية بالفضل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمانينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته .



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجانيين بالأبواب الشريفة، وهو:

الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه .

يَقْبَلُ الأَرْضَ بَيْنَ أَيَادِيهِ الْكِبْطَانُ وَالْمُسْتَشَارُونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ أَنَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ بِطُولِ بَقَائِهِ، مَجْتَهِدُونَ فِي أَسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ وَالْمَوَدَّةِ الَّتِي لَا يَشُوهُبُهَا كَدْرُ بَيْنِ الْقَوْمُونَ (؟) وَبَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَأَنَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَمَّ حَرَامِيَّةُ غَرَابِ يَتَحَرَّمُونَ بِأَطْرَافِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَالْمِينَ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نُسْحِطْهُمْ بِالْمَرَكَبِ وَالْأَغْرَبَةِ، وَنَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حَتَّى إِنْ أَحَدًا صَارَ لَا يَجْسُرُ عَلَى الدَّخُولِ إِلَى مِينَا الْمَاعُوصَةِ جَمَلَةً كَافِيَةً، مَعَ أَنَّا كُنَّا خَلَصْنَا فِي الْمُدَّةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْحَرَامِيَّةِ الْمَذْكُورِينَ خَمْسَةً وَعَشْرِينَ نَفَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمْنَاهُمْ وَأَطْلَقْنَا سَبِيلَهُمْ [وَعَزَمْنَا أَنْ] نَجْهَظَهُمْ إِلَى دِمِيَاطٍ أَوْ إِلَى نَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ بَرَطْلَمَا أَوْسَقَ لِلوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ صَابُونًا فِي مَرَاكِبِهِ، وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَهْرُبَ بِذَلِكَ، فَلِلْحَالِ عَمَّرْنَا مَرَكِبًا كَبِيرًا، وَأَخَذْنَا بَرَطْلَمَا الْمَذْكُورَ بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَحْضَرْنَا إِلَى الْمَاعُوصَةِ، وَعَهَدْنَا بِطُرُوقِ الْمَرْكَبِ إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى (أُرْمَانِ سَلِيُورِيُونَ) وَهُوَ رَجُلٌ مُشْكُورُ السَّيْرِ، وَقَلْنَا لَهُ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى خَازِنِ الصَّابُونَ الْمَذْكُورِ وَيَسْتَشِيرُهُ إِنْ كَانَ يُوسِقُ شَيْئًا مِنَ الْأَصْنَافِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَيَجْهَظُهُ إِلَى أَىِّ مَكَانٍ اخْتَارَهُ لِيَسْلَمَهُ لِيَدَّ مِنْ تَبَرُّزِهِ الْمَرَاسِمِ الشَّرِيفَةِ بِتَسْلِيمِهِ، فَيَفْعَلُ، وَهَذَا الْقَوْلُ كُلُّهُ يَكُونُ دَلِيلًا عِنْدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَلَى صِدْقِ الْوَلَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصُّلْحِ، وَالْمُسْتُولِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ الْإِقْبَالِ عَلَى التُّجَّارِ الْجَنَوِيَّةِ الَّذِينَ عِنْدَ مَمْلَكَتِهِ، وَكَفَّ أَسْبَابَ الضَّرْرِ عَنْهُمْ، وَيُنْشُرُ مَعْدَلْتَهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بَقَاءَهُ بِنَمَّةِ وَكْرَمِهِ .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكاتبات الإخوانيات - وهي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ؛ وهي في الغالب لا تخرج عن ضريين)

الضرب الأول

(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان إلى فلان ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزداد هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله » كما تقدم في موضعه ، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا ، وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا ، وأنت ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ؛ وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمة الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثاني

(أن تفتَح المكاتبةُ بِاسْمِ المكتوبِ إليه : تفخيمًا لأمره ، وتعظيمًا لشأنه)
 وكان رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكاتبةَ بلفظ « إلى فلانٍ من فلان ، سلامٌ
 عليك ، فإنِّي أحمدُ اليك الله الذي لا إله إلا هو » وباقي الكتاب على ما تقدم في الضرب
 الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثاني

(في رسوم الإخوانيات المحدثّة بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مہايح)

المهيح الأول

(^(١) في صدور الأبتدآت ، وهي على أساليب)

الأسلوب الأول - أن تفتتح المكاتبةُ بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النحاس
 في كتابه "صناعة الكتاب" وكان على رأس الثلثائة في خلافة الراضي ؛ وقد تقدم
 في الكلام على مقدمات المكاتبات نقلًا عن "مواد البيان" أن الأديعة كانت
 في الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلّق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمك الله ، وحفظه الله
 ووفقه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ فعدّل عنها قصدًا للإجلال والإعظام إلى الدعاء
 بإطالة البقاء ، وإدامة العزّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناء

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاول ونبه على أن النحاس أقصر عليه فتنبه .

الدينيا، جرياً على عادة الفرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمد في العمر ، وكذلك سائر المكتوبات على ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكتابة من المرءوس إلى الرئيس ؛ وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكتابة إلى الأمراء)

قد ذكر النحّاس أنه يقال في افتتاح مكاتبتهم : أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت أجل ذلك كله، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والشور والغبطة، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، ونتابع من الفائدة، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ؛ وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه همته ، وتسمو إليه أمنته ، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل ، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ، ونعمة سابقة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولا أخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ، وكتب عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير، ومكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ؛ والمواهب

الجليله ، في أعزَّ عِزِّ وأدوم سلامة ، وأسبل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لدينه ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل يجزئ الآجل .

الصنف الثاني

(المكتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأمير غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أن الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عِزَّهُ وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلِّ جميل زيادته ، وألبسه عَفْوَهُ وعافيته . وإنه يدعى له أيضا : أطال الله بقاء القاضي في عزِّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمَّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشمَل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفء يكتب كُفأه ومن كان خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكتبة من الرئيس إلى المرعوس : كالمكتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عِزِّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عِزِّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .

ودونه « أعزك الله، ومد في عمرك، وأتم نعمته عليك، وما بعده على توالي الدعاء ^(١) الذي تقدم ». ودونه « أكرمك الله وأبقاك، وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « حفظك الله وأبقاك، وأمتع بك ». ودونه « عافانا الله وإياك من السوء ».

قال في "صناعة الكتاب": هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم، وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدم على الوزير أو مساوي به فتتغير المكتبة، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعني وزير المعتضد) يكتب أبا الجيش (يعني ثمارويه بن أحمد بن طولون): أطال الله يا أخي بقاءك إلى آخر الصدر، للصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كاه. ثم قال: فإن كان الرئيس غير الوزير، فرمى زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل: فيزيده ويكتبه زيادة التأييد ودوام العز. قال: ويدعى للفقهاء: أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفايته، وأعلى جدك وصان قدرك، وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك. أو: أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى، وحباك برشده، وقطع بينك وبين معاصيه. أو: أطال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين. أو: أكرمك الله بطاعته، وتولأك بحفظه، وأسعدك بعونه، وأيدك بنصره، وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته، إنه سميع قريب. أو: تولأك من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم. أو: أكرم الله عن النار وجهك، وزين بالتقوى تجلك. أو: أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزاً، وفي الآخرة من النار حرزاً.

الضرب الثالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر» . ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك» . ودونه «ياسيدى وأحى أطال الله بقاءك» . ودونه «أدام الله يا أحى بقاءك» .

الضرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والخطاب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه : أبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : مات قبلك . أو : أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك . أو : أرشدك الله أمرك . أو : أحسن البلاغ بك . أو : بلغ الله بك أفضل الأمل ، وأتم السرور بك ، وجعلك خلفا صالحا ، وبقية زاكية .

الضرب الخامس

(المكاتبة إلى الفتيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يدعى لهم : صرف الله سوء عنك ، وعن حظى منك . أو : أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك . أو : جعلت أنا وطاري وتالدى فداك . أو : ملانى الله إزاءك ، وأدام بقاءك . أو : أستودع الله عز وجل ما وهب لى من خلقتك ، ومنحنى من أخوتك ، وأعزنى به من مودتك . أو : حاط الله حظى منك ،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُنعت ، وفقدك مُنعت . أو : نفسى تفديك ،
والله يُقيك ، ويقينى الأسواء فيك . أو : ملأنى الله النعمة ببقائك ، وهنأنى مامنحنى
من إخالِكَ . أو : أبقِ الله النعمة لى ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وفر الله حظى
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأنى الله ببقاك ، كما منحنى إخالِكَ .
أو : دافع الله لى وللكارم عن حوبائك ، وأمتعنى ببقائك ، وجمع أملى فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزديك فى البرِّ لإخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبه إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهن يُكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبه الرئيس والمرؤوس
والنظير ، غير أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهن وكرامتك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لَدَيْكَ ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعلى ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنى بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم فى الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهن لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف
عن نظير خطاب الموجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب فى حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من أعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال فى الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب الموجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعيةً مرتبةً على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه»، وأدام تمكينه وارتقائه، ورفعته وسنائه، وكتب عدوه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيدَه، وكتب عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نعماه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزّه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سداً وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزّه وسنائه». ودونه «أدام الله عزّه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزّه الله». ودونه «أيدّه الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وقفه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله». وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضي. أو بقاء سيدي. أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها.

وأعلم أن الداهيين من الكُتّاب إلى إجراء المخاطبة في المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيّدنا ومولانا على لفظ الأفراد كسيدي ومولاي؛ وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الأفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائداً من قلم الناسخ.

ونحو ذلك . ثم توسّعوا في ذلك ففعلوا الدعاء متوسّطاً كلام الصدر على القرب من
الابتداء ، مقدّمين بعض كلام الصدر عليه ، ومؤخّرين بعضه عنه . مثل أن يقال
في المكتبة بشكر : إذا كان الشكر - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترجمان النبيّ ،
ولسان الطويّه ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الإختصاص ، وسبباً إلى الزيادة ،
وطريقاً إلى السّعادة ، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه ، واستولت على محاسنه ،
فألّسن آثارها مع الصّمت أفصح من لسانه ، وبيّنها مع الجُحود أبلغ من بيّانه ،
ونحو ذلك . ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأوّل ، فقدموا على
الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبى» رتبةً دون رتبة ، مثل أن كتبوا : كاتبنا - أطال
الله بقاء الأمير - ونحن على أفضل ما عودنا الله من انتظام الأمور وسدادها ، واستقامتها
بحضرتنا وأطرادها . أو كاتبى - أطال الله بقاء مولاي الحاجب - عن سلامة ينغصها
فقدك ، ويتقصها فراقك ، وما يجرى مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبى
بلفظ كتبت بصيغة الفعل ، وربما أبدعوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار
إلى مصطلحات اصطلاحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القديم : فخطبوا بالحضرة
تارة ، وبالخدمة تارة ، وبالمجلس أخرى ، فكتبوا : كاتبى - أطال الله بقاء حضرة سيّدنا
الوزير ، أو سيّدنا الأمير ، ونحو ذلك ، أو أسعد الله الحضرة ، أو أسعد الله الخدمة ،
أو ضاعف الله جلال الخدمة ، أو أعزّ الله أنصار الخدمة . وربما كتبوا : صدرت
هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون : صدرت هذه الجملة ، إلى غير ذلك من
تفنياتهم التي لا يسع استيعابها ، ولا يمكن اجتماع متفرّقيها .

قلت : وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح
غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصل لي من كلام النحاس

وَأَبْنُ حَاجِبِ النِّعَانِ، وَتُرْسُلُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي، وَالْعَلَاءُ بْنُ مُوَصَّلَايَا، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْهَقِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْمَكَاتِبِ الدَّائِرَةُ بَيْنَ أَعْيَانِ
الدُّوَلِ عَلَى سَبْعَةِ أَسَالِيْبٍ :

الأسلوب الأول

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِالْدَعَاءِ

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي إِلَى الصَّاحِبِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبَّادٍ بِالشُّكْرِ وَالتَّشَوُّقِ .

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ ، فِي سَلَامَةِ دُنْيَا وَدِينِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَتَمَكِينِ ،
وَتَمَامِ عِزٍّ وَتَأْيِيدِ ، وَثَبَاتِ وَطَآءِ وَتَمْهِيدِ ، وَعُلُوِّ قَدْرِ وَسُلْطَانِ ، وَتَعَاظِمِ خَطَرٍ وَشَانِ ،
وَتَوْلَاةِ فِي نَفْسِهِ وَأَوْلِيَانِهِ بِأَحْسَنِ مَا عُرِفَ وَأُلْفِ ، مِنْ نَعَمِ دَارَةِ الْحَلَبِ ، مَتَفَرِّعَةَ
الشُّعْبِ ، مَحْمِيَّةِ الْجِهَاتِ وَالْجَوَابِ ، مَحْجُوبِيَّةِ عَنِ النَّوَابِ وَالشُّوَابِ ، وَأَرَاهُ فِي حُسَادِ
فَضَائِلِهِ ، وَكُفَّارِ فَوَاضِلِهِ ، مَا عَوَّدَهُ فِيهِمْ مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ، وَفُلُولِ حُدُودِهِمْ ، وَحُلُولِ
النِّكَالِ بِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ حُكْمَهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْأَنْفَالِ ، وَنَهَجًا
لِجَارِي الْأَقْدَارِ ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْهَا مَحْبُوبٌ مَطْلُوبٌ إِلَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَتَحَاوَى ، وَلَا مَحْذُورٌ إِلَّا
أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَحَامَا ، ثُمَّ كَانَ بَرُّوسٍ مَعَانِدِيهِ حُلُولُهُ ، وَبِرِّقَابِهِمْ إِحَاطَتُهُ ، وَفَوْقَ
ظُهُورِهِمْ حَمَلُهُ ، وَعَلَى صُدُورِهِمْ جَمُّهُ ، أَمْرًا جَزْمًا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ وَخَصَّهُ بِهِ ، وَأَعْطَتْهُ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ عَهْدَ أَمَانِيهَا ، وَأَمَرَّتْ لَهُ بِهِ عَقْدَ صَمَانِيهَا ، عَاطِفَةً عَلَيْهِ بِطَاعَتِهَا وَمَوَاتِنَاتِيهَا ،
مُغْضِيَةً لَهُ عَنِ نَوَائِبِهَا وَنَبَوَاتِيهَا ، وَحَقِيقٌ عَلَيْهِ جَلُّ أَسْمِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، وَيَسْمَعَ
هَذَا الدَّعَاءَ فِيهِ ، إِذْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ فِي أَوْفَرِ عِبَادِهِ فَضْلًا ، وَأَعْمَرَهُمْ نَيْلًا ، وَأَجْرَهُمْ
أَدْبَا ، وَأَكْثَرَهُمْ حَسْبًا ، وَأَعْمَلَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَمَعُونَتِهِ ،

كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجليل ، ثم آنخرط في سلك مقصده إلى آخره .

الأسلوب الثاني

أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الإبتداء بكلام مناسب للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضًا عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشراً بفتح :
 ومن أعظم النعم - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل - خطراً ، وأحسنها أثراً ،
 نعمة سكنت ثوره ، وأطفاقت فوره ، وعادت على الناس بجميل الصنع ، وجيل النفع ،
 ونظام الأمور ، وصالح الجمهور ، فتلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفاً ،
 والاعتداد بها متضاعفاً ، بحسب ما أزلت من المضره ، وجددت من المسره ،
 وأماطت من المحذور ، ونشرت من المأمول . وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ،
 ويؤفوها من حمد الله قسطها ، ويتنجزوه وعده الحق في أدائها ، وإطالة الإمتاع بها ،
 والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدى إليه ، ويعتقده وينطوي عليه ،
 ويؤدى فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستراة منه ، وأن خصنا من هذه النعم
 بذوات الفضل السابغ ، والظلل الماتع ، الجامعة لكبت العدو ومساءته ، وابتهاج الولي
 ومسرتة ، وهو المسئول جل اسمه وعز ذكره ، أن لا يسلبنا ما ألبسناه من سرايلها ،
 وأجرنا من فضل ذيولها ، وعودناه من جلاله أقدارها ، وتعاضم أخطارها ، ولا يعدمنا
 معونه منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ، ومنتهى الطوق في البشرها ،
 بمنه وطوله ، وقوته وحوله .

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كاتب من كذا وكذا ، ثم أتى على ذكر الفتح

إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كتابي » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحَسَن بن سَعْدَان ، إلى نحر الدولة بن بُوَيْه في بِشَارَةِ فتح .

كِتَابِي - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا الأَمِيرِ الجَلِيلِ نَحْرِ الدَوْلَةِ - وَمَوْلَانَا المَلِكُ السَّيِّدُ صَمَّصَامِ الدَوْلَةِ وَشَمْسِ المَلَّةِ ، جَارِ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ ، جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمَا فِي تَمَامِ عِزِّ وَنَصْرِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، وَعُلُوِّ كَلِمَةٍ وَرَأْيٍ ، وَسُبُوغِ مَوْهَبَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَشُكْرِ اللهِ يَسْتَرِيدُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَدِرُّ المَادَّةَ مِنْ طَوْلِهِ ؛ وَأَنَا جَارٍ فِيهَا أُحْمَلُهُ مِنْ أَعْبَاءِ خِدْمَتِهِمَا ، وَأَتَوَلَّاهُ مِنْ تَعَاظِمِ شُؤْنِهِمَا ، عَلَى أَجْمَلِ مَا عَوَّدَ اللهُ وَزَرَاءَ هَذِهِ المَمْلَكَةِ المُنَاصِحِينَ لَهَا ، وَأَوْلِيَاءِهَا المُحَامِلِينَ عِنهَا ، مِنْ هِدَايَةٍ إِلَى مَرَّأَشَدِ الأُمُورِ ، وَتَوْفِيقِ لِصَوَابِ التَّسْدِيرِ ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَقَدْ كَانَ كَذَا وَكَذَا .

الأسلوب الرابع

أَنْ يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كُتِبْتُ » كما كتب الصابى إلى صاحب الجيش في تعزية :
 كُتِبْتُ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا صَاحِبِ الجَيْشِ - وَالعَيْنُ عِبْرِي ، وَالكَيْدُ حَرِي ،
 وَالصَّبْرُ مَسْلُوبٌ ، وَالعَزَاءُ مَغْلُوبٌ ، بِالفَجِيعَةِ فِي سَيِّدِي فَلَانِ نَضَّرَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَكَرَّمَ
 مُنْقَلَبَهُ ، الَّتِي هَدَّتْ الجَلْدَ ، وَفَتَّتْ فِي العَضُدِ ، وَبَسَطَتْ عُدْرَ الجَزُوعِ ، وَهَجَّتْ حِلْمَ
 الحَلِيمِ ، فَإِنَا لِلَّهِ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَإِلَى أَمْرِهِ صَائِرُونَ ، وَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ غُصْنَا
 دَوِي ، وَشِهَابًا خَبَا ، وَعِائِقَ مِصْنَةَ عَلِقَتْ بِهِ أَيْدِي النَّوَابِ ، وَتَحْيِرَتَهُ سِهَامُ
 المِصَابِ ، وَقَارَنْتُ بَيْنَ قُلُوبِ الأَبَاعِدِ وَالأَقَارِبِ ، وَالخَوَاصِّ وَالعَوَامِّ فِي التَّأَلُمِ لِفَقْدِهِ
 وَالأَسْتِيحَاشِ لِمَصْرَعِهِ ، وَالكِابَةَ لَوْقُوعِ المَحْدُورِ بِهِ ، وَعِزٌّ عَلَيَّ أَنْ يَجْرِيَ لِسَانِي هَذَا
 القَوْلِ ، وَيَدِي هَذَا الخَطِّ ، إِلَى آخِرِ المَكَاتِبَةِ .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بِالْحَطَابِ : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى شجاع الدولة وزير دمشق ، بعد هلاك زنيكي بن أقسقر .

أيها السيد الرئيس المحامي عن سرّبه ، والذي قَصَرَ إلا في المعالي ، ربّ ناءٍ بِجِسْمِهِ وهو دَانٍ بقلبه ، وغريب إذا نسبتَ وأمير على دِمَشقٍ مطاع في صحبه ، وله بالعراق إخوانٌ من حزبه ، إلى آخر المكاتبة .

الأسلوب السادس

أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصابى عن نفسه إلى الأثير أبي الحسن بهنّته يعيد .

أنا - أطل الله بقاء سيّدنا الأستاذ الأثير - أحاولُ الخِدمةَ له والتُّرْبَةَ منه منذُ وَصَلتُ إلى العسْكر المنصور ، فيعترضُ دُونَ ذلك عوارضٌ يجرى بها المقدور ، إلى الحين الموقّت المسطور ؛ وقد علِمَ مني وشهر عني كذا وكذا ، إلى آخر الكِتَاب .

الأسلوب السابع

أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ « صدرت » أو « أصدرت » كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقاً .

صدرت هذه الجملةُ إلى فلان ، ولواعجُ الأشواقِ إليه متضاعفةٌ مترادفةٌ ، واستمرارُ الصبرِ على البُعدِ عنه قد رثَّ قُوَاهُ ، ووهنَ عُرَاهُ ، وأعوّزنا وجدانه إذ عنّت ذِكْرَاهُ ،

وإن كان ذِكْرُه سَمِيرَ الخاطر، وَتَجَاهَ الناظر، والغريم المَلْزِم، الذى يستحق غالبه اللبيب الحازم، إلى آخر الكتاب .

المهيع الثانى

(فى الأجوبة على هذا المصطلح ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الابتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابى — ووصل كتاب مولاى وفهمته ، وجلّ عندى قدره وموقعه ، وسكنت إلى مادّل عليه من سلامته ، وسألت الله أن يُسَبِّحَ عليه ظلّها ، ويُلِّيه نِعَمه كلّها ؛ فأما ما ذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضا عن نفسه إلى الصاحب ابن عبّاد .

كتابى — أطل الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاه — وليس من جارحة إلا ناطقةً بشكره وحمده ، ولا فى الدهر جراحة إلا عافيةً بفضله ورفده ، وأنا مستمرُّ له على دعاء : إن خلوت من أن يكون عائداً لصلاحي ، ورأيتنا لحناجى ، لآلئتمه عن الأحرار العائشين فى نداه ، المستظّلين بظِراهِ^(١) ، فكيف وأنا أوّل ساهر فى مرابعه ،

(١) الدرر ما يستكن فيه الانسان والظال راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةً على استقامةٍ أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه،
 واتباعها إثاره في أوليائه وأعدائه؛ والحمد لله رب العالمين، قضاءً لحقه وأقتضاءً
 لمزيدة، واستدامةً للنعمة عنده، التي استحصفت في أيدينا سَعَمًا، وسالت علينا
 شعابها، وعمرتنا سجالها، وتفيات لنا ظلالها، وما يزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل
 كافي الكفاة - أدام الله علوه، وكبت عدوه، في عبده ورغبة عبده إليه سرٌّ مكنونٌ
 في الصدور، ومستورٌ تحت الضلوع، فهما يتناحيان به على بُعد الدار، ويلتقيان
 عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب؛ وشد من ظهور الغيوب، فإن ظهوره
 يكون من جهته في تفحات الإنعام؛ ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه
 المخطوط بكرمه لا بقلبه، إلى صنيعته المائل بين يديه بهمه لا بقدمه، فلم يستطع
 أن ينهض من الفكر، إلا بقدر ما يرى ساحة من الكفر، ويبلغه إلى آخر الاجتهاد
 والعدر؛ وأسأل الله أن يطيل بقاءه للأفضل المأخوذ منه، والفضل المأخوذ عنه،
 والعلم الذي ينخر به بحره؛ والفخر الذي يسحب له ذيله، والعز الذي ضرب عليه
 رواقه، والسلطان الذي ألقى إليه استحقاقه، والأمر والنهي اللذين يحويهما ترانًا
 واكتسابًا، إذا حوَّاهما غيره غلولا وأغتصابا، بمنه وطوله؛ وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله بن سعدان في جواب كتاب ورد عليه .
 وصل كتابك - أطال الله بقاءك - وفهمته ، وأدى فلان ما تجمله عنك ووعيته ،
 وأزددت به بصيرة في سدادك ومعرفتك ، وفضلك وحصافتك ، واجتماع الأدوات
 الجميلة فيك ، الداعية إلى إعلاء محلِّك ، وحميد حالِّك ، والثقة بك ، والاستئمان إليك ،

وأُنهيْتُ ذلك إلى مولانا الملكِ فلان ، فأصغى إليه مستمعاً ، وأوجبَ لك به حقاً متضاعفاً ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البيهقي في جواب كتاب :

ورد كتابك مُشافهاً من البرِّ ، ومؤدياً من الفضل ، ومتحملاً من المنِّ ، ماتجاوز الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ؛ ولم أدرِ أى المنح به أشكرُ ، ولا بأى العوارف له أعترف : أبما تحمله من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم ما ناجتني به فوائد ملاطفته ، أم ما اعتمدني من حلاوة مفاوضته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطولها بشكر ، ولا أقاومها بمنة أعتداد : وهو ابتداءه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصب السبق ، وزاد على الرغبة مبرهنها وبصايق الودِّ محجراً ، وإلى البسط دليلاً ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً ، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا .

المهية الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختامات ، ولا ما يقتضى ملازمة اختتام معين لصدر معين ، بل ذلك موكول إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختامات عندهم .

ثم الاختامات لديهم على أنواع شتى .

منها — الاختتامُ باستمحة الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها «ولمولانا علو الرأى في ذلك» كما كتب الصابى في خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى في تشریف خادمه

بالقبول ، والتقدم بإعلامه بالوصول ، واستخدامه بما يتعلق بأرابه وأوطاره - ومن نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودونَ ذلك - الأختتامُ بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي في خاتمة كتابِ بشارَةِ بفتح ، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقعَ هذه البُشرى منه ، ومقابلتها بالشكر الواجبِ عليها ، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله ، ليكبتَ الله به عدوه وعدونا ، ويكاتني بما أطلعته من أحواله وأخباره ، وأتعهد إسعافه به من مآربه وأوطاره ، فإنني أعتبده شريكاً لنا مساهماً ، وخليطاً مفواضاً ، فعلَ إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيك في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البغلاء في خاتمة كتاب في الحثِّ على مواصلة الكتُب ، فرأيك في إيناسنا بكتبتك متضمنةً ماؤثره من أنيساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موقفاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأى معنى كان فرأيك دونَ فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب الثعمان أنَّ أعلى المراتب « وللآراء العالية فضلُ السمو ومزيد القُدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضلٌ ومُسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه موقفاً » . ودونه « ورأيه السيدُ » . ودونه « ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » . ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « وانحذر المخالفة » .

ومنها - الإختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة آيب « وأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَهُ ، وَيَصِلَ إِخَاءَهُ ، وَيَحْفَظَهُ بَعِيدًا وَقَرِيبًا ، وَيُرْعَاهُ غَائِبًا وَحَاضِرًا .

ومنها - الإختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب ؛ وأنا أسأله أن يُواصلني بكتبه ، مُضَمَّنَةً أَخْبَارَهُ الطَّيِّبَةَ ، وَأَمْرَهُ المِثْلَ ، وَأَوْطَارَهُ وَمُهَمَّاتِهِ ، مَعْتَمِدًا بِذَلِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - الإختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى ، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة ، وما أَطَالِبُ سَيِّدِي بِالمِكاتِبةِ إِلَّا عِنْدَ الحَاجةِ العارِضةِ ؛ فَإِنَّهُ يُعِيدُنِي بِهَا جَمِيلًا أَشْكُرُهُ ، وَيَسْتَفِيدُ مِنِّي سَعْيًا يَجِدُّهُ ، فَأَمَّا مَاعِدَا ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُ أَوْقَاتَ راحتهِ ، وَيَسُدُّ فُرُجَ خَلْوَتِهِ ، فَإِنِّي أَسْتَعْفِي مِنْهَا أَسْتَعْفَاءَ المِنتَقِرِّ إِلَيْهِ ، المُوَثِّرِ لما خَفَّ عَلَيْهِ ، وَلَهُ فِيمَا سَأَلْتُ فَضَّلُ النَظَرَ فِيهِ ، وَالإِسْعافِ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - الإختتام بالتحذير من المخالفة ، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم : وَيُكْتَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَبْرٍ مِنْ عَسَى أَنْ يَظْفَرَ بِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، أَوْ يَقِفَ عَلَى مَوْضِعِهِ ، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَبْرِهِ ، وَيُحْذَرُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي ذَلِكَ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الإختتمات التى لا تحصى كثرة .

وقد ذهب كثير من الكُتَّابِ [إلى عدم تفضيل بعض الإختتمات على بعض] على أن^(١) ابن حاجب النُّعْمَانُ قد قال فى "ذخيرة الكُتَّابِ" إِنْ أَعْلَى ذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى المِكتُوبِ إِلَيْهِ : وَلِلآراءِ الفِلاَنِيةِ فَضْلُ السُّمُوِّ وَمَزِيدُ القُدْرَةِ . ودونه « ولرأى المجلس الفلانى فضلُه وسموُه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضلُه » . ودونه « ورأى حضرة سيدنا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتيسير الكلام وعبارة ابن حاجب النُّعْمَانُ تحدثت فى الصفحة

مَوْفَقًا . . ودونه « ورأيه السَّديد » . ودونه « ورأيه الأَرشدُ » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحبُّ كذا » . ودونه « ويجبُ أن يفعل كذا » . ودونه « وسبيله أن يعتمد كذا » . ودونه « فافعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « وأحذرِ المخالفة » .

المهَيِّع الرابع

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطَلح ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى - أن يكون العنواُن من الرئيس إلى المرءوس ، قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن العُنُواناتِ من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب :

(الأولى) أن يكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه وأعزّه » ، وفي الجانب الأيسر « من فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام ؛ فإن كتَّاه ، كتب « من أبي فلان » ، والقاضي في معنى ذلك .

(الثانية) أن يُكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه » فقط ، ويُكتبَ الأسم ^(١) ولا يُكتبَ وأعزّه .

(الثالثة) أن يكتبَ في الدعاء للكتوب إليه ، أدام الله عِزّه .

(الرابعة) أن يكتبَ أعزّه الله .

(الخامسة) أن يُكتبَ أكرمه الله وأدام كرامته .

(١) أي أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزّه أي في الدعاء للكتوب إليه الذي هو في الجانب الأيمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ ، وفي ذلك يَكْتَبُ أَسْمُ الوَازِرِ في الجَانِبِ الأيسر .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبْقاءُ اللهُ ، ولا يذْكَرُ أَسْمُ الوَازِرِ في هذه المَرْتَبَةِ وما بَعْدَها .

(الثامنة) أن يَكْتَبَ حَفِظَهُ اللهُ ولا يَكْتَبُ أَسْمُ الوَازِرِ .

(التاسعة) أن يَكْتَبَ عَافَاهُ اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أبْنُ حَاجِبِ النُّعْمَانِ في "ذخيرة الكُتَّابِ" فقال : إنه يَبْدَأُ في الجَانِبِ الأيمنِ بِذِكرِ المَكْتُوبِ إليه وَتُعْوِيهِ وَكُنْيَتِهِ وَأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ وَتَسْمِيَةِ المَشْهُورِ مِنْ نَاحِيَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ بَلَدِهِ ؛ ثم يذْكَرُ المَكْتُوبَ عَنْهُ في الجَانِبِ الأيسرِ بِأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ ؛ فَإِنْ كَانَ الكُتَّابُ عَنِ الوَازِرِ ، ذَكَرَ كُنْيَتَهُ في الجَانِبِ الأيسرِ ، إِنْ كَانَ الإِمَامُ أَمْرَهُ أَنْ يَكْتَابَ مَتَكْنِيًّا أَوْ مَتَلَقَّبًا .

وقد سبق في الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال : الصواب أن يكتب إلى أبي فلان . قال في "صناعة الكُتَّابِ" ويكتب : لأبي الحسن ، فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت أبو الحسن على بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ ، وإن شئت خفضت على البدل ، فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن ؛ ثم قال : وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن ، كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولد يقال له الحسن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبوي الحسنين . قال : والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضا ، لأنَّ المعنى للذين يقال لكل واحد منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكتبان بأبي الحسن : لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبين بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك^(١) يعني بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في "ذخيرة الكتاب" "وإن كان الكتاب إلى اثنين وكتابتهما مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كتابتهما متفقة مثل أن تكون كنية كلٍّ منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرعوس إلى الرئيس . قد ذكر «النحاس» عن الفضل بن سهل أنه إذا حوَّطب الكُفء يجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزه الله وأطال بقاءه ؛ وذكر أنه إذا كُتِب بأعزه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره . قال في "صناعة الكتاب" ولا يتكفى الرجل في كُتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكفى على نظيره ، ويتسمى لمن فوقه ؛ ثم يلحق المعروف بأبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما توجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى أبنه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يُعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعثر في كتب النحو على هذه اللفظة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءني أبك

يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى اثنين فأكثر وكتابتهما تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوبُ إليه امرأةً . قال في "صناعة الكُتَّاب" :
 إن كان المكتوبُ إليه أمَّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمِّ فلانٍ أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمِّ فلانٍ ولى
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب لحرَّة أمِّ فلانٍ ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذى يكونُ خطابها به .

هذا ما كان الحالُ عليه في زمن النحاس في خلافة الراضى وما حوَّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في "ذخيرة الكُتَّاب" أنَّ الحالَ تغيَّر عن ذلك عند
 تغيُّر المكاتبَات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوتها ، فيجب
 أن يكتنى عن نفسه بالملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالمة ونعوتها ، فيجب أن يكتنى عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ؛ فيجب أن يكتنى عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوتها ، فيجوز أن يكتنى عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفي الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته ،
 بل له أن يكتنى عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبَةُ من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكتنى : حضرة
 الفلانى بغير مولاي — ودونه : الفلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوتها واسمُه وأسمُ أبيه ،
 ويكتنى عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروفٌ مشهورٌ ، ويزيد
 في اسمه وأسم أبيه ألقاً ولا ما ، إن كانا مما يجوز أن يُزادا [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكنى عن نفسه بما كتى ، فيجب أن يحذف من اسمه وأسم أبيه الألف

واللام . قال : ولرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكليات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقترن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاباً الموجهة ، مثل : أنت ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحد بهم الجمع تعظيماً للكتوب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في آبتداء المكاتبات ، وهي على طرق)^(١)

منها — أن تفتح المكتبة بالدعاء : إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعي في الجلى ، متممةً عليه النعم ، ميسرةً لديه اللهم ؛ أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعشى الناظرين سنك ، كما أعميا الطالبين مسعك ، ولئن فئت الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ؛ فلا غايةً لمجد إلا وأنت آتيها ، ولا ذروة لعز

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلا ومن طَبَّكَ بَانِيهَا ؛ لَكَ الْهُدَى وَالنَّاسُ ضَلَّالٌ ، وَفِي يَدَيْكَ الضُّوْءُ وَالْكُلُّ أَغْفَالٌ ؛
وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة : أطال الله بقاء الأخ السريِّ الكريم ، الحريِّ
بالتقديم والتعظيم ؛ وأوحِدِ فُرْسَانَ الإِحْسَانِ ، وَوَأَحَدِ عِقْبَانَ الْبَيَانِ ؛ وَلَا زَالَ قَلَمُهُ جَالِيَّ
بِدَائِعِ السَّحْرِ ، جَالِبَ بَضَائِعِ الشَّحْرِ ، مَغْبُوطَ السَّبْقِ ، عِنْدَ كَلَالِ جِيَادِ الْكَلَامِ ، مَبْسُوطَ
الرِّزْقِ ، فِي حَالِ إِمْلَاقِ الْأَقْلَامِ ، إِنَّ ذِكْرَكَ - أَبَقَاكَ اللَّهُ - الْبَلَاغَةُ فَمَنْ عَلِيَ مَوْرِدَهَا
يُسَاجِلُكَ ، أَوْ قِيلَ فِي ثَمْرِ بَيْتِهَا بُنِيَتْ عَلَيَّ نَحْمَسٌ فَإِنَّمَا هِيَ أَنَا مَلِكٌ ، صَفْوُهَا مَتَفَجَّرَ
مِنْ مَعِينِكَ ، وَشَاوُهَا لَا مَطْمَعَ فِيهِ لِغَيْرِ يَمِينِكَ ، وَشَاوُهَا تَسْتَوْفِيهِ فِي هَيْئَةِ مَتَمَّهْلٍ ،
وَجَنَاهَا تَرَعَاهُ بَعِزَّةٌ أَحْيَى مُهْلَهْلٍ ، فَقَدْ صرَّتْ أَمَامَ أُمَّمِهَا ، لَا بِلِإِمَامِ أُمَّتِهَا ، وَالرَّاضِعَ
لِرِسْلِهَا ، بَلِ الْوَاضِعَ لِأَصْلِهَا . فَهَيِّنَا لَهَا أَنْ كُنْتَ سَابِقَ غَايَتِهَا ، وَسَائِقَ رَايَتِهَا ، وَبُشْرَى
لِمُهْرَقِ وَشْتِهِ يِرَاعَتِكَ ، وَمَشْتِهِ بِرَاعَتِكَ ، لَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْحُسْنِ مَا تَشْتَرِيهِ الْقُلُوبُ
بِحَبَابَتِهَا ، وَتَشْتَبِيهِ النُّفُوسُ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .
وإِذَا بِالْبَقَاءِ الْمَجْرَدِ .

كما كتب أبو محمد بن عبد البرِّ ، إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ :
أَبَى اللَّهُ الشَّيْخَ فِي عِزَّةٍ تَالِدَةٍ طَارِفِهِ ، وَسَعَادَةٍ لَا تَزَالُ طَارِقَةً بِكُلِّ عَارِفِهِ ؛ وَلَا زَالَ
قَاصِدُهُ نَحْيًا مِنْ رِفْدِهِ بَرُوضِ نَاصِرٍ ، وَمُحَوِّمًا مِنْ مَجْدِهِ عَلَى مَسْرَةٍ سَمِعَ وَقْرَةَ نَاطِرٍ ؛
وَالْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وإِذَا بِالْإِعْدَاءِ لِلْحَضْرَةِ .

كما كتب أبو زيد الفارازي :

أبى الله حضرة السيد ناضرة أدواح السعد، عاطرة أفواح المحمد، ساكبة أنواع الجدد، صائبة سهام الحد، ولا زالت مغشية الحناب، بوفد الحمد، موشية الإهاب، بسودد الحفد. الظل إذا رجب، ازدحم عليه الضاحون، والورد إذا عذب، ازدلف إليه المتأخون؛ وظل الحضرة المكرمة كثيف الأفياء، ووردها مغني عن وسائط الأرضية والدلاء، فلا غر وأن تضرب إليها أكباد الإبل، وتفص بالوفود عليها أفواه السبل، والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها، والآمال تبلغها، بمنه. وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للحل.

كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاعته.

أبى الله المحل الأعلى حرماً يتخاماه الأنام، وعلماً تتضاءل له الأعلام؛ ولا زالت آراؤه الناجحة، تستمدّها العقول والأفهام، ومساعيه الصالحة، يشكرها الله والإسلام. إن مجدنا ساعى الكواكب بمنّواه، وسارى الغر السواكب في جدواه؛ لداع إلى استلام كفه عليه، ولا استهم على وصفه الذى له حقيقة الأوليه؛ وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كل داخل تحت التكليف؛ يعيد متى أخطأها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل؛ وإن الأمر كذا وكذا - إلى غير ذلك من أنواع الدعاء.

ومنها - أن تفتح المكتبة بلفظ « كتابي » كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض العلماء.

كتابي إلى سيدى - حفظه الله مقيماً وسائراً، وأبقاه لغرّ البيان ساحراً، وعن وجه الإحسان سافراً؛ ولا زالت آدابه تُشرق وتروق ساهراً، ومحاسنه كالشمس إذا لم

يَلْقَى نَوْرَهَا سَاتِرًا - من فلانة - وَالْوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُولَةً ، وَرَحِمٌ مُوصُولَةٌ ؛ خَلَصَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى حَبَّتِهِ ، وَأَخْتَصَّ مِنْهُ بِمَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ ؛ وَأَثَارٌ شَوْقًا عَلَى قَدْرِهِ ، وَهَوَى نَوَى فِي صَدْرِهِ ؛ وَأَسْفًا عَلَى عَهْدٍ أَصْبُو إِلَى ذِكْرِهِ ، فَاتَتْ ، وَرَدُّ الْفَائِتِ يَعْسُرُ ، وَقَصْرٌ ، وَأَيَّامُ السَّرُورِ تَقْصُرُ ؛ كَأَنَّمَا كَانَ قِرَاءَةَ سَطْرٍ ، أَوْ إِغْفَاءَةَ بَحْرٍ ؛ أَوْ زِيَارَةَ مُجْتَازٍ ، أَوْ عِبَارَةَ ذِي إِيجَازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الْأَرْجِ الذِّكْرِي ، وَالْأَرْيَحِيِّ يَرْتَاحُ لَمَّا يُخْتَرَعُ أَوْ يُحْكَى ، وَمَتَى نَفُوزُ بَيْنِ نِيحَتٍ مِنْ صَخْرٍ ، وَيُزْرِي بِأَبِي صَخْرٍ ، وَيَعْرِفُ مِنْ بَحْرِ ، وَيَجْرِي مَعَ أَبِي بَحْرٍ ؛ وَيَجْمَعُ إِسْنَادَهُ بَيْنَ الْجَامِعِ وَالْمُسْنَدِ ، وَيُنْشِدُ مِنْ بَدَائِعِ حَفِظِهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي الْمُسْنَدِ ، شَجَرَةٌ عِلْمٌ تُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهَا ، وَمُزْنَةٌ فَضْلٌ تَجُودُ مَا نَحْشَى بُحْلَهَا ، وَضَائِلَةٌ أَدَبٌ يَقِلُّ لَهَا أَنْ يُجْعَلَ الْقَارِئُ جُعْلَهَا ، فَاتَ عَنَّا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينٌ عَلَى دَوَاءِ إِنْ نَحْنُ لُسَعْنَا ، أَوْ سَبِيلٌ إِلَى مَا يَفِيدُنَا مِنَ الْكَلَامِ فَتَحْنُ فِي حُرُوفِ تَجِيءُ بِغَيْرِ مَعْنَى ، وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تفتتح المكتابة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازازي .

كتبتُ - كتب الله للأخ الأبرار الأوفى ، والفاضل الذي أثار مآثره لانتخفي ، مجدًا هامج الربابه ، سامي الرابه ، وذكرًا منتحلًا بالإطالة والإطابه ، وقرن أعماله بالقبول ودعواته بالاستجابة - من مكان كذا ، ولا جديد يُمن الله تعالى إلا صنعه الجميل ، ولطفه العريض الطويل ، والحمد لله رب العالمين ، حمدًا يؤمن آلاءه من التغيير والتبديل ، والأمر على كذا وكذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بكفاية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم،

ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم، وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري .

السيد العماد، والماجد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله

علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من

آل قيس الجود، وقيل بنى قبيلة الباذلين الموجود، أولئك الذين عز المهاجرون

بإحائهم وبتخاتمهم، فلاغرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،

ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتحه، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير

أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهره بالنصرة

مضاهه وأعتزاه، راسخ شرف التجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب

الغزار، والعيون إليه سامية، والهيم إلى مالدية مترامية، والصدور بالأمل فيه تُشرح،

والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى

من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتراعى نحوه ركائب

الرجاء من كل تربة . ومحاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبير قدره،

ونوجه لعالى أمره، ونبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

العِمَادُ المذْنَرُ، والمَلَادُ الذى بولائه أفضَرَ، جعل الله قدره عالياً، ودهره مجاسنه
حالياً، ولا زال للنعم قابلاً وللا [سواء] قالياً، كتبتُ من مكان كذا، والودُّ حليّةٌ
يتألّقُ روتقُها، وشجرةٌ لا يسقط ورقُها، وإنها مغروسة، لا تقبل بذرَ العوادي،
ومحروسةٌ، لا يقع عليها من يقع في شجر الوادي؛ والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعاً موصياً :

المحلُّ الأعلى - ضاعف الله أنوار هدايته، وأبقى على الجميع آثار عناية - مستودع
الكَمال، ومشرع الآمال؛ ومقعد أرباب السؤال، ومصدع الصالح من الأعمال،
وإن فلانا من أمره كذا وكذا.

وكما كتب ابن أبي الحِصَال :

الشيخُ الأجلُّ أدام الله عزّه ونعماه، ووصل رفعتَه وعلاه بتقواه؛ بحلِّ قدركم،
وملتم برّم وشكركم؛ العارفُ بحقكم، فلان؛ فكتب يعظّمكم كتب الله لكم خيراً
مستمراً، ورضاً على ما رضونه ناسياً مستقراً، من مكان كذا، على الرسم الملتزم من
توفير علائكم، والشكر لا لائكم، والرّبُّ تعالى ينهض بحقكم اللازم الأزم، ويصل
حراسة مجدكم الأئليد الأقدم؛ بمنه وفضله، وإنّ الأمر كذا وكذا.

وأعلم أنه ربّما أتى بعد ذكر النعوت بالسلام، ثم بحمد الله تعالى والصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله؛ ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم.
وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع «المهدى بن تومرت» كما كتب
أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل، أدام الله عزَّته، ووصل كرامته ورفعته . مجلُّ قدره، وملتمز بره
وشكره، المسرورُ بما يُجْرِيه إحصانه من طيب ذكره .
سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم ، وعلى آله -
والرضا عن الإمام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنصر الأعز ،
والفتح الأتم الأوفى ، فكتب كتب الله لكم مجدا لا يهَى شرفه ، وسعدا لا يبي
طرفه ، من فلانة - حسبا الله - ولا ناشئ عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير
الأكل ، والصنع الأجل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، وإن الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب : كاتب ابن
الأحمر بالأندلس على القرب من زماننا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بالخطاب ، إما مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها .
أما مع حذفها ، فكما كتب أبو المطرف بن المشي :

سيدي ومفخرى ، وعصمتي ووزري ، ورُكني وعمادي ، وذخيرتي
وعتادي ، أبقاك الله ناهجا سبل المكارم والمعالي ، موقِّ حوادث الأيام والليالي .
كُتبي أعزك الله عن عهد حسن لك قد أحكمت معاقده ، وودَّ محض فيك قد صفت
موارده ، ونفيس تراح لذكراك ، ولسان لاه بين محاسنك وعلاك ، قد أنفصح في نشر
فضائلك ميدانها ، وفاق في وصف قواضلك بيانها ، فهي تنظم عقود مجدك ، على أجياد
شكرك ، وتحوك من برود تقريرك وثنائك ، خلعا لمجدك وثنائك ، وشيها الذكر
الخطير ، وطرازها الترفيع والتوقير ، تكسر عصب عدن ، وتُغني على وشي اليمن ؛

وَتَطَّلِعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنْابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بَنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضَوُّعُ
عَرَفِهِ وَأَنْتِشَارِهِ ، وَيُرِي عَلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِعُ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَاقُ
بَنِّ جَمْعِ اللَّهِ الْعَالَمِ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الرَّبِّ الْبَكْرِيِّمْ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزَى خَلَّةُ نَيْبِلَةٍ إِلَّا
إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصَرُ مَنَقِبَةٌ جَلِيلَةٌ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤَثِّرُ مَأْثَرَةٌ نَفِيسَةٌ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُقْتَبَسُ
سِيرَةٌ جَمِيلَةٌ إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيعَةَ ، وَالْحِلَالَ
الرَّفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَتَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعْرَةَ
كُلِّ خَطْبٍ وَشَدَّةٍ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَرِ بْنِ الدَّبَّاحِ إِلَى بَعْضِ الْأَدْبَاءِ
عِنْدَ وَرُودِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمِ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِي صِيتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ
فِي عِزٍّ لَا تَقْصِمُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَبْقَى اللَّهُ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ -
تَسْمُوبِي إِلَى الْكِتَابَةِ هِمَّةً ، وَتَتْرَاحِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمَةً ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا
فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي حُرُوفُهَا فَارْتَقَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِمِهَا الْأَسْتَارُ ،
وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سِهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورِ مِنْ أَقْسَامِهَا ،
جَعَلْتَ بَأَى أُمَّتِهَا أَهْتِدِي ، وَإِلَى أَى رُؤُسَائِهَا أَنْتَسِبَ وَأَعْتَرِي ، نَاطِرًا فِي ذَلِكَ
إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَنَاوَلَتْ صِفَةَ سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ
بَعْضَ حِلَاهُ ، أَوْ أَرْقَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعِلْيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ
أَعْرَهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَتِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ،
وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْجَلَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ . فَكَلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ تُجَلِّي ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتلى، هَمَّمتُ أَنْ أُطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَّاحِ، وَأَرْكَبَ إِلَى أَفْقِهِ نَوْرَهُ اللهُ أَعْنَاقَ
الرِّيحِ، وَالْأَيَّامُ تَقْطَعُنِي بِمَصَائِبِهَا، وَتَقِيدُنِي بِأَحْدَاثِهَا وَبِجَوَائِبِهَا، حَتَّى قَضَى اللهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفْقَ فَأَفْرَخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأَنَالَ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

نُحِصُ الْأَبْنَ حُبَّةً وَمِقَّةً، وَالْعِبَادَ أَعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَثِقَةً، حَفِظَ اللهُ نَجَابَتَهُ ؛ وَجَعَلَ
لِدَاعِي السِّيَادَةِ تَلْيِيتَهُ وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةَ الْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِمِ، وَالْمَوَدَّةَ الْخَالِصَةَ الْمُتَحَكِّمَةَ ،
وَرَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ، مِنْ مَكَانِ كَذَا، وَالْوُدَّ كَلْفَ، وَالْعَهْدُ بِالصَّوْنِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفٌ، وَتَلَكُمُ الذَّاتِ السَّنِيَّةُ ذَخِيرَةً جَلِيلَةً، وَأَمَلٌ لِأَسْخَطِي مِنْهُ مَحْيَلَهُ، وَهَبَةٌ يَكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْأَيَّامُ بِجَيْلِهِ . وَكَمَا نَظَنُّ أَنْ بِنَاءَ الْكَرَمِ صَمَّ صَدَاهُ، وَمَرَبِعَ الْفَضْلِ
عَاصِبُ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرَّشْدِ أَدَاهُ، وَتَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَعْدَدْتَهُ الْعَيْلَةَ عُجْمِيهِ،
وَمَتَى يَفْطِنُ عَمِيرُ عَمْرٍ وَبِجَيْلِهِ، فَكَمَا بِكِفَاتِهَا، وَهَلْ سَوَى قَيْسٍ لِرِحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرْفِيهِ، الْمُسْتَقْبِلُ آثَارَ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَمَلَةَ الْأَقْلَامِ وَالْأَسِنَّةَ .

وكما كتب أبو زيد الفازازي .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي أَثْبَتُ عَلَى وُدِّهِ فَلَا أُتَحَوَّلُ، وَأُطْنَبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أُسْتَعِيرُ وَلَا أَتَأَوَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا مَرِّمًا أَتَعَلَّلُ ؛
فَلَانَ - أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسْوَاءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّبِكْمُ، الشَّيْقُ

(١) كذا في الأصل ولم تقف عليه في غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لمَحاسِنكم، المسرورُ بما سَمِعَهُ من صَلَاحِ أحوالكم، فلان، ولا جَدِيدَ
بِمنَّ الله تعالى إلا الخَيْرُ والحمدُ لله كثيرا والأمرُ كذا وكذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بِالكِتابَةِ عن المَكْتُوبِ عنه .

كما كَتَبَ ابنُ أَبِي الحِصَالِ إلى بَعْضِ الكُتَّابِ يسأله حاجَةً :

مَعْظَمُ الشَّيخِ الأَجَلِّ أَبِي فلان، وَجِلهُ المَكْبَرِّ له فلان، أَعلى اللهُ قَدْرَكم، وَأَوْزَعَ
أولِئاءَكم شُكْرَكم، أَياديكم أدام اللهُ كِرامَتَكم أَوْكُفْ من العَمامِ، وَنِعْمَكم أَلْزَمُ للأَعناقِ
من أَطواقِ الحَمَّامِ، وَإِنَّ وَلِيَّكم وَمَعْظَمَكم يَحْتَاجُ إلى كِذا وكِذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بِلِفظِ من فلان .

كما كَتَبَ [بَعْضُهُم] من فلان، إلى الشَّيخِ الحافِظِ الأَكْرَمِ أَبِي فلان : أدام اللهُ
كِرامَتَهُ بِتَقْواهُ، فَالكَتابُ إِلَيْكم كَتَبَ اللهُ لَكم أحوالاً صالِحَةً، وَخَيْراتٍ عَلَيمَ غادِيَةً
رَاضِحَةً، من مَوْضِعِ كِذا، وَالبركاتُ مُتَوافِرَةٌ، وَالخيراتُ مُتَظاهِرَةٌ، وَالحمدُ لله تعالى،
وَإِنَّ الأَمْرَ كِذا وكِذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بِلِفظِ إلى فلان .

كما كَتَبَ بَعْضُهُم إلى وَالِدِهِ .

إلى مَوْلَى المَعْظَمِ وَأبي، المَتَكَفِّلِ بِتَعلِيمِي وَحُسْنِ أَدبِي، أَبْقاءَ اللهُ نَظْرًا إلى
بِعينِ رِضاةٍ، وَأَعانِي على الجَرى في رِبِّهِ على حُكْمِ الشَّرْعِ القويمِ وَمُقْتَضاهِ ؛ من أبنِكَ
المَعْظَمِ لَكَ، بَلْ عَبدِكَ، المَتَطَلِّعِ إلى ما يَصِلُ من الأَنْبِاءِ الكَرِيمَةِ من عِندِكَ، المُواصِلِ
المَسْعَى في شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، فلان : بِأبي كَتَبْتَهُ كَتَبَ اللهُ لَكم لِيانًا من العِيشِ
وَخَفْضًا، وَجَمَعَ بَعْدَ الأَفْتِراقِ بَعْضًا مِنَّا وَبَعْضًا ؛ وَيَسِّرْ لي بَطولَهُ ومَتَّهِ أن يَصْفَحَ
عَنِّي وَأَنْ يَرْضَى ، من مَوْضِعِ كِذا ، وَلا جَدِيدَ إلا نِعَمٌ من اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تُراوِحُ

وَتُعَادِي، وَتَجْرِي الخَوَاتِمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ الْمَبَادِي، وَشَوْقٌ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ صُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَجْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمِيعِي الْهَتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ يَسِّرُ أَنْقِضَابَ
غُرْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحُ النَّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللَّوْعَةِ وَلَا عِجَجَ الْجَوَى؛ وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا.

المهية الثاني

(في الأجوبة)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المشاركة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتح الجواب بما يفتح به الابتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعَدُّكَ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - دِينٌ، وَقَضَاؤُهُ شَرَفٌ وَزَيْنٌ، وَمِثْلُكَ مِنْ تَحَلِّي
بِحَاسِنِ الشِّيمِ، وَزَاوِحَ فِي السِّيَادَةِ بِالْمَنْكِبِ الْعَمَمِ؛ وَحَفِظَ الْعَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
الْمَجْدَ بِمَا بِيَعُ؛ وَالتَّرَمَّ لِلْوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَاهُ شَرْعًا لَا يُسَخَّ؛ وَوَصَلَ كِتَابَكَ الْعَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بورود الكتاب وُصوله ابتداء)

كما كتب ابن أبي الخصال :

وَرَدَ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَقْرُضُ الْجَمَلَ عَلَيْهِ فِي التَّفْوِذِ لِوَجْهَتِهِ، وَالتَّقَدُّمِ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهي على أساليب)

منها — أن يُحتم الكتاب بالسلام المجرد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب :

وأقرأ عليك سيدي ، وأسنى عددي ، أجزل السلام وأحفله ، وأتمه وأكمله .

ومنها — أن يُحتم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرف بن الباغ في خاتمة كتاب :

والله لا يُخلى مولاي من عيدٍ يسترقه ، ومنعم يُنعم عليه [بما] يستحقه ، وجميل يُوليه ، وصنع يُسديده ، بمنه وجميل صنعه .

ومنها — أن يُحتم بذكر التودد والمحبة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب :

وإن لم يكن لي من الحق ما لا أتبسّط به عليه ، فلي من الود ما أمّت به إليه ، فحسى به سلماً إلى فضلك ، وذريعة إلى مجديك ، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها — أن يُحتم باستمحة النظر في أمر المكتوب عنه .

كما كتب أبو المطرف بن المنثي في خاتمة كتاب :

ولك الطول العام ، والفضل الزاهر ، في اعتبار أمرى ، وتحقيق خبرى ، والسلام ؛ إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد ، وفيما ذكر من الصدور والخواتم ابتداءً وجواباً مقنع لمن تأمل ، والله المستعان في الأمر كله .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربه مما جرى

عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهايح)

المهَيِّحُ الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابتهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكاتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكره الآلاء مكانه ، ولا تتكر الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بمحظهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمة الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لذيك بإيزاع الشكر عليها ، فلم أر والله الحمد نعمة قصدت مستقرها ، وتوخت وليها ، وتمنت كفوها ، إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزاً ونصرة ، وملاأت أعداءها ذلةً وغضاضة ، وتمكنت محل الصيانة والرعاية ، وخيمت بمستقر الشكر والحمد .

ومنها — أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء، لنعمتك بالنماء : لأنها توخت لذيك محلها ، فحلت بفنائك سازه ، مطمئنة قاره ، تستوئ مهادهها قبلك ، وتسهي مؤاردها عندك ، ولم تزل تائقة إليك ، متطلعة نحوك بما استجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقائك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلا زلت لعوارف النعم مستديعا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريا ، وبدوام الحمد رذفها مستمريا .

ومنها — الدعاء بجعات فداك .

كما كتب : جعلني الله فداك ، فإن في ذلك شرفاً في العاجل ، وذخر العقبى في الآجل ، وخير تراثٍ لخلفي من بعدى . دعاء أخلصته النبيه ، وصدقته الطويه .

ومنها — أستكراه الدعاء بالنفدية .

كما كتب : إن قلت في كُتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد بحسنتك حظاً إحسانك إليّ ، وحق مفترضك عليّ : لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإنما يُفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

ومنها - تَقْدِيَةُ النِّعْمَةِ إِعْظَامًا لَهَا :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ سَنَاْمِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةً سَمَائِهَا ، فَعَمَّرَتْ أَقْفَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرَتْ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِبْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِكَيْتِ الْعَدُوِّ :

كما كتب : مَكَّنَ اللهُ يَدَكَ مِنْ نَاصِيَةِ عَدُوِّكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وِلَايِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَكَ مِنْ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ مَا يَتِمُّ عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُوفِي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللهُ أُنْسِي بِحَيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَوِلَايِكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عَدُوِّكَ وَقَمَعِ حَاسِدِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِطَيْبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُوَفًِّ مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلَغًا نِهَائِيَّةً الْآمَالَ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفِيَّةً حَتَّى تُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَّ مِنْهَا ، وَلَا يَمُرُّ بِكَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤْمِنًا عَلَى أَمْسِهِ مَقْصِرًا عَنْ فَضْلَةِ غَدِهِ .

ومنها — الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك الله ممن ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن بقسطاس الحق ، ويكيل بميزان الإنصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاع الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة ينعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، ولزيد إليها داعيا ، ومن الغير مؤمنا ، وللسلامة موجبا .

ومنها — الدعاء للحاج بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوثر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا ، وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاها بالزلفة المقبولة ، والقربة المأمولة .

ومنها — الدعاء للسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك أيمن سفر عليك ، ورجع لك بدرك الحاجة ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل السؤل .

ومنها — الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلواك .

ومنها — الدعاء للوالة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصمما (؟) بالبر طرفك ، وأوطأ كل مكرمة قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها - الدعاء في الأُصْحِيَّةِ بِقَبُولِ النَّسْكِ .

كما كتب : جعلك الله بِقَبُولِ النَّسِيكَةِ والقُرْبَانِ ، فائزًا بالأجر والرضوان ، مُخْلِصًا لله بالإيمان ، في السر والإعلان ، مؤدبًا لما أقرضَ عليك ، شاكرًا لإحسانه إليك .
ومنها - الدعاء بالهناء في الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ في هذا العيدِ المَبَارَكِ من السَّلَامَةِ وعمومِها ، والعافيةِ وشُمُولها ، والعارِفةِ وسُبُوغها ، والحِياطةِ وكِمالها ، والحِمايةِ وجمالها ، أفضلَ ماعرَّفَكَ في ماضِي أعيادِكَ ، وسالِفِ أعوامِكَ .
ومنها - الدعاء بدفعِ النوائِبِ .

كما كتب : كان اللهُ جاركَ من بَخَائِعِ الدَّهْرِ ونُوبِهِ ، ووليَّ إِنْعامِ النِّعمَةِ فيما آتاك من فَضْلِهِ ، وتَطَوَّلَ عليك من حُسْنِ الحِياطةِ لما تَوَلَّأَكَ والذَّبِّ عمَّا أَفادَكَ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكتابة بلفظ : كتابي أو كتبت)

فأما كتابي ، فكما كتَبَ ابنُ عبدِ كان : كتابي إليك ، وأنا أَسْتَعْتِبُ الأيامَ فيكَ ، وَأَصانِعُ الزَّمانَ في تَقْرِيبيكَ ، ورُبُّعِ الحِوارِ الذي كما نَسْكُنُ تحتَ ظِلِّهِ ، وبتَفِيَّاءِ بَرِيقِ جَمالِهِ ، بأَجَلٍ مُخَفِّهِ ، وأيسرِ أَلْفِهِ ، وأَعَدَبِ مُشاهِدَةٍ ، وأَصَدَقِ مُشاهِدَةٍ ، ولعل أن يَرْتاحَ فيشعَبَ صَدْعًا ، ويؤلَّفَ جَمعًا .

وأما كتبت ، فكما كتَبَ ابنُ عبدِ كان أيضًا ؛ كتبتُ وأنا من حِينِ الصَّبابةِ إِلَيْكَ ، وإِرْزامِ الشُّوقِ نَحْوِكَ ، وألِيمِ التَّشوقِ إِلَيْكَ ، ولايِحِ اللُّوعَةِ بِكَ ، على ما سألُ اللهُ أن يرحمَ ضَعْفِي ويتصدَّقَ عَلَيَّ بِرؤيتِكَ ، ويَهَبَ لي النَظَرَ إلى وَجْهِكَ وجمالِ عَمْرَتِكَ ، التي هي حَلِيفُ الجَدَلِ ، ونُزْهَةُ الأَمَلِ .

الأسلوب الثالث

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بِالْحِطابِ بِأنا)

كما كتب : أنا من جُملة صَنائِعِكَ ، وحَفَظَةِ ودَائِعِكَ ، وشَكَرَةِ إِحسانِكَ ،
مَتى تَصَرَّفْتُ في البِلادِ ، فأنا المَعروفُ بِمَعروفِكَ ، والعائِشُ بِجَدواكَ ، وأنتَ مَنزَعُ
هَمَّتِي وَفُورَةِ عَيْنِي ، ومَدارِ أَمَلِي ، ومَحَلُّ رَجائِي .

الضرب الثاني

(الأجوِبَةُ)

وَأبتدأها إما كما في الصُّدورِ الأبتدآت كما تَقَدَّم ثم يقع التَعَرُّضُ لَوُصُولِ الكُتابِ ؛
وإما بأن تُصَدَّرَ بوصولِهِ وهو الأَكثَرُ .

كما كتب ابن عبدِ كانَ : وَصَلَ كُتابُكَ فَدَفَعَ تَباريحَ الشُّوقِ ، وَقَعَ كَأَبَّةِ البَينِ ،
وأطفاً لِهَيْبِ الحُرُوقِ ، وَبَرَدِ حَرِّ الصَّبابةِ .

وكما كتب : وَصَلَ كُتابُكَ مَشتمِلاً من أنواعِ البرِّ ، على ما يَقْصُرُ في جَنبِ أَيْسِرِهِ
أَعظَمُ الشُّكرِ .

وكما كتب : وَصَلَ كُتابُكَ المَصَدِّرُ بِجواهرِ لَفِظِكَ ، وَبِدائعِ مَعانِيكَ ، وَمَحاسِنِ
نَظْمِكَ ؛ مَسْتودِعاً ما لا يُقَدَّرُ على حَمْدِهِ وشُكْرِهِ إِلاَّ بِالإِعتِرافِ بالعِجْزِ عَنه ؛ وما
أشبه ذلك .

المهيمع الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان آختم المكاتبات عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استمحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤنفاً ، ما لم تزل تأتيه سلفاً ، فعلت . وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله ، فإن الرأي [الذي] أنت أهله ، فوق ما يلتمسه المشرق في همته ، والمتبسط في أمينته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضى به الحق وتصل به الذمام ، وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل ، وتقعد به الصنعة ، وتستوجب به الشكر .

المهيمع الثالث

(في عنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق : من كتابة إلى فلان من فلان ؛ أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي أستعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قره به يمن وسعادة ، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريح الشوق إليه ، وأسير الرقة عليه .

وكما كتب : ممن لا يتنى الخير إلا له ، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية

مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأول — الأبتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الأبتداء ولا في الترتيب في الرِّفْعَة والضَّعَة ، بل أفتتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الأفتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم ، والغالب في ذلك الدعاء للجلّس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدلّ مديله ، ولعثرات المقلّ مقيله ، ولمعاطف العزّميّه ، ولمقاطف الفوز منيّه ، ولقداح الجدوى مجيّه ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء بمراسمه ناجحه ، ومتاجر المفاخر بمولاته راجحه ، وأيدي الآمال لأيديه بمصافاته مصافحه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعطياته عابقه فأئحه ، وأدعية الداعين لآيامن أيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك أفتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات : إن تأخرت مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مصدود ، واللقم مسدود ، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع أستيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها .^(١)

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدم في الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ماجرى عليه الأصلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضى محى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكُتاب إلى زماننا، مما هو دائريين أعيان الملكة وأكابر أهل الدولة: من تواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معانهم: من أعيان الكُتاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف)

وفيه مهيعات:

المهيع الأول

(في رتب المكتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبه على ماخالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصّل الإحاطة به، ويعلم ماجرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعلّ مختاراً يختاره، أو ينسج على منواله، منها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

وأعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكتبات:

القاعدة الأولى — فيما يتعلق بورق هذه المكتبات.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكتبات: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدمة الذكر ، غير أن أعيان أهل الديار المصرية يكتبون في الورق المصرى ، وأعيان أهل الشام يكتبون في الورق الشامى : لكثرة وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من الثواب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أن تعلقوا مكتبة أحد منهم على مكتبة السلطان في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أن يكون في أعلى المكتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا ، إذ كان أقل ما يجعل بياضا في كتب السلطان وصلين فاقصروا على وصل واحد ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أن لا تقصص المكتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال : الوصل الأبيض في أعلى المكتبة على ما تقدم ، ووصلان مكتوبان : إذ لو نقص عن ذلك ، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدري ، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه . وأصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر رُبع الدرّج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلق بخط هذه المكتبات ، وكيفية أوضاعها .

قد أصطلحوا على أن جميع هذه المكتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق [من] أن لقطع العادة قلم الرقاع . وأصطلحوا أيضا على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثانى من المكتبة ، وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كتب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معانهم من رؤساء الكُتاب السلطانية ، كتب الملكى الفلانى — بلقب ملكه السلطان ؛ مثل الملكى الظاهرى ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَلِكِ الظَّاهِرِيِّ

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأُمراء كإستدّار أميرٍ ونحوه، أنتسب في كتابته إلى لقب أميره الخاصِّ مما يُضَافُ في التلقب إلى الدّين؛ فإن كان أميره لقبه سيفُ الدّين مثلاً، كُتِبَ بَدَلُ الْمَلِكِ الْفُلَانِيِّ: السَّيْفِيُّ؛ وإن كان لقبُ أميره ناصرِ الدّين كتب النَّاصِرِيُّ؛ وإن كان لقبه علاءِ الدّين كتب الْعَلَائِيُّ؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة المَلِكِ الْفُلَانِيِّ ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بذاتها. وأصطلحوا على أنه كلما دقَّ القلم وتقاربت الأُسُطُرُ، كان أعلى في رتبة المكتوب إليه، وكلما غلظَّ القلم وتباعدت الأُسُطُرُ كان أنزل في رتبة المكتوب إليه. وأصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السطرُ الأوَّلُ من المكاتبَةِ نَلَوَ الْمَلِكِيَّ الْفُلَانِيَّ وما في معناه ملاصقاً له، وفيما دون ذلك من المكاتبات يُتْرَكُ بياضٌ يسير، ولا يكتُبُ فيه شيءٌ؛ وكأن المكتوب عنه يقولُ للمكتوب إليه هذا محلُّ العلامَةِ، ولكنني قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعةً لقدرك؛ وفيما دون ذلك يُتْرَكُ بياضٌ أوسع من ذلك ويكتُبُ فيه المكتوب عنه علامته على ما سيأتي بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى. وأصطلحوا على أنه بعد آتهاء الكلام في المكاتبَةِ يكتُبُ ”إن شاء الله تعالى“ في خطّه؛ ثم يكتُبُ التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر، والسنة في سطر؛ ثم تكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر؛ ثم الحسبلة في سطر على ما تقدم بيانه في الكلام على القَوَاتِحِ والخَوَاتِمِ في المقالة الثالثة.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَكْتَابَاتُ عَلَى قَسْمَيْنِ :

القسم الأول — الأبتداءات ، وهو على أربع درجاتٍ سبق توجيه ترتيبها في الكلام على أصول المكاتب ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى — [المكاتب] بتقيل الأرض ، وهي أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ الزَّمَانِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَكْتَابَةَ بِقَبْلِ الْأَرْضِ مِنْ مَخْتَرَاتِ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ مَخْتَرَاتِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ وَليْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلِ الْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ؛ ثُمَّ سَرَتْ إِلَى الدِّيَارِ لِلْمِصْرِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَاسْتُعْمِلَتْ بَعْضَ الْأَسْتِمَالِ ، وَالْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ الْمَكْتَابَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى السُّلْطَانِ « صَاحِحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ » فِي صَدْرِ كِتَابِ تَهْنِئَةٍ بِمَوْلُودَ :

الْمَلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ ، نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِمَقَامِهِ ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَنْتِقَامِهِ ، وَلَا أَعْدَمَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَقْدَ التِّزَامِهِ ، بِكَفَالَتِهَا وَمَضَاءِ اعْتِرَازِهِ . ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَاتَبَ بِهِ الْآحَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،

وَقَدْ رَتَّبُوا الْمَكْتَابَةَ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِي الْمِصْطَلَحِ الْمُسْتَقَرَّرِ عَلَيْهِ الْحَالُ عَلَى نَحْمَسِ مَرَاتِبَ :

المرتبة الأولى — الإتيان بالإيناء بعد يقبل الأرض من غير تعرضٍ لذكرٍ دعاءٍ ولائشاءٍ ، مع مراعاة الاختصار وعدم السجع وتقارب السطور ، مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي تحت البسملة :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسؤالُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بُرُوزَ
 الْأَمْرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، أَوْ الْمَمْلُوكِ يُعْرِضُ عَلَى الْآرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
 وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَيُحْمِ الْكَتَابَ بِقَوْلِهِ : أَنهَى ذَلِكَ ، أَوْ طَاعَ بِذَلِكَ ، وَالْآرَاءُ الْعَالِيَةَ مِنْ يَدِ
 الْعُلُوِّ ؛ وَيَعْبَرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي خِطَابِ
 الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةِ خُوطَبَ بِمَوْلَانَا
 مَلِكِ الْأَمْرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ عَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنَةِ ،
 خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ سَيْفٍ
 خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ قَلِمٍ ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الصَّاحِبِ ،
 وَرَبِّمَا قِيلَ مَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطَبَ بِمَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ ؛ وَإِنْ كَانَ
 عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَةِ ، خُوطَبَ
 بِمَوْلَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِطَائِفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
 الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالعنوانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيَعْبَرُ عَنِ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
 بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يَعْبَرُ عَنِ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
 الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّغَبِ الْخَاصِّ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسَّيْفِيِّ ،
 وَالنَّاصِرِيِّ ، وَالشَّمْسِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَمْتَدًا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
 الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةِ
 كَتَبَ تَحْتَ الْفُلَانِيَّ : مَوْلَانَا مَلِكِ الْأَمْرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كَتَبَ :
 مَوْلَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قَضَاةً ، كَتَبَ : مَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

المرتبة الثانية — أن يأتي بعد « يَقْبَلُ الأَرْضَ » بذكر الدعاء دُونَ التَّسَاءِ مع تَقَارُبِ الأَسْطَرِ أيضاً وَاجْتِنَابِ السَّجْعِ . وقد أَصْطَلَحُوا في هذه المَكْتَابَةِ على أن يَكْتُبُوا تحتَ البِسْمَلَةِ مع لَقَبِ المَكْتُوبِ عنه الذِي هو المَلِكِيُّ الفُلَانِيّ ونحوه لَقَبَ المَكْتُوبِ إليه : كَالسِّيْفِيّ ونحوه ، على سَمْتِ المَلِكِيِّ الفُلَانِيّ من الجِهَةِ اليَمْنِيّ مع بَيَاضٍ بَيْنَهُمَا ، بحيث يَقَعُ بعضُ اللَقَبِ في حَاشِيَةِ الكِتَابِ ، وبعضه تحتَ أَوَّلِ البِسْمَلَةِ على هذه الصُّورَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملكى الظاهرى

السيفى

ثم يأتى بصورة المَكْتَابَةِ بعد ذلك . ويختلف الحال في هذه المَكْتَابَةِ بِاخْتِلافِ حالِ المَكْتُوبِ إليه ، فإن كان نَائِبَ سَاطِنَةٍ ، كتب « يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى بعدَ رُفْعِ الأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، أو بعدَ آتِبَالِهِ إلى الله تعالى بالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، تَقْبَلُهَا اللهُ تعالى من المَمْلُوكِ ومن كُلِّ دَاعٍ مَخْلِصٍ ، ببقاء مولانا ملكِ الأَمْرَاءِ ، أو بَدَوَامِ أيامِ مولانا ملكِ الأَمْرَاءِ ، وَخُلُودِ سَعَادَتِهِ ، ومزيدِ تَأْيِيدِهِ ، وعلوِّ دَرَجَاتِهِ في الدُنْيَا والآخِرَةِ ، بِمُحَمَّدٍ وآلِهِ : أن الأَمْرَكِيَّتَ وَكِيتَ ، والمَمْلُوكِ يسألُ الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةَ ، أو الصَّدَقَاتِ الكَرِيمَةَ ، أعزَّ اللهُ تعالى أنصارها بَرُوزِ الأَوَامِرِ المَطَاعَةِ بِكِيتَ وَكِيتَ . ثم يقول : والمَمْلُوكُ مَمْلُوكُ مولانا ملكِ الأَمْرَاءِ وَعَبْدُ بَابِهِ وَنَشْءُ إِحْسَانِهِ ، ويسألُ تَشْرِيفَهُ بِمَرَاثِمِهِ وَخِدْمَتِهِ ، أو المَمْلُوكِ يَسْتَعْرِضُ المَرَاثِمَ الكَرِيمَةَ ، وَالخِدْمَةَ العَالِيَةَ ، لِيُبَادِرَ إلى امْتِنَالِهَا ، وَالقُوْزِ بِقَضَائِهَا ، أو المَمْلُوكِ مَمْلُوكُ الأَبْوَابِ العَالِيَةِ وَنَشْئُهَا وَغَلَامُهَا ، ويسألُ دَوَامَ النَظَرِ الكَرِيمِ عَلَيْهِ في أحواله كُلِّهَا ، ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، وقد جَهَّزَ المَمْلُوكُ

بهذه المكتبة فلاناً أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حملَه كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأى العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكتبة على ما تقدم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوان فى هذه المكتبة « الأبوابُ الفلانية ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالمةُ ، المولويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدوميةُ ، الكافيةُ ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافية . وإن كان وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً رب قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكُتاب من فى معنى الوزراء : ككاتب السرِّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكية . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عرض الدرج سطرًا إلى آخر المالكية ، ويحلّ بياضاً فى آخر السطر بقدر رُبع الدرج ، ثم يكتب المخدومية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلاصقًا للأول ، ثم يُحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب : أعلاها الله تعالى ، ثم يُحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب « فلان الفلاني » تحت آخر السطر الأول ؛ ثم يكتب في آخر الدرّج من الجهة اليسرى بعد خلوّ بياض « مطالعة المملوك فلان » ثلاثة أسطر على ما تقدم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة :

الأبواب الكريمة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، المالكية ، مطالعة
المخدومية ، السيفية أعلاها الله تعالى أمر دَوَادار الظاهرى المملوك
فلان

والعلامة « المملوك فلان » بقلم ضئيلٍ مُسامتٍ يقبل كما في المكتبة قبلها .

قال في « التثقيف » : وبهذه المكتبة يُكتب عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أُظن .

قال : وكذلك كان يكتب المقر العلاءي بن فضل الله كاتب السر الشريف إلى المشار إليه ، يعنى نائب حلب ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه .

قلت : وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكتبة رُتبتان ، إن عظمه ، كتب له العلامة على سمت يقبل ، وإلا ففى أسفل الكتاب ؛ ومن ثم ذكرت قول صاحب « التثقيف » هنا وإن كان محله رُتب المتكاتبين على ما سأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة — أن لا يكتب في أول المكتبة عن يمين أسفل البسملة الفلانيّ ويأتى بذكر الدعاء والثناء مسجوعا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذى هو المَلَكى الفلاني : يقبل الأرض ، ويُنهى بعد رفع دعائه ، وإخلاصه في محبته وولائه ، وأعرافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه ؛ أن الأمر كيت وكيت ؛

والمملوك يسأل إحسانَ مولانا، أو صدقاتِ مولانا، أو إحسان المخدم، أو صدقاته في كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملوك مولانا ومُحِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشریفه بمراسيمه وخدمته ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العبودية فلانا، أو مملوكه فلانا، وحمله من الدعاء والولاء ما ينهيه من لسانه، ويُعرب عنه ببيانهِ ؛ أو وقد حمَّله المملوكُ ما يقومُ عنه به في إنهائه ، من رصف الأديعة ، ووصف الأئنية ؛ والمملوكُ يسأل الإصغاءَ إليه ، والتشريفَ بالمراسيمِ العاليةِ والخدمِ الكريمة : ليفوزَ بإقبالها ، ويأدرِ إلى أمثالها . طالعَ بذلك ، أو أنهى ذلك ؛ أو والمملوكُ يستعرضُ المراسيمِ العالیه ، والخدمِ الكريمة المتواليه : ليتشرفَ بقضائها ، ويتشوفَ إلى إضاها .

صدر آخر : ويُنهى بعد رفع الأديعه ، وبثِّ الحامد والأئنيه ، والموالاة التي نيجلُ منها علي الألويه ، أن الأمر كيت .

آخر : ويُنهى بعد رفع دعائه الذي لا يقتر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبانَ نفعه ، وأبتاله الذي يرفع السُّحب ، وشوقه الذي يهْدِي النَّجْب ؛ أن الأمر كيت وكيت .

آخر : ويُنهى بعد دعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحولُ عنه ولا يزول ؛ وسلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول .

آخر : ويُنهى بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال ، وولاء لا يتغير مادامت الأيام والليال ، وثناء أطيَب من عرف الرُّوض إذا مرَّ عليه نَسِيمُ الشَّمال ، أن الأمر كيت وكيت .

آخر : ويُنهى بعد رفع الدعاء ، ونصب لواء الولاء ، وجر ذيول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والإعتراء ، أن الأمر كيت وكيت .

آخر : وينهى بعد دعائه المرْفُوع ، وثناؤه الذى هو كالمسك يَضُوع ، وشكره الذى يُسَمَعُ منه ويُسَمَعُ أَطِيبُ مَسْمُوع ، أَنَّ الأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ .

والعنوان لهذه المكاتبه «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيف وهو نائب سلطنة، كتب «الأبواب الكريمة، العالیه، المولوية، الأميرية، الكبيرة، السيدية، المالكية، المخدمية، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالى» ثم يقال : نائب السلطنة الشريفة المحروسة ؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقي عنوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيف والأفلام على ما تقدم في العنونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وضعه أن يكتب «الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية» مثلا سطرًا واحدًا من أول عرض الدرج إلى آخره ؛ ثم يكتب «الفلانية أعلاها الله تعالى» في أول السطر الثاني ملاصقًا له ؛ ثم يترك بياضًا قدر رأس إبهام ؛ ثم يكتب في آخر السطر الثاني «كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما في هذه الصورة :
 الأبواب الكريمة ، العالیه ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدمية ، الكافلية ،
 السيفية ؛ أعلاها الله تعالى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة في ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «الملوك فلان» وكأنتهم لما آنحطت رتبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامة إليه على سمت «يقبل» ليكون في معنى القصة كما تقدم ، أخذ المكتوب عنه في التنازل إلى آخر المكاتبه تواضعًا للمكتوب إليه وتأدبًا معه .

قال في «التتقيف» وبذلك كان يُكتب عن الأمير يلبغا العمري : يعنى الخالصكى وهو أتايك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
وتؤاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة — أن يأتى بصدر المكتبة على ماتقدم فى المكتبة قبلها من
الابتداء بيقبل الأرض ويُنهى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ماتقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان « الباب الكريم » ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدومى ، الفلانى ؛ أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى — باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأقاليم أو غيرهم فعلى ماتقدم فى « الأبواب بمطالعة » من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم — بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطرًا
واحدا من أول عرض الدرّج إلى آخره ؛ ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى
بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه — كل ما كان العنوان فيه الباب الكريم ، كان العنوان فيه للمسافر « الخيم »
بدل الباب ، وبقى الألقاب على حالها كما نبّه عليه فى « التثقيف » وغيره ؛ والعلامة
فى آخر المكتبة مقابل حسبي الله ؛ إذ لمّا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحسبلة كانت العلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزلَ في رُتبةِ المكتوبِ إليه وأعلى في رُتبةِ المكتوبِ عنه .

المرتبة الخامسة — يُقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف . والرسمُ فيه أن يتركَ بعدَ البسملةِ وما تحتها من المَلَكِي الفلاني قدرَ سطرٍ أو سطرين بياضاً ؛ ثم يكتبُ يقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف ؛ ويختلفُ الحالُ فيه : فإن كان المكتوبُ إليه من أربابِ السُّيوفِ ، كتبَ « يقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف ، العالی ، المولوی ، الأمیری ، الكبیری ، العالی ، العادلی ، المؤیدی ، الذُحری ، الظَّهیری ، المسندی ، الرِّعیمی ، المالكی ، المخدومی ، الفلانی ، أعزَّ اللهُ تعالیٰ أنصارَه ، وأعلىٰ مناره ، وضاعفَ مبارَه ، ويُنبئُ بعدَ وصفِ محبته ، وبثَّ أنبيته ، كيت وديت ، والمسئولُ من إحسانه كيت وكيت » وربما كتبَ : « والمملوكُ يسألُ كيت وكيت » كما في المكاتباتِ السابقة ؛ أو « والمملوكُ يسألُ تشريفه بمراسمه وخدمه ، والله تعالیٰ يُديمُ عليه سوايغَ نِعَمه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ اللهُ تعالیٰ أنصارَه ، وأدامَ انتصارَه ، وجعلَ علىٰ غاياتِ النجومِ اقتصارَه ، ويُنبئُ .

آخر : لازالتِ الرقابُ لمهَابته خاضعه ، والركابُ به فَوْقَ النجومِ واضعه ، وأجنتِ السُّيوفُ بمضارٍ به منِ ماءِ الأعداءِ راضعه ، ويُنبئُ .

آخر : لازالتُ أعلامُه مُشرفه ؛ وأقلامُه مُصرفه ، وأيامُه بطيبِ شأنه بين الخافقينِ مُعرفة .

آخر : لازالتِ الدنيا ببقائه مجمله ، والعلیاءُ لارتقائه مؤمله ، والنعمُ علىٰ اختلافها جواهرَ مكمله ، ويُنبئُ .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مسجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : ويُنهى بعد تعبه بولائه، وقيامه بحقوق آلائه . أو ويُنهى بعد دعاء يقوم بوظائفه، وولاء يتردى بمطارفه . أو ويُنهى بعد رفع أديته، وقطع العمر في موالاته وعبوديته، ونحو ذلك . وعلى ذلك جرى في "عرف التعريف" إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : الباب العالى - بألقاب الباب الكريم في المكتبة قبلها، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يقصد تعظيمه فالمقر الشريف بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدم في الباب الكريم : أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرّج إلى آخره، كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، الذخرى ، الظهيرى ،
المستدى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، السيفى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس
والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل
إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتاب زماننا بملكمة الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة الأولى منها حذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب إليه ، وأقتصر على السير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه وإسجاره ، عند قراءة الكتاب ؛ وعُنوان بالفلانى كالسيفى ونحوه، من حيث إنه لقب مؤد إلى رُفعة ؛ وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرُفعة بذكر لقبه المؤدى إلى رُفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلانى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إنَّ العُنْوَانَ ظاهراً وباطنَ المكتابَةِ خفيٌّ^١ والظاهر المؤدَّى إلى الرفعة أعلى من الخفيِّ من ذلك ، وأُتِيَ بالدعاء فكانت أنزل رتبةً من التي قبلها لما تقدّم من أنّ الدعاء فيه معنى الدالّة ، وأجتنب فيه السجع من حيث إنّ في الإتيان به تفاسيحاً على المكتوب إليه ، وعُنُونَ الأبواب إشارةً إلى شرف محلِّ المكتوبِ إليه من حيث الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَفُ عليها ؛ وجعلتْ دونَ المرتبة الثانية من حيث إنّ العنونة في المرتبة الأولى باللّقب المؤدَّى إلى الرفعة مع دلّالته على الذات . وفي الثانية عُنُونُ الأبواب الموصّلة إلى محلِّ الشخص ؛ ولا يخفى أنّ مادلاً على نفس الشخص أعلى مما هو موصّل إلى محله ؛ وأُتِيَ فيها بمطالعة المملوك فلان إشارةً إلى التصريح للمكتوبِ إليه بالرقِّ والعبودية كما تقدّم في المرتبة الأولى - وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدَّى إلى الرفعة من داخل المكتابَةِ فكانت أنزل من التي قبلها فأُتِيَ فيها بذلك ؛ وأُتِيَ بالدعاء مسجوعاً فكانت أنزل مما قبله لما في السجع من التفاسيح على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكانت أنزل من حيث إنّ لم يقع فيه تصريحٌ بـرقِّ وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية - وفي المرتبة الرابعة بقي الصّدْرُ على حاله وعُنُونُ فيها بالباب بلفظ الإفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيث إنّ الإفراد دونَ الجمع بدليل أنه بعضٌ من أبعاضه - وفي المرتبة الخامسة قيل يُقبَلُ الأرض بالمقرِّ ؛ يعني مقرّ المكتوبِ إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشعار ذلك بالقرب من محله بخلاف يُقبَلُ مطاق^(٢) الأرض فإنه لا يخصر في ذلك ، ثم إنّ عُنُونَتِ بالباب العالی مجرداً عن الكريم ، كانت أنزل مما عُنُونُ فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلّة التي ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيد بالمقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَتِ بالمَقَرِّ الشريف فهي على انحطاطِ الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقرب المحلِّ من المكتوب إليه . على أن في عُنُونَةَ هذه المكتابة بالمَقَرِّ الشريف نظراً ، فإنَّ أعلى مَرَاتِبِ الْإِبْتِدَاءِ في المكتابة بالدعاء هي الدعاء للمَقَرِّ الشريف ، وهو بعد تقبيل الباسِطِ والباسِطَةِ واليدِ على ما سيأتى ذكره في الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فُرِّبَ التَّبَسُّعُ هذه بعنوان تلك قبل فضِّها ، والوقوفِ على صدرها هل هو مَفْتَتَحٌ يَقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ أو بالدعاء للمَقَرِّ ، إلا أنَّ كُتَّابَ الزمان قد رفضوا المكتابة بالدعاء للمَقَرِّ الشريف وأقتصرُوا على الدعاء للمَقَرِّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يكتب به عن السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره في الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة في المقالة الرابعة .

قلت : وفي الدساتير المؤلفة في الإخوانيات في الدولة التُّركية في الزمن السابق ما يخالف بعض هذا الترتيب ، بفعل في "عُرْفُ التعريف" أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنهي كَيْتَ وَكَيْتَ ، والعنوان «الفلافي بمطالعة» على ما تقدم ذكره في الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان «الأبواب بمطالعة» . ودونه : كذلك والعنوان «الأبواب» بغير مطالعة . ودونه : « يقبل الأرض بالمَقَرِّ الشريف ، والعنوان إما الباب العالى أو المَقَرِّ الشريف » .

وفي دُستورِ يُعزَى لبعض بنى الأثير أنَّ أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنهي كَيْتَ وَكَيْتَ على ما تقدم . ودونه : « يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض ويُنهي بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان

نَفْعَهُ . ودونه : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل : يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ ، وَأَكْتَنَفَهَا بِالْأَمَانِ ، مِنْ صُرُوفِ الْحَدَثَانِ ، وَلَا زَالَتْ مَحَطَّ وَفُودِ الْجَدَا ، وَكَعْبَةَ قُصَادِ النَّدَا ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَصِفُهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مُلْجَأُ الْعَفَاةِ ، وَمَلْتَمَّ الشَّفَاةِ ، وَمَحَلُّ الْكَرَمِ الَّذِي لَا يَنْجِبُ مِنْ اقْتِفَاةِ ، وَمَقْصِدُ الرَّاجِي الَّذِي إِذَا عَوَّلَ عَلَيْهِ كَفَّاهُ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لِأَزَالَتْ مُحْرُوسَةَ الرَّحَابِ ، هَامِيَةَ السَّحَابِ ، فَسِيحَةَ الْجَنَابِ ، لَمَنْ أَنَابَ ؛ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » .

وجرى في "التثنيف" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالي أو المقر الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب : يُقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَبْرَحَتِ مَطْلَعِ السُّعُودِ ، وَمَنْبَعِ الْجُودِ ، وَمَهْيَعًا لِلْقَامِ الْمُحْمُودِ . أو : يَقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتِ الْأَفْلَاكُ تَمَّتْ أَنَّهَا بِهَا تُخْفَ ، وَأَنَّهَا لِنَجْوَمِهَا إِلَيْهَا بِجَوْضِ الْوَالِدِينَ (؟) تَرْفُ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتِ الْأَمَالِ بِهَا مُطِيفُهُ ، وَالسُّعُودِ لَهَا حَلِيفُهُ ، وَسَعَادَتُهَا لِأَسْتِخْدَامِ كُلِّ ذِي إِسْمَامٍ مُضِيفُهُ .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحْكَمِ الأساس، ولا موضوع على أصل يقضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التسهل، كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئا يُجِدُّه لِيُنَسَّبَ إليه ولا يُبَالَى وافق في ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وَقَلَّ مَنْ يَصِيبُ الغرضَ في ذلك . على أن تقديم بعض هذه المراتب على بعض في العلوِّ والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكتبة بتقيل اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — يُقَبَّلُ الباسطُ الشريف ، وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت المَلِكِيِّ الفلاني بعد البسملة قدرَ سطرَيْنِ بياضًا كما في المسألة قبلها ، ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيف، كتب : يقبل الباسط الشريف ، العالی ، المولوی ، الأميری ، الكبيری ، العالی ، العادلی ، المؤیدی ، السیدی ، المالکی ، المخدومی ، المحسنی ، الفلاني ؛ لازلَّتْ ساحتُه مقبله ، وسماحتُه مؤمله ، ويُنْهَى بعد وصفِ خدَمه ، وشُوبتْ قيامه فيها على قدمه ، أن الأمر كيت وكيت ؛ والمسئولُ من إحسانه كيت وكيت ؛ والله تعالى يحرسُه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكتبة ؛ يقال بعد تكملة الألقاب : لازلَّتْ نِعْمه باسطه ، وأيامه لعقود الأيام واسطه ، ويُنْهَى كيت وكيت .

آخر: لازال جناح كرمه مبسوطا، وجناب حرمه من المخاوف محوطا،
ويُنهي كيت وكيت .

آخر: لازال يُصرف الأئنة والأسنه ، ويقلّد أعناق أعدائه كلُّ أجل
وأعناق أودائه كلِّ منه ، ويُهيي .

آخر: لازالت حائل السيف تتسابق إلى بنانه ، وأعقاب الرماح تأوي
إلى أنامله : لِيَمَكَّنَهَا مِنْ قُلُوبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ يَوْمَ طِعَانِهِ ، وَمُتَوْنِ الْخَيْلِ مَتَحَصَّنَةً بِعِزِّهِ
فِي قُوَى جَنَانِهَا بِجَنَانِهِ .

آخر: لازالت رحي حروبه على أعدائه تُدار ، وأسنة رماحه تُنادي الأعداء
البدار البدار ، وجنوده تقايل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو
من وراء جدار .

آخر: لازالت أعلام النصر معقودة بأعلامه ، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه ، وسطور البأس والكرم مثبتة إما بأفلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أفلامه .

آخر: لازالت الأئنة والأسنه طوع يمينه وشماله ، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله ، والسيف والأفلام : هذه جارية بعوائد بأسه ،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر: ولازالت وجوه النصر تُترأى في مرعاة صفاحه ، وثمار النصر تُجتنى
من أغصان رماحه ، ولا يرح السيف والقلم يتباريان في ضرر الأعداء ببأسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأمرى
«الوزيرى» — وإن كان وزيراً رب قلم ، كتب قبل الفلاني أيضا الصاحبي —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب: ككاتب السَّرِّ وناظر الخاصِّ وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وکُتَّاب الدَّست ونحوهم ، كتب بدل الأميرِ القَضَائِيّ ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزيرِ أو القَضَائِيّ ؛ العالميّ ، العادليّ ، الممهّديّ ، المشيّدیّ ، المالکیّ ،
المخدوميّ ، المحسنيّ ، الفلانيّ ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدّها ، وشيّد به مباني الملك
وشدّها ، ووهب الأيام منه هبةً لا تستطيع الليالي ردّها ؛ وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكلمة الألقاب ، ولا زالت أقلامه
تروّع الأسد في آجامها ، وتزيد على الغيوث في أنسجامها ، وتعلم الرّماح الإقدام
إذا نكصت لإحجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدُّول مشيّدّة بتصرفه ، مجدّدةً لتشريفه ، مؤيّدّة بين صرير
القلم وصريره .

آخر : ولا زالت أقلامه تهزأ بالغيوث الهامية ، وأنعامه تفوق على البحار
الظامية ، وموارد إحسانه تأوى إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد لبابه ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سحابه .

آخر : لازال فسيحا للقاصد جنابه ، مجرّبا للنّاجح بابه ، صريحا في ابتغاء خير
الدينا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكّام ، كتب : يُقبّل الباسط
الشريف ، العالی ، المولوی ، القَضَائِيّ ، العالميّ ، الإماميّ ، العلّامیّ ، السيّدیّ ،
المالکیّ ، المخدوميّ ، المحسنيّ ، الحاکیّ ، الفلانيّ ؛ أعزّ الله تعالى أحكامه ،
وجملّ به الدهر وحُكّامه ، وثبّت به الأمر وزاد أحكامه ، وينهى كيت وكيت .
دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكلمة الألقاب : أعزّ الله تعالى أحكامه وأنفدّها ،
وتدارك به الأمة وأنفدّها ، وأسعفّ به الملة الإسلامية وأسعدّها ، وينهى .

آخر: نَضَرَ اللهُ الدِّينَ بِنُورِهِ ، وَسَقَى الغَمامَ باقِيَ سُوْرِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُوْرِهِ .

آخر: وَجَمَلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ العِلْمِ بِكُؤُوبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمَنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : * عِزُّ يَدُومٌ وَإِقْبَالٌ لِصَاحِبِهِ * .

آخر: وَأَمْضَى بِيَدِهِ سِوْفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ العَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّهَا أَعْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ القَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عُلَى ثَنَائِهِ خِنْصِرٌ وَلَا يَنْجَلِي إِلَّا بِهُدَاهِ إِبْهَامٌ .

آخر: وَسَدَّدَ سِهَامَ الحَقِّ بِأَفْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَبْنِيَّتِهِ ، وَأَيَّدَ الإِسْلَامَ بِأَقْلَامِ سِجِّلاتِهِ القَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ أَلْوِيَّتِهِ — وَإِنْ كَانَ المَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشايخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقْبَلُ البَاسِطَ الشَّرِيفَ ، العَالِيَّ ، المُوَلَّوِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الخَاشِعِيَّ ، النَّاسِكِيَّ ، السَّيِّدِيَّ ، المَالِكِيَّ ، المَخْدُومِيَّ ، المُحْسِنِيَّ ، الفَلَانِيَّ ؛ لَا زَالَ يِقَاتِلُ لِإِسْلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسادَ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيَجْلُو دُجَى الظُّلْمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهِي .

آخر: وَنَفَعَ بِيَرِّكَاتِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالغَدَوَاتِ ، وَجَمَلَ بِبِقَائِهِ المَحَافِلَ وَالْمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَالِحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَامًا فِي مِباشَرَتِهِ بِصَالِحِ التَّدْبِيرِ وَإِمَامًا فِي انْقِطَاعِهِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكاتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأول سبعة من دعاء الصدر أو نحوها، بحسب حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعزَّ اللهُ تعالى نصره ؛ أو عزَّ

نَصْرُهُ . ولئن هو من رُؤساء الكُتَّاب : أَسْبَغَ اللهُ ظِلَالَهُ . ولئن هو قاضى حُكْم :
أَعَزَّ اللهُ أَحْكَامَهُ . ولئن هو من مشايخ الصوفية : أعادَ اللهُ من بَرَكَاتِهِ .

وصورة وضعه في الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين
كاملين من أول عَرْضِ الورق إلى آخره ، إلا أنه يُفَصَّلُ بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما في هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكى ، المخدومى المحسنى ، الفلانى أعزَّ اللهُ أنصارَهُ أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر في "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقر الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتبة بالمقر الشريف المتقدمة .

(١)

المرتبة الثانية — [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت الملكية
الفلانى قدر سطرين بياضاً كما في المكتبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويمجرى الحال في ذلك كما في الباسط — فإن كان المكتوب إليه من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبرى ،
العالية ، العادلية ، المؤيدية الذخرية ، المالكية ، المحسنية ، الفلانية ، لازلت سحائبها
مستهلّة ، ومواهبها للبحار مستقلّة ؛ ويُنهى كيت وكيت ، والمستمد من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازلت سيوها تملأ الرحاب ، وسيوفها تُسرِع
السّل إلى الرقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذاً مما سياتى على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصرُ الحمدِ على فضلِ بنائها معقوده ، وما أثرُ البأسِ والكرمِ لها ومنها شاهدةٌ ومشهودة ، وبوآثرِ السُّيوفِ مُسيرةُ القصدِ إلى مُناصرةِ أعلامِها المنضودة .

آخر : ضاعف الله تعالى موائدِ نعيمِها ، وجوآدَ كرمِها ، وأتصالَ الآمالِ بمساقطِ ديمِها .

آخر : لا زالت الآمالُ لائذةً بكرمِها ، عائذةً بحرَمِها ، مستنجدةً على جذبِ الأيامِ بسقى ديمِها .

آخر : لا زالت لرسومِ الكرمِ مقيمِها ، ولصنائعِ المعروفِ مُديمِها ، ولا يادى الإحسانِ متابعَةً إذا قصرتُ عن البروقِ ديمِها — وإن كان المكتوبِ إليه من رءوسِ الكُتُبِ كيتب بدل الأُميرِ القضايى ، والباقي على ما تقدم ، ثم يدعى له بما يناسبه . دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السُّيوفُ خاضعةً لأعلامِها ، والنجومُ خاشعةً لكلامِها ، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخر : لا زالت مولاتُها فريضةً ، وأجنحةُ أعدائها مهيبه ، ومقلُ الأسنَةِ إذا خاصمتها ألسنةُ أعلامِها غَضِيضه .

آخر : أسبغ الله ظلَّها ، وهنأ بها أمةً قَرَبَ مبعثُ زمانِها وأظلَّها ، وهدى الآمالَ وقد حيرها الحرمانُ وأصلَّها .

آخر : لا زال قلمُها مفتاحَ الرِّزقِ لطالبه ، والجاهُ لكاسِه ، والنصرُ لمستنيبِ كُتُبِها عن كُتُبِها .

آخر : لا زال رِفْدُها المطلوبُ ، وسَعْدُها المكتوبُ ، وقلمُها المُخاطبُ فى مصالحِ الدولِ والمُخَطوبِ .

آخر : بَسَطَ اللهُ ظِلَّهَا وَلَا قَلَصَهَا ، وزادها من فَضْلِهِ وَلَا تَقَصَّهَا ، وَلَا جَرَعَ كَيْدَ حَاسِدِهَا الظَّامِيَةَ إِلَّا غُصَّصَهَا .

آخر : ولا زال عمياً إنعامها ، قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها ، قاضية بسعدها النجوم التي هي خدامها .

آخر : لا زالت بسيطاً ظلها ، مديداً فضلها ، سريعاً إلى داعي الندى والردي قامها في المهات ونصلها - وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاضوى قبل الفلاني الحاكمي ودعا بما يناسب .

دعاء : أعزَّ اللهُ شأنها ، وأذلَّ مَنْ شأنها ، وأغصَّ بأدْمَعِ أعدائها الصَّريجة شأنها .⁽¹⁾

دعاء آخر يليق بذلك : ولا زالت الآمال إليها وإفده ، والصلوات عائده ، ومعاني الفضل عن أخبار معني زائده .

آخر : لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بنانها ، وفصل بيانها ، وعوائد الفضل والكرم شاهدة بالحسين من فضلها وأمتنانها - وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القضاية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعا له نحو قوله : ومتع الإسلام ببقية الصالحه ، وبيض صحائف أعماله التي لأيدي الملائكة الكرام مصافحه .

آخر : لا أخلى الله من بركات خلواته ، وأعاد من نواحي دعواته ، وسواي درجاته وتوجهاته ، ونحو ذلك .

والعنوان الألقاب التي في صدر المكتبة ، والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء باطنه أو نحوها .

(1) الشأن مجرى الدعاء الى العين . قاموس .

وصورة وَضَعَهُ أَنْ تَكْتُبَ الْأَلْقَابَ وَالِدَعَاءَ وَالتَّعْرِيفَ فِي سَطْرَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْبَاسِطِ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ .

الْبَاسِطَةُ ، الشَّرِيفَةُ ، الْعَالِيَةُ ، الْمَوْلَوِيَّةُ ، الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الذَّنْحَرِيَّةُ ، السَّنْدِيَّةُ ، الْكَامِلِيَّةُ ، الْمَحْسِنِيَّةُ ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَهَا أَمِيرِحَاجِبِ بِحِمَاةِ الْمَحْرُوسَةِ .
وَالْعَلَامَةُ « الْمَمْلُوكُ فُلَانٌ » بِقَلَمِ الرَّقَاعِ فِي أَوَّلِ الْوَصْلِ الثَّلَاثِ عَلَى الْقُرْبِ مِنَ اللَّصَاقِ .

الْمُرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ — يَقْبَلُ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ بِالْقَابِ الْبَاسِطَةَ الْمُنْتَقِمَةَ ؛ ثُمَّ الْيَدَ الْكَرِيمَةَ ؛ ثُمَّ الْيَدَ الْعَالِيَةَ مَعَ حَذْفِ الْكَرِيمَةِ رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ ، وَالْأَلْقَابُ بِحَالِهَا وَيُدْعَى لَهُ ؛ ثُمَّ يُقَالُ وَالْمُسْتَمَدُّ مِنْ مَحَبَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ . وَالحَالُ فِي آخْتِلَافِ بَعْضِ أَلْقَابِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْبَاسِطَةِ .

وَهَذِهِ أَدْعِيَةٌ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ

دَعَاءٌ مِنْ ذَلِكَ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ الْأَلْقَابِ : لَا زَالَتْ مَقْبَلَةُ الْبَنَانِ ، مُؤَمَّلَةٌ الْإِحْسَانِ ، مَفْضَلَةٌ عَلَى أَنْوَاءِ السُّحُبِ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَيُنْهَى .

آخِرُ : لَا زَالَتْ تَرْدُّ بِالسُّيُوفِ صُدُورَ الْكُتَّابِ ، وَتَرِدُ الظُّمَامَةُ مِنْهَا مَوَارِدَ السُّحَابِ ، وَتُحَدِّثُ عَنِ الْبَحْرِ وَكَمْ فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ .

آخِرُ : لَا زَالَتْ بَرِّيَّهَا مَأْمُونَةٌ ، وَبَدِّيَّهَا مَمْنُونَةٌ ، وَأَيَّامُهَا تَصْبِحُ الْأَعْدَاءَ بِأَسْتَبْهَا الزُّرْقُ الْمَسْتُونَةُ .

آخِرُ : لَا أَخْلَى اللَّهُ مِنْ وُدِّهَا ، وَلَا قَطَعَ وَظَائِفَ حَمْدِهَا ، وَلَا قَضَى مَغِيبَهَا إِلَّا جَعَلَ لَهَا ذِكْرِي بَعْدَهَا .

آخر: لازالت مصالحها تظفر بالمنى، وتحصل على الغنى، وتطلق لسانه
بعاطر الشا .

آخر: لازالت لتقليد المنن سابقة في الجود العدل، مقسمة في مكارم
التكريم: باطنها للندى وظاهرها للقبيل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد آستيفاء الألقاب: لازالت مستهله بالندا، مستقلة بكتب العدا،
مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر: لا برحت مفانحها مفضله، ومحبتها في الخواطر ممثله، والكواكب
تود لو فارقت فلكتها وأصبحت لديها مسبله .

آخر: لازالت لصحائف الإحسان مسطّره، ولقلوب الأعداء مُفطّره،
ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء مُمطّره .

آخر: أعلى الله تعالى شأنها، وضاعف إحسانها .

والعنوان. اليد الشريفة، أو اليد الكريمة، أو اليد العالية، بالألقاب التي في صدر
الكتاب من غير زيادة ولا نقص؛ والدعاء بأول سبعة من المدعوبه في صدر الكتاب
أو نحوها؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما
في هذه الصورة :

اليد الشريفة، العالية، الملووية، الأميرية، الكبيرة، العالمية، العادلية، الذخرية،
المالكية، المحسنية، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القرب من موضع لصاقه^(١).

وأعلم أنه ربما وُصف التقبيل في هذه المراتب بعد الدعاء بالأوصاف الدالة على زيادة التأدب ورفعة قدر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في «عُرف التعريف». وقد يستعمله بعض كتّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تقبيل الباسط بعد استعمال الدعاء: تقبيلًا يحوم على مناهله، ويحلق نسر السماء على منازله؛ أو يقول: تقبيل محبٍّ أخلص ولاءه، ومحص الصدق ووفاءه - أو تقبيلًا يواليه، وينظم لآليه - أو تقبيلًا يواصل به الخدم، ويودّ لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تُسعف القدم - أو تقبيلًا لا يروى الكرم إلا عنه، ولا تُستفاد المكارم إلا منه - أو تقبيل واريده على ذلك الزلال، رائد في ذلك الروض المتمد الظلال - أو تقبيل مسارع إليها، مزاحم عليها . وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المقام، مثل أن يقول: وينهى بعد وصف خدمه، وتمنيه لو وقف في صفّ خدمه؛ وما أشبه ذلك .

قلت: وفي بعض الدساتير بعد تقبيل اليد العالمة، يُقبل يد الجناب الكريم، العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، المؤيدى، النصيرى، الزعيمى، الفلانى؛ وبعد ذلك: يخدم الجناب الكريم بنحو هذه الألقاب؛ وفي «التثقيف» يقبل يد الجناب العالى، ويخدم الجناب العالى، بدون الكريم؛ ثم يقال بعد ذلك ويؤدى لعلمه كيت وكيت؛ والقصد من محبته كيت وكيت؛ فيحيط علماً بذلك. وبعض الكتّاب يستعمل ذلك إلى الآن؛ وهو ذُهل، إذ سيأتى في أول الدرجة الثالثة أن أعلى المراتب المفتحة بالدعاء للدعاء للقرّ الشريف على المصطاح الأول، وللقرّ الكريم على ما استقرّ عليه الحال الآن؛ وإذا كان كذلك فكيف يتأتى أن تكون مرتبة من مراتب الجناب الكريم أو الجناب العالى قبل المقرّ الشريف أو المقرّ الكريم .

(١) الأظهر من موضع لصقه .

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على [ثلاث] مراتب ^(١):

المرتبة الأولى — الدعاء للمقتّر، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب أعزّ الله تعالى أنصار المقتّر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ، النصيرى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له بما يناسب ، نحو: ولا زالت جيوشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطأليها حائله ، وأولياؤه على صهوات خيلها لديه قائله ؛ أصدرناها إلى المقتّر الكريم ، تهدي إليه من السلام أطيبه ، ومن الثناء أطنبه ؛ وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت ؛ والقصد من اهتمامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الألقاب : وأيد عزائمهم ونصرها ، وأعلى أعلامه ونسرها ، ودقق في مقاتل الأعداء حيث تزور الأسنان نظرها ، وينهى .

آخر : ولا يرحح الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف .

(١) بياض في الأصل .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ، كتب : بسطَ اللهُ ظلَّ المقرِّ . أو أسبغَ اللهُ ظلالَ المقرِّ الكريم ، العالى ، القضاى ، الكبرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيدى ، السندي ، المالكي ، المخدومي ، المحسني ، الفلاني ؛ وبقى المكتابة كما في أرباب السيوف .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مَفَوَّضه ، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مَقْوُضه ، وصحائفُ الحسَناتِ بتسويده على أثناءِ الدَّهرِ مُبَيَّضه ؛ أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناويه أنه أصبحَ لا يُعدُّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر في "عرف التعريف" أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكتابة بالمقرِّ ، وعلى ذلك جرى في مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكتابةً بذلك في بعض الدساتير ؛ وحينئذ فيكتب : أعزَّ اللهُ تعالى أحكامَ المقرِّ العالى ، القضاى ، الكبرى ، العالمى ، العلامى ، الإمامى ، المالكي ، المحسني ، الحاكمي ، الفلاني ؛ ويدعى له بما يناسب . مثل : وجدده إقبالا ، وبلغه من الدارين آمالا ، وأحسنَ إليه مَبْدَأَ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدّم .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

لابرح الشريعة محوطةً بأقلامه ، مضبوطةً بأحكامه ، منوطةً بما يُشيدُ مبانيها ومثانيها من أحكامه ، مؤرَّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمتدعين من تجريدها مهندا مهندا .

آخر : لا برحت أنوار فتاويه لامعه ، وسيوف أعلامها بها قاطعه ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكاتبه المقر الكريم بنظير ما فى الصدر ، والدعاء بأول سبعة
فى الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما فى هذه الصورة :

المقرّ الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
النصيرى ، الفلانى ؛ أعزّ الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبه .

المرتبه الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى — أعزّ الله تعالى نصرة الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك
تحت « الملكى الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيف ، كتب : أعزّ الله تعالى نصرة
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
الذخرى ، العضى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأفدّ أمره ،
صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب الكريم ، تُهدى إليه سلاماً رائقاً ، وشاء عاقبا ،
وتوضّح لعلمه الكريم كيت وكيت ، والقصد من أهتامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه
بذلك ، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عزائمُه تُعير السُّيوفَ المِضَاءَ ، وتُعَلِّمُ السَّهَامَ التُّقُوذَ
في القِضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابُه مرَّعًا ، وسحابُه مرَّبعًا ، ورُعبُه لا يدع من قلوب
الأعداءِ مَوْضِعًا .

آخر : ولا زالت عزائمُه تُباري السُّيوفَ ، وتُسِّقُ الصُّفوفَ ، وتُجاري
إلى مَقَاتِلِ الأعداءِ الحُتُوفَ ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام الله تعالى جلالَ الجَنابِ الكريمِ ، العالى ،
القضائى ، الكبيرى ، الصِّدْرِى ، الرِّيسى ، العَوْنى ، الغِيائى ، المَلَادى ، الفلانى ،
ويُدعى له بما يناسبه ، والباقي من نسبة أرباب السُّيوفِ .

دعاء يناسبه : وحرس سماءه التى تفتى عن المصائبِ ، ونعماءه التى هى للنعمِ
مفاتيح .

آخر : وبلغه أشرف الرُّتبِ ، وملاً به قلوبَ الأعداءِ غايةَ الرُّهبِ ، وشَكَرَ
ندى قلمه الذى لم يدع للغمامِ إلا فضلَ ما وهبَ ، صدرت .

وإن كان قاضياً ، كتب : أعزَّ الله تعالى أحكامَ الجَنابِ الكريمِ العالى ،
القضائى ، الإمامى ، العالمى ، العلامى ، الأوحدي ، الفلانى . ويدعوله ، نحو :
وتور بعلمه البصائرَ ، وسرَّ بحكمه السرائرَ ، وجعل فيضِ يمه مما لا تُودع دُرُّه إلا
في الضمائرِ . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : أعاد الله تعالى من بركات الجَنابِ
الكريمِ ، العالى ، الشَّيخى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ، الورعى ، الزاهدى ، الفلانى .

وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَلَا زَالَ يُقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فَسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَتُجْلَى
دُجَى الظُّلَمَاءِ بِصَبَاحِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا يزدان بَعْرُضٍ بِخِدْمَتِهِ ، وَيَزْدَادُ نَضْرَةً بِنَظَرَتِهِ .

وَالعنوان لِكُلِّ مِنْهُم بِاللقابِ الصِّدْرِ ، وَالِدَعَاءِ بِأَوَّلِ سَجْعَةٍ مِنْ دَعَائِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَصُورَةٌ وَضَعَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي سَطْرَيْنِ ألقابَهُ وَدَعَاءَهُ وَتَعْرِيفَهُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ،
النصيرى ، الفلانى ، أعز الله تعالى نصرته فلان الفلانى

وَالعِلَامَةُ « الْمَلُوكِ فُلَانِ » بِقَلَمِ التَّلْثِ مَقَابِلِ السَّطْرِ الثَّانِي كَمَا فِي الْمَكَاتِبَةِ
الَّتِي قَبْلُهَا .

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ — مِنَ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي .
وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَتْرَكَ تَحْتَ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِيَّ قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ بِيَاضًا ، ثُمَّ يَخْتَلِفُ الْحَالُ
فِي ذَلِكَ .

فَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، كُتِبَ : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى
نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، الْعَوْنِيِّ ،
النَّصِيرِيِّ ، الذُّنْحَرِيِّ ، الْفُلَانِيِّ ؛ ثُمَّ يَدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَنَصْرَهُ فِي جِلَادِهِ ، وَأَيْدِهِ
فِي مَوَاقِفِ جِهَادِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
يَسُوقُ ، وَثَنَاءً يَرُوقُ ، وَتَوْصِيحًا لِعَلْمِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَالجناب العالى ، يَتَقَدَّمُ بِكَيْتِ
وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عِلْمُهُ بِذَلِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

دَعَاءٌ آخَرٌ يَنَاسِبُ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةَ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الألقابِ ، وَلَا زَالَ
عَزَمَهُ مُؤَيِّدًا ، وَعِزَّهُ مُؤَبِّدًا ، وَاجْتِهَادَهُ وَجِهَادَهُ : هَذَا يَسْرُ الأَوْلِيَاءِ وَهَذَا يَسُوءُ العِدَاءَ ؛

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تحُصّه بالسّلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضّح لعلمه كيت وكيت .

آخر : ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر في جوامعها ، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتى الأولياء بهوامعها .
وإن كان من الكُتاب ، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى ، القضاى ، الكبرى ، الصّدرى ، الرّيسى ، القوامى ، النّظامى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له نحو : ولا زال يُرجى لكلّ جليل ، ويُؤمل لكلّ جميل ، ويُؤهل لكلّ منتهى تقصّر دونه أصابع النيل ؛ صدرت هذه المكتبة ، والباقي على ماتقدم في أرباب السيوف .

وإن كان من القضاة ، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى ، القضاى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدي ، الصّدرى ، الرّيسى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : ودفع عنه الأباطيل ، وأرشد هُدهاه من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصّوفيّة ، كتب : أعاد الله تعالى من برّكة الجنب العالى ، الشّيخى ، الإمامى ، العالمى ، الكاملى ، الورعى ، الزاهدى ؛ ويدعى له ، نحو : ولا زال تُكشّف به اللّواء ، وتطبّ به الأدواء . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه سلاماً ، وتفضّ عن مثل المسك ختاماً ، وتوضّح لعلمه .

دعاء آخر : نفع الله بدعواته التى لا حاجب لها عن الإجابة ، ولا عارض يمنعها عن الإجابة ، وأمتع ببركاته التى هى أمن للناس ومثابه . صدرت .

والعنوان الألقاب التى فى صدر المكتبة . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يُكتب فى سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكتبة .
الطبقة الثالثة — أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت الملقى الفلانى بحيث يبقى من الوصل الذى فيه البسمة
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذخرى ، الفلانى . ويُدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره ، وكتب
عدوه وقهره ؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما طيبا ، وثناء
مُطنبا ، وتوضّح لعلمه كيت وكيت ، فالجناب العالى يتقدّم بكيت وكيت ؛ فيحيط
علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كل سنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكتبة تحية بسلام يطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب ،
وتوضّح لعلمه .

وإن كان من الكُتاب ، كُتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، القضائى .
والألقاب من نسبة ما تقدّم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا ، ونجم رفده [لأنواء الفضل مانحا]
صدرت .

(١) بيض فى الاصل لبقية هذه السجعة فاشتناها ليلتم الكلام .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، والألقابُ من نسبة ما تقدم في ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ، نحو : ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الحدال من مرّكبه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجناب . والدعاء ، نحو : نفع الله بركات خلواته التى كم أنجلت عن الرّشاد ، وبان فى مرءاتها نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لإنارة الزّناد .

والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ؛ والدعاء أدام الله تعالى نعمته . وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النّضيرى ، الذّحرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» تحت البسملة بقلم مختصر الطومار .

المرتبة الثالثة — الدعاء للجلس ، ويختص بالجلس العالى ، واليباض فيه تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم فى الجناب العالى . ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّحرى ، العونى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه ، ووفر من الخيرات قسمه ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تهدى إليه سلاما ، وتوفر له من الخير أقساما ، وتوضح لعلمه المبارك

كَيْتَ وَكَيْتَ ، فالجِلسُ يتقدَّم بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، فيحيطُ بِذَلِكَ عَلِمًا . واللهُ تعالى يُؤيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وهذه أدعية تليق بهذه المكتابة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشْكُورَ الْأَهْتِمَامِ ، موصوفَ المحاسِنِ وَصَفَ البَدْرِ الثَّمَامِ ، معروفًا بِجَمِيلِ الْأَثَرِ مِثْلَ ما تُعرَفُ مواجِعُ الغَمَامِ . صدرتْ هذه المكتابةُ إلى المجلسِ العالى تُهدى إليه سلامًا ، وتُسَدِّدُ لِرأْيِهِ الصَّائِبِ سِهَامًا ، وتوضِّحُ لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ .

آخر : ولا زالَ سَيِّفًا يُدْفَعُ بِجَدِّهِ ، وَيَجْرِي مَاءُ النُّصْرِ مِنْ فِرْنِدِهِ ، ويتنقُّعُ به الظَّفَرُ فيَقْتُلُ بتجريدِهِ وَيُخَافُ وهو في غَمَدِهِ .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام اللهُ تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِي ، الْأَجَلِّي ، الكَبِيرِي ، الرَّيْئِسِي ، المَاجِدِي ، الأَوْحَدِي ، الأَيْمُرِي ، الفِلاَنِي ؛ وَيُدْعَى لَهُ ، نحو : وسَدِّدْ رَأْيَهُ وَوَقِّفْهُ ، وَصَدِّقْ فِيهِ الظَّنَّ وَحَقِّقْهُ ، وَجَمْعُ لَهُ سَمَلٌ السَّعَادَةِ ثم لا فَرْقَهُ . صدرتْ هذه المكتابةُ إلى المجلسِ العالى تُشْكِرُ مَسَاعِيهِ ، وَأَهْتِمَامَهُ الَّذِي باتَ طَرْفُ النَّجْمِ وهو يُرَاعِيهِ ، وتُوضِّحُ لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ .

آخر : ولا نزعَ عنه ثوبَ سَعَادَةٍ ، ولا غَيْرَ مِنْهُ جَمِيلَ عَادَةٍ ، ولا عَرِيفَ سِوَى بابِهِ الَّذِي لو كان لَهُ الحَقُّ في جَبْهَةِ الأَسَدِ لَأَسْتَعَادَهُ . صدرتْ هذه المكتابةُ إلى المجلسِ العالى تُهدى إليه السلامُ ، والثَّنَاءُ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ ألسِنَةُ الأَقْلَامِ ، وتوضِّحُ لِعِلْمِهِ .

وإن كان من القَضَاةِ ، كتب : أدام اللهُ تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِي ، الكَبِيرِي ، العَامِلِي ، العَامِلِي ، الفاضِلِي ، الأَوْحَدِي ، الفِلاَنِي ؛ وَيُدْعَى لَهُ ،

نحو : ولا بَرِحَتْ طُلُبَتُهُ مَفِيدَةَ الْمَطَالِبِ ، مُورِيَةَ الْهُدَى فِي الْغِيَاهِبِ ، قَائِمَةَ أَقْلَامِ هِدَايَتِهَا فِي لِيَالِي الْحَيْرَةِ مَقَامِ الْكَوَاكِبِ .

آخِر : وَلَا بَرِحَتْ الدُّنْيَا مَمْطُورَةً بِغَمَامِهِ ، مَجْبُورَةً بِدُخُولِهَا تَحْتَ ذِمَامِهِ .

وإن كان من مشايخ الصوفية^(١)، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالى ، الشَّيْخِي ، الإِمَامِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْعَابِدِي ، الْوَرَعِي ، الزَاهِدِي ، الْأَوْحِدِي ، الْفَلَانِي ، وَيَدْعِي لَهُ نَحْو : وَلَا زَالَ نُورُهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ إِلَيْهِ .

آخِر : أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَاتِهِ عَلَى الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ ، وَجَعَلَ خَلَوَاتِهِ خَلَوَاتِ كُلِّ نَفْسٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَّةٍ ؛ وَالْباقِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَالعنوانُ الْأَقْلَابِ الَّتِي فِي الصَّدْرِ ؛ وَالدُّعَاءُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ . ثُمَّ التَّعْرِيفُ . وَصُورَةٌ وَضَعَهُ فِي الْوَرَقِ أَنْ تُكْتَبَ أَقْبَابُهُ وَالدُّعَاءُ وَالتَّعْرِيفُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :

المجلس العالى ، الأُمِيرِي ، الكَبِيرِي ، الْعَالِمِي ، المَجَاهِدِي ، الْمُؤَيَّدِي ،

الدُّخْرِي ، الْعَوْنِي ، الْفَلَانِي ؛ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ فُلَانُ الْفَلَانِي .

وَالعَلَامَةُ « الْمَلُوكُ فُلَانُ » بِقَلَمِ مَخْتَصِرِ الطُّومَارِ تَحْتَ الْمَلِكِي الْفَلَانِي ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَكْتَابَةِ قَبْلُهَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَرْتِيبَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ : مِنَ الدُّعَاءِ بِأَعَزِّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ أَعَزِّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ؛ ثُمَّ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي - هُوَ الْمُسْتَقَرُّ عَلَيْهِ الْحَالُ بَيْنَ كِتَابِ الزَّمَانِ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وَجَعَلَ فِي «عُرْفِ التَّعْرِيفِ» أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي الدُّعَاءِ : أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛

(١) الطلحة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعتها .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المَقْرِّ الكَرِيمِ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نَصْرَ المَقْرِّ الكَرِيمِ؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الشَّرِيفِ؛ ثم أدام الله نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي، وحرَّسَ الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي، مع آخْتِصَارِ الألقَابِ وحَدْفِ بعضها؛ ثم أدام الله تعالى نعمةَ المَجْلِسِ العَالِي. وعلى كثيرٍ من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن.

قلت : وكانوا في الزمن السالف في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المَقْرِّ الشَّرِيفِ، والمَقْرِّ الكَرِيمِ، والمَقْرِّ العَالِي، والجَنَابِ الشَّرِيفِ، بأصْدَرِهَا ولا بصَدْرَتِ هَذِهِ المَكْتَابَةِ كما هو الآن؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقْرِّ الشَّرِيفِ» : المملوكُ يقبَلُ الباسِطَةَ. ثم يأتي بالإنتهاء بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يقبَلُ الباسِطَةَ الكَرِيمَةَ التي هي معدن السَّحَابِ، ومَوْطِنُ مَا يُوْهِنُ العِدَا من صدور الصَّفَاحِ، وينهى . أو يقول : يقبَلُ الباسِطَةَ الكَرِيمَةَ، ويرتفع منها في كلِّ ديمه؛ وينهى . أو والمملوكُ يقبَلُ اليدَ الشَّرِيفَةَ، ويلجأ إلى ظلالها الوَرِيفَةَ، وينهى . ومع «الجَنَابِ الشَّرِيفِ» لفظُ «المملوكُ يَحْدُمُ». ثم يقول : ويؤدى مثل أن يكتب : المملوكُ يَحْدُمُ بِأَثْنَيْتِهِ، وَيُفِضُ عَقودَ الشُّكْرِ على أُنْدَيْتِهِ، ويؤدى لعلمه الكَرِيمِ. أو المملوكُ يَحْدُمُ بِأَثْنَيْتِهِ التي تَزِيدُ الطَّيْبَ طَيِّبًا، وتَسْرِى سُرَى السُّحْبِ فلا تَدْعُ في الأَرْضِ جَرِيبًا، ويؤدى لعلمه الكَرِيمِ. وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمَةُ، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمَةُ وسلامُهَا يتَضَوِّعُ، وثناؤها السَّافِرُ لا يَتَّبَرِّقُ.

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغٍ مُتَرَعَّةٍ من صدور مكاتبات الأدمية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأدمية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبه ؛ ثم يقال : وتبدي لعلمه أو وتوضح لعلمه .
ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الأفتتاح بالدعاء ؛ لأن هذه فرع
من فروع تلك ، وحينئذ فيكون الصدر مُشتملاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها — [أفتاح] صدور المكاتبه بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني — الإشارة إلى المكاتبه بقوله : هذه المكاتبه .

والثالث — الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبه . فانتظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — الأفتتاح بصدور المكاتبه ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى — صدرت والعالى ؛ وهى أن تُفصح المكاتبه ، بأن يقال : صدرت
هذه المكاتبه إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُيوف ، كتب : صدرت هذه المكاتبه
إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبرى ، المجاهدى ، المؤبدي ، الذخرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفّر من الخير قسمته ، تتضمن
إعلامه كيت وكيت . فالمجلس العالى يتقدم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده
والله الموفق .

وإن كان من الكُتاب ، كتب : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،
الفضائى ، الكبرى ، الرئيسى ، الكاملى ، الماجدى ، الأيرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له ، نحو : حرس الله مجده ، وأنجح قصده ، والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووفّر من الخير أقسامه ؛ والباقي على ماتقدم .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
الشّيخى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، الزاهدى ، العابدى ، الورعى ، الأوحدى ؛
ويدعى له نحو : أعاد الله من برّكته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
على ماتقدم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصّدر وأول سبعة من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ،

الأوحدى ، الفلانى أدام الله رفّعتَه فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » تحت « الملكى الفلانى » بقلم مختصر الطومار الثقيل ،
وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبقة الثانية - صدرت والسامى . وهى أن تُفتَح المكتبة بأن يقال :
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى كما
فى المكتبة التى قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلّا ما يسعُ سطرين فقط
على ماتقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العزّدى ، الذّخرى ،
الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تُضَمَّنُ إِعْلَامَهُ كَيْتَ وَكَيْتَ . فالمجلس السامى يتقدّم بكيّت وكيّت ، فيعلمُ ذلك ويعتمده ويبادرُ إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الزينى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعف الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادته ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من الفُضَاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى ، القضائى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى ، الشّيخى ، العالمى ، العاملى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعده من حضرة قُدسه . والباقي على نحو ما تقدم .

والعنوان الألقابُ التى فى صدر المكاتبَةِ بالسّجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضدى ، الذنخرى ،
الأوحدى ، الفلانى . أدام الله سعده فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المملكى الفلانى ، بقلم مختصر الطومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الأفتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهى أن يُكْتَبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى متسع أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يتسع سطرين فقط . ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، الذَّحْر ، فلان الدين ؛ ويُدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ؛ أو أُنَجِّحَ اللهُ قَصْدَه ، وأَعَذَبَ وِرْدَه ، تُعَلِّمُه كَيْتَ وَكَيْتَ : فالمجلس يتقدم بكيت وكيت : فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصَّدر ، الرئيس ، الأوحِد ؛ ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادتَه ، وبلغه من الخير إرادته ؛ تُعَلِّمُه كَيْتَ وَكَيْتَ . والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : هذه المكتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى بركته ، ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سَمْتِه وَسَمْتِه . والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأوّل سَجْعَةٍ مِنَ الدِّعَاءِ الذى فيه وتعريفه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ،
الذَّحْر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة — الأفتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله ، فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم لإثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يُترك تحت المَلَكِيّ الفلانيّ بياضٌ : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كُتِبَ : يعلم الأمير، الأجل ، الكبير، المؤيد، الذئب، المرتضى ، المختار، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزه ، ووفر من الخير كثره ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ فجلس الأمير يتقدم بكَيْتَ وكَيْتَ ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ؛ كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلس الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحد ، الكامل ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكاتبة الألقاب التي في الصدر والدعاء بأول تنجعة مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، الذخر، المرتضى، المختار،
فلان الدين . أدام الله عزّه
فلان الفلانيّ
والعلامة تحت البسملة الأسمُ بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات
وعنواناتها ليست موقوفاً عندها ، بل لكل واحد فيها اختياراً من تقديم وتأخير ،
وتبديل لقبٍ بلقبٍ ، وزيادة ونقص ؛ إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة ،
مثل زيادة لقبٍ ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون
في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد
ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للقتل الشريف لأرباب السيوف
بعد استيفاء الألقاب المفردة : عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ،
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممدد الدول ، مشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للقتل الكريم :
عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، زعيم
جيوش الموحدين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دُخر الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ،
سيف أمير المؤمنين ؛ وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكتّاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيد الكبراء
في العالمين ؛ رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملّة ، مدبر الدولة ؛ دُخر الممالك ،
ظهير الملوك والسلاطين ؛ وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كلُّ أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورُتبته .
ثم اقتصرُوا بعد ذلك على استعمال اللَّقبِ المضافِ إلى الملوك والسلاطين ، مثل ظهير
الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتِّبَ الزمان هذه الألقاب المركَّبة جملةً
أختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتخالف
المكاتبات الصادرة عن السلطان ، فتكون مخصَّصةً بالألقاب المركَّبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر

أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَح من ذلك بما تُفتَح به الأبتداءاتُ المتقدمةُ الذكر)

والرسم فيها أن يكتب صدرُ الكتاب كما يكتب أن لو كان ابتداءً ؛ ثم يذكر ورودُ
الكتاب المجاوب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمَّنه ؛ وهو على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثال .
وذلك مع الأبتداء بلفظ يقبل الأرض وينهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كمال الصَّدر : ^(١) ورود المثال الكريم العالی أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ،
ويدكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّل
المملوكُ لوروده الأرض ، وأدَّى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأبتهج بوروده ، وحمد الله وشكره على ما دل عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره — إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة —
أو من عافية مولانا قاضي القضاة — إن كان قاضياً — أو من عافية الخدم وصحة مزاجه

(١) أى الذى منه وينهى ورود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابل المملوك المراسيم الكريمة بالامتثال ؛ ففهم ما رسم له به من كيت وكيت ، والمملوك لم يكن عنده غفلة ولا إهمال فيما رسم له به . وإن كان ثم فصول كثيرة ، قال : فأما ما رسم له به من كيت وكيت فقد أمثله المملوك ؛ ويجاوب عنه . ثم يقول : وأما ما رسم له به من كيت وكيت ، فالأمر فيه كيت وكيت ، حتى يأتي على آخر الفصول ؛ فإذا انتهى إلى آخرها ، قال : وسؤاله من الصدقات العميمة ، إمداده بمراسيمه الكريمة وخدمه ، ليفوز بقضاها ، ويأدر إلى أمثالها ؛ والمملوك مملوكه وعبدُ باه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثل العالى بدون الكريم ، وذلك مع الابتداء بلفظ يُقبل الأرض ويُبنى بعد آتباله إلى الله تعالى ؛ والابتداء يُقبل الأرض بعد رفع دعائه ؛ ويقبل الأرض بالمقرّ الشريف ؛ ويقبل الباسط الشريف . فأما مع يُقبل الأرض بعد آتباله ، فالأمر على ما تقدم في جواب المكاتبه قبلها ، إلا أنه يقتصر على المثال العالى دون الكريم كما تقدمت الإشارة إليه . وأما مع يُقبل الأرض بعد رفع دعائه ، فإنه يقول بعد تكلمة الصدر : ورود المثال العالى أعلاه الله تعالى على يد فلان ، فقبله حين قابله ، ووقف على ما تضمنته من كيت وكيت ، وفرح بما دلّ عليه من عافية الخدم ، وحمد الله تعالى وشكره على ذلك ، وفهم ما أشار إليه من كيت وكيت ؛ ويجاوب عنه ، ثم يقول : والمملوك يسأل إحسان الخدم بتشريف المملوك بمهماته ومراسيمه ليفوز بقضاها ، فإن المملوك وقف المالك ؛ طالع بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقبل الأرض بالمقرّ الشريف ، ويقبل الباسط الشريف ؛ فإنه يُقال ورود المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورود مثاله العالى . وقد يقال المشرف الكريم العالى على ما تقتضيه رتبة المكتوب إليه ، ويرتضيه المكتوب عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدم .

المرتبة الثالثة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة ، على التأنيث ؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد . ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب . فيقال : يقبل الباسطة ويُنهى ورود المشرفة الكريمة ، ومع اليد الشريفة ، والكريمة ، والعالية ؛ وفي معنى ذلك يُخدم إذا كتب بها ؛ وكذلك أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم ، وإن كان المكتوبُ عنه يكتنَى عن نفسه بنون الجمع المقتضية للتعظيم . ثم يقول : في كلِّ منها فقبلها المملوك حين قابلها ، ووقف على ماتضمنته من محبته ومودته ، وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : والمستمد من محبته تشریف المملوك بمراسيمه ومشرقاته وخدمه : ليقوز بقضائها ، ويأدر إلى امتثالها ؛ فإن المملوك ما عنده غفلةً فيما يقتضيه رأيه العالی ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

المرتبة الرابعة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة . وذلك مع الإبتداء بالدعاء بلفظ : ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی ؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالی ؛ وصدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالی ، أو المجلس السامی ؛ أو هذه المكاتبة إلى المجلس السامی ؛ أو يعلم مجلس . فيقال : وتوضَّح لعلمه ، أو موضحةً لعلمه ، أو تتضمن إعلامه ، أو تعلّمه ، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة ، وورود مكاتبتة ، فوقفنا عليها ، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : فيتقدّم الجناح أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوالجه .

وأعلم أن لكاتب السرّ أجوبةً لتوّاب السلطنة وغيرهم ممن تردّ عليه مكاتبتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتبتهم على الحضرة السلطانية ؛ وتحسين السفارة في ذلك ؛ ويقع الخطاب في جواب كلِّ منهم على حسب رتبته .

ففي جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يكتب ما صورته : ويُنهى بعد رفعِ
أدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخلص ، بدوامِ أيامِ مولانا
ملكِ الأُمراء ، أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وخلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ
على المملوكِ على يدِ فلان ؛ فنهضَ له المملوكُ ، وأجملَ في تلقّيه السُّلوكَ ؛ وفَضَّه عن
صدقاتِ عميمه ، وتفَضُّلاتِ جسيمه ؛ وفرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأُمراء - أعزَّ الله أنصاره وعافيته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ؛ وتضاعفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وتزايدَ آتباؤه به ، وسألَ الله تعالى أنْ يُديمَ حياةَ مولانا ملكِ الأُمراء ،
أعزَّ الله أنصاره ، ويُنقيه ؛ وأتتهى إلى ما تضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ في معنى تجهيزِ
المشارِ إليه إلى خِدمةِ الأبوابِ الشريفةِ بما على يده من المكاتبَةِ الكريمةِ ، وما رَسَمَ به
من القيامِ في خِدمتها وعرضها بين يدي المواقِفِ الشريفةِ شرفها الله تعالى وعظمتها ؛
وقابلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالامتثالِ بالسَّمعِ والطاعةِ ، وبأدرَ إلى ما رَسَمَ به ؛
وقد عرَّضَ المملوكُ المكاتبَةَ الكريمةَ على المسامعِ الشريفةِ ، وكَتَبَ الجوابَ الشريفَ
عن ذلك بما سَتَحِيطُ به العلومُ الكريمةُ ؛ وعادَ بذلك إلى خِدمةِ مولانا ملكِ الأُمراء
أعزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأُمراء عزَّ نصره ، ومُحِبُّه القديمِ ،
والمعتَرِفُ بإحسانه وصدقاته ؛ ويسألُ تشريفه بالمهمَّاتِ والخدمِ ، أنهى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفي جوابِ بقيةِ التَّوَابِ بالمالكِ الشاميةِ : كَتُوبَ السلطنةِ بحِجَّةِ وطرايُلسِ وصدَدِ
والكَرْكِ ، ومقدِّمِ العسكرِ بغزَّةِ ، يكتب : ويُنهى بعد رفعِ دُعائه ، وإخلاصِهِ في محبتهِ
وولائه ، وأعترافيه بإحسانِ مولانا وآلائِهِ ، أنَّ المثالَ العالی - أعلاه الله تعالى -
وردَ على المملوكِ على يدِ فلان ، فقبَّله المملوكُ ، وأحسنَ في تلقّيه السُّلوكَ ؛ وفرِحَ بما دَلَّ
عليه من عافيةِ مولانا وسلامتهِ ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ، وحَدَّ الله تعالى على ذلك ،

وَأَتَتْهُ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : من تجهيز المطالعة الكريمة إلى الأبواب الشريفة ، شرفها الله تعالى وعظّمها ، وفهم المملوك ذلك ، وأمتثل ما أشار إليه بالسَّمْع والطاعة ؛ ووقَفَ في خدمتها عند العَرَضِ على المَسَامِعِ الشريفة ، وأحاطت العلوم الشريفة بمضمونها ؛ وكتبَ الجوابَ الشريفَ عن ذلك بما سَيُحِيطُ به علمُ مولانا ؛ وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهذه الخدمة ، وحمله المملوك من السلام والشوق والدعاء والولاءِ وتقبيل الأرض ما يُبْدِيهِ لِمَسَامِعِ مولانا . والمملوكُ يسأل إحسانه الإصغاءَ إلى ذلك ، والتشريفَ بمراسيمه وخدمته : ليبادرَ إلى قبولها . والله تعالى يؤيده ويحرسه بمنه وكرمه .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتتح بورود المكاتبة مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت

أو وقفت على المكاتبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثالُ الكريمُ الفلاني ، وذِكْرُ سلامته أحلى من ذِكْرِ الأوائِلِ ، وقد تطرّز منه طرازُ أشرف من طراز الغلائِلِ ؛ وما سكن القلبُ إلى شيءٍ كسكونه إليه ، ولا رأى وارداً أكرم منه عليه ؛ فقابل نعمة قُدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمالِ إلّا من نشرها ؛ وإذا كان وجه الأيام مُقَطَّباً استغنى بيشير وجهه الميمون عن بيشيرها ؛ فإن حُسنَ في رأيه الإجراءُ على عوائد إحسانه [من التشريف بمراسيمه وخدمته] والمواصله بها ، [نالت] النفس من ورودها نهايةً أربها .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له ملكة في الإنشاء ، وقوة في النظم والنثر ، فإنها لا تتوقف على ابتداءٍ مخصوص ، ابتداءً ولا جواباً ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربما أقتصرت فيها على الشعر خاصةً دون النثر .

المهيمع الثاني

(في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما الحال مستقر عليه في زماننا)

اعلم أنَّ المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى - من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم » ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالحضرة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى - من يكتب له عن هذه الطبقة « الفلاني بمطالعة » ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته - أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له « المخدومي الأتابكي فلان الفلاني » باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، « أتابك العساكر المنصورة » .

المرتبة الثانية - من يُكْتَبُ إليه « الأيوأب بمطالعة » ومن يُكْتَبُ إليه بذلك عن النائِبِ الكافلِ بالحضرة، والأتابِكِ-نائِبِ السلطنة بالشام. فقد قال في "التتقيف":
 إِنَّ بهذه المكاتبه يكتَبُ عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائِبِ الشام وحلبَ
 فيما أُظُنُّ؛ ومن يكتب إليه بذلك عن نائِبِ الشام- الدوادارُ، وأميرأخورُ، ومقدمو
 الألوْفِ بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدمي الألوْفِ بالشام، وكافلِ الملكة
 الشريفة الحليية .

المرتبة الثالثة - من يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « الأيوأب بغير مطالعة » وبذلك
 يكتَبُ عن كافلِ السلطنة بالحضرة إلى نائِبِ السلطنة بحلب . وقد ذكر في "التتقيف"
 أنه كان يكتَبُ بذلك عن الأمير يلبغا العمري (يعنى الخاصيكي) وهو أتابِكُ الديار
 المصرية، إلى نائِبِ الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِبَ بعده إلى نائِبِ الشام وحلبَ،
 الأمير منكلي بفا، والأمير الجاي؛ وتوَابِ السلطنة بالديار المصرية؛ وبذلك يكتَبُ
 عن نائِبِ الشام إلى كلِّ من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزير
 وكاتبُ السربها .

المرتبة الرابعة - من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «الباب الكريم والباب العالي»
 (١)
 أما الباب الكريم، فإنه يكتَبُ بذلك عن النائِبِ الكافل والأتابِكِ

وبذلك يكتَبُ عن نائِبِ الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإستادار
 الأملاك الشريفة، وناظرِ الجيوش المنصورة بالأيوأب السلطانية، وناظرِ الخواصِّ،
 وناظرِ الدولة، وحاجبِ الحجاب بالشام، وقاضي القضاة الشافعي بالشام، وكاتبِ

(١) بياض في الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائِبِ الشام ونايِبِ طرابلس
 الى آخر ما يأتي بعد . وحرر .

السَّرْبَه، ونائب السلطنة بطرابُلُس، ونائب السلطنة بحمّاء، ونائب السلطنة بصَفَد،
ونائب السلطنة بالكرك .

أما من يكتب له عن نائب الشام الباب العالى بَدُون الكَرِيم ، فمقدّم العسكر
المنصور بغزة ، والقضاة الثلاثة بالشام، ما خلا الشافعيّ المقدم ذكره ؛ والوزير
بالشام .

المرتبة الخامسة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عن هذه الطبقة « يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَرِّ
الشريف » وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك ، إلى نائب طرابُلُس ،
ونائب حمّاء، ونائب صفد، ونائب الإسكندرية ، وأمراء الألوف بالديار المصرية ؛
وبه يُكْتَبُ عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عن هذه الطبقة « الْبَاسِطُ الشَّرِيفُ » وبذلك
يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى مقدم العسكر بغزة، ومقدم العسكر بسيس،
ونائب السلطنة بالكرك، وحاجب الحجاب بالشام، وحاجب الحجاب بحلب .

المرتبة السابعة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عن هذه الطبقة « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ » ومن
يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضي القضاة الشافعيّ بحلب .

المرتبة الثامنة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عن هذه الطبقة « الْيَدُ الشَّرِيفَةُ » أو « الْيَدُ الْكَرِيمَةُ »
أو « الْيَدُ الْعَالِيَةُ » . وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائبي الوجه القبليّ
والوجه البحريّ بالديار المصرية ؛ ونائب القدس، ونائب حمص، ونائب الرّحبة،
ونائب البيرة، ونائب قلعة المسلمين، ونائب ملطية، ونائب دبركي، ونائب الألبستين،
ونائب طرسوس، ونائب أذنة، ونائب بهسني ؛ وأمراء الألوف بالشام وحلب .
وبذلك يُكْتَبُ [أيضا] عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بالديار المصرية، وقضاة

العسكر بها ، وحاجب الحجاب بحلب ، والقضاة الثلاثة : الحنفى ، والمالكي ،
والحنبلى ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِ
الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفْقَةِ القِبلية ، وإلى الأمراء
مقدمي الألوْف بالشام ، وناظر الجيش به ، وأمير آلِ فَضْل ، ونائب حِمص ، وكاتب
السرى بحلب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكِي ، ونائب دَرَنْدَةَ .

المرتبة العاشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقْتَرِ
الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائب قلعة دِمَشْق ، والحاجب الثاني بها ،
ووكيل بيت المال بها ، ومقدمي الألوْف بحلب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحبة ،
ونائب الأَبْسُتَيْنِ ، ونائب مَلْطِيَّة ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب بهسنى ، ونائب
البيرة ، ونائب جَعْبَر ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَانَ .

المرتبة الحادية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ
الجناب الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء الطَّبْلَخَانَاهُ بالشام ، ونائب
القدس ، ونائب بَعْلَبَكَّ ، ومتولَّى صَيْدَا ، وأمراء الطَّبْلَخَانَاهُ بحلب ، ووكيل بيت
المال بها ، والمحْتَسِبِ بها ، وناظرٍ خاصِّ البريد بها ، وأمير حاجب بَصَفَد .

المرتبة الثانية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى
نِعْمَةَ الْجَنَابِ العَالِيِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى والي قَطِيَا ، ورُبَّمَا زِيد
فيه الكَرِيمِ .

المرتبة الثالثة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « أَدَامَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ
الجناب العَالِيِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء العَشْرَاتِ بِمِصْر ، وأمراء

العشرينات بالشام، والمحسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عقبة، وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل علي، وأمير آل موسى، ونائب مضياف، ومتولى بيروت.

المرتبة الرابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «المجلس العالی مع الدعاء». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة، ووالى البرها، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جرم، ومقدم بنى مهدي، وأمرء العشرينات بحلب.

المرتبة الخامسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «صدرت والعالى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمرء الطبلخاناه بالوجهين: القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحصر، وأمرء العشرات بحلب.

المرتبة السادسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «صدرت والسامى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى قوص، ووالى منقلوط، ووالى الأشمونين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية، ووالى قطيا، ونائب مضياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عيتاب، والحاجب الكبير بغزة. وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام، وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت ومجلون، ومتولى صرخد،

والحاجب الصغير بجمّص ، ووالى تدمر ، ومقدم إقليم الحروب بصيدا ، ومقدم إقليم النعاج ، ووالى البقاعين ، ووالى بلنياس .

المرتبة السابعة عشرة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « هَذِهِ الْمَكْتَبَةُ »
 وبذلك يَكْتُبُ عَنْ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى وَالِي الْحِزْبِيَّةِ ، وَوَالِي إِطْفِيحٍ ،
 وَوَالِي قَلْبُوبٍ ، وَوَالِي أُشْمُومِ الرُّمَّانِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ أَيْضًا إِلَى
 نَائِبِ الْكَنْخَتَا ، وَنَائِبِ كَرْكِرٍ ، وَنَائِبِ حَجْرِ شُغْلَانَ ، وَنَائِبِ سِرْفَنْدَكَارٍ ، وَنَائِبِ الْقُصَيْرِ ،
 وَنَائِبِ بَغْرَاسٍ ، وَنَائِبِ الرَّأوْنَدَانَ ، وَنَائِبِ الشُّغْرِ وَبَكَاسٍ ، وَنَائِبِ الرَّهَاءِ ، وَنَائِبِ
 الدَّرْبَسَاكِ ، وَنَائِبِ شَيْرَزَرِ بِالْمَمْلُوكَةِ الْحَلِيبِيَّةِ ، وَإِلَى نَائِبِ اللَّادِزِيَّةِ ، وَنَائِبِ صَهْيُونِ ،
 وَنَائِبِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ ، وَنَائِبِ حِمَصٍ ، وَنَائِبِ الْمَرْقَبِ ، وَنَائِبِ بَلَّاطُنُسٍ ، وَنَائِبِ
 الْكَهْفِ ، وَنَائِبِ الْقَدْمُوسِ ، وَنَائِبِ الْخَوَائِي ، وَنَائِبِ الْعَلِيْقَةِ ؛ وَنَائِبِ الْمَيْنَقَةِ :
 مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسٍ ، وَنَائِبِ شَقِيفِ تَيْرُونَ مِنْ مَعَامِلَةِ صَفَدٍ . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ [أَيْضًا]
 عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِمِصْرٍ ، وَإِلَى كَاشِفِ الرَّمْلَةِ ، وَمَتَوَلَّى حُسْبَانَ ،
 وَحَامِي الْخَرِيبَةِ .

المرتبة الثامنة عشرة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَعْلَمُ » . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ
 عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِالشَّامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ مَا تَقْدَمُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ مَكْتَابَاتٍ أُخْرَى إِلَى مَنْ هُوَ
 خَارِجٌ عَنِ الْمَمْلُوكَةِ ؛ وَهِيَ عَلَى مَرَاتِبٍ .

المرتبة الأولى — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْهُ : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ » — صَاحِبُ بَعْدَادٍ :
 كَمَا كَانَ يُكْتُبُ لِلْقَانِ أَحْمَدَ بْنِ أُوَيْسٍ ، كَانَ يُكْتُبُ إِلَيْهِ فِي وَرَقٍ قَطَعَ نِصْفَ الْحَمْوِيِّ
 بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الصَّغِيرِ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لَدَى الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ ، الْعَالِيَةِ ، الْمُؤَلَوِيَّةِ ،

السلطانية، العالمة، العادلية، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزماؤها مؤيده، وآراؤها مسدده؛ ويُنهى إلى العلم الكريم — صاحب السراى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الشريف »
 أبْنُ السلطان أحمد بن أُويس المذكور . وورقه نظيرُ ورق والده ، وقلمه نظير قلمه — صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله أنصارَ المقرِّ الكريم » — صاحبُ ماردين : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العادلى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ؛ ورَقَّ مقداره ، وأجزل مَبَارَه . المملوك يَجِدُّ الخِدْمَةَ العالیه ، ويصِفُ أشواقَه المتواليه ؛ ويُنهى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصَا : من بلاد الروم ، وهو ابن عُثمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يزيد بن مراد بك بن عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم ، العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، العونى ، الغيائى ، المهدي ، المشيدى ، الزعيمى ، الغازى ، المجاهدى ، المناغرى ، المرابطى ، العابدى ، الناسكى ، الزاهدى ، المقدمى ، الأتابكى ، المحسنى ، الظهيرى ، الملكى ، الفلانى ؛ مُعزَّ الإسلام والمسلمين ، سيد الأُمراء فى العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُبِيد المشركين ، قامع أعداء الدين ، مقتلِع الحُصُون من الكافرين ؛ عونِ الأُمَّة ، عِمَادِ المِلَّة ، دُخْرِ الدَوْلَة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حاكم البلاد الرومىة ، صاحب بُرْصَا وقيسرية ؛ سيف أمير المؤمنين ؛ قَهْر [الله] أعداء الدين الحنيفى بجزائمه وسَطَوَاتِهِ ، وجعله مؤيدا فى حركاته وسكَّاته ، وأيده فى جهاده واجتهاده بالنصر الذى لا يفارق ألوية أعلامه وراياته ،

ولا زالت رعاياه محبوبه، وعساكره منصوره؛ هؤلاء بجوده [وهباته]، وهؤلاء بوجوده وحياته . المملوك يقبل اليد التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد، ونواها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف ثماؤها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالمؤالة والتحميد ، ويتوأمر بهادي رسائلها يصدق الموّدة الدائمة على التأييد ؛ ويؤيدى إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيت في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب سر الشام كان . وفيه اضطراب وتخليط من نعته في ألقابه [بقوله] الملكي الفلاني ؛ وقوله سيد الأمراء في العالمين ، حيث وصفه أولاً بأوصاف المملوك ، ثم وصفه بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالی » — وزير صاحب بغداد ، وورقه في قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف — قاضي بغداد : مثله سواء — صاحب لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان . ويقال في ألقابه : الأصيلي . نوين التوامين ، مجهز المقاب ، دُخر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جومرك : من بلاد الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناح الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد الجزيرة ، ويقال فيه : الملكي الفلاني — مقدم التركان البيضاء .

المرتبة السادسة — « الجناح العالی » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة ابن عُمَر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال .

المرتبة السابعة — « المجلس العالى » — صاحب ميا فأرقين : من بلاد
الجزيرة — صاحب أكَل : من الجزيرة أيضا — صاحب أرقين — صاحب
قلعة الجوز — صاحب جرموك — صاحب أماسيا : من بلاد الروم — نائب
ماردين — خادم صاحب ماردين — صاحب بطنان — صاحب سنجار : من
بلاد الجزيرة — صاحب حاسك (؟) — صاحب أزبك — صاحب الموصل —
صاحب سنوب — صاحب بوشاظ — صاحب الدر بند — صاحب عين دارا —
صاحب الحمة — صاحب خلاط — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب
جمشراك — نائب كرزك — صاحب القنطرة — نائب خرت رت — صاحب
البارعية — صاحب حران — صاحب العمادية — صاحب حاني — نائب مازكرد —
نائب صاحبة ماردين — أمير التركان الشهرية — صاحب أشنو .

الطبقة الثانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية ، من
يُكتب إليه عن السلطان : « أعز الله تعالى نُصرة الجتاب الكريم » وهو نائب
السلطنة بحلب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلاني بمطالعة » وهو النائب الكافل بالحضرة السلطانية ،
وأتابك العساكر المنصورة .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » وهو نائب السلطنة بالشام ، والامير الدوادار
بالأبواب السلطانية ، وأستاذ الدار بها ، وأكابر الأمراء المقدمين الخاصية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشام .

المرتبة الرابعة — «البابُ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرأبُلس، ونائب السلطنة بحمّاة، ونائب السلطنة بصفدّ، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المقدمين بالحضرة ممن دون الخاصكية؛ وفي معنى ذلك الوزير، وكاتب السرّ، وناظر الخاصّ، وناظر الجيش، ومن في معانهم.

المرتبة الخامسة — «يقبل الأرض بالمقرّ الشريف». وبذلك يكتب إلى حاجب الحجاب بالشام.

المرتبة السادسة — «يقبل الباسطة» وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام، وحاجب الحجاب بحلب، وحاجب الحجاب بحمّاة، وحاجب الحجاب بطرأبُلس، وقاضي القضاة الشافعي بحلب، وكاتب السرّ بها.

المرتبة السابعة — «يقبل اليد الشريفة». وبذلك يكتب إلى نائب البيرة، ونائب ملطية، ونائب قلعة المسلمين، ونائب جعبر، ونائب الرها، ونائب الأبلستين، ونائب حمص، وأمراء الطبلخاناه بدمشق.

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس، ونائب الرحبة، والحاجب الثاني بطرأبُلس، ومقدمي الألوفا بها، والقضاة الثلاثة: المالكي، والحنفي، والحنبلي بحلب. إلا أنه يقال: «أعز الله تعالى أحكام المقرّ».

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم العالی» وبذلك يكتب إلى نائب بهسنی، ونائب الرحبة، وأكابر الطبلخاناه بالشام، ومن تولى الإمرة من عرب آل فضل ثم عزّل؛ وقضاة العساكر المنصورة بحلب، وناظر الملكة بها، وأمير آل عليّ.

المرتبة العاشرة — « أعز الله تعالى نصرَةَ الحنابِ الكريمِ ». وبذلك يُكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بَحَبَّ ، والحاجبِ الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضَلِ .

المرتبة الحادية عشرة — « ضَاعَفَ اللهُ تعالى نِعْمَةَ الحنابِ العالى » وما فى معناه مما يُكتب به إلى أرباب الأقالام وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شَيْزَرِ ، وأمراء الطبلخاناه بَحَلَبْ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بَحَلَبْ ، وناظر خاص البريد وموقعى الدستِ بها .

المرتبة الثانية عشرة — « صَدَرَتْ والعالى ». وبذلك يُكتب إلى نائب عَيْنَتَابْ ، ونائب الرَّاوَنَدَانِ ، ونائب الكَحْتَا ، ونائب كَرَكْرَ ، ونائب بَغْرَاسْ ، ونائب الدَّرَبَسَاكْ ، ونائب الشُّغْرِ وبَكَاسْ ، ونائب القُصَيْرِ ، وأمراء العَشْرِينَاتِ بَحَلَبْ ، وأعيان العَشْرَاتِ بها .

المرتبة الثالثة عشرة — « صَدَرَتْ والسامى ». وبذلك يُكتب إلى مُقَدِّمى الحَلَقَةِ بَحَلَبْ ، ومقَدِّمى البريديَّةِ بها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — « السامى » بغير ياء . وبذلك يُكتب إلى والى سَرَمِينِ ، ووالى البَابِ ، ووالى عَزَّازِ ، ووالى أَنْطَاكِيَّةَ ، ووالى حَارِمِ ، ووالى كَفَرِ طَابِ ، ووالى الجَبُولِ ، ووالى مَنبِجَ ، ووالى تَلِّ بَاشِرِ ، وأجنادِ الحَلَقَةِ بَحَلَبْ ، وصغار البريدية بها ، وعداد التريكان وعداد الأكراد .

وأعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبْ [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ، وهى على مراتب :

المرتبة الأولى — المكتابة بـ «يُقْبَلُ الأَرْضَ» — القان صاحب بَعْدَاد : كما كان يُكْتَب إلى القانِ أُوَيْس ، وأبْنِه أحمد : يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقام الشريف العالى ، المَوْلَى ، السُّلْطَانِي ، الأعْظَمِي الأَوْحَدِي ، الملاذِي ، العَطَوِي ، المُحْسِنِي ، القَانِي ، المَلِكِي الفلَانِي ، الجَلَالِي ؛ أعلى الله تعالى شأنه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رِقَاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لَوَاؤُهُ يَتَأَزَّرُ بالنصر وَيَرْتَدِي ، وَفِنَاؤُهُ يَرُوحُ إليه العِزُّ وَيَعْتَدِي ، وَعَزْمُهُ يَتَّقِفُ صرف الزمان فلا يعتاد أن يعتدى ؛ ولا يَرِحَ محموداً في مَوْقِفِ النَّصْرِ مَوْقِفُهُ ، مَاضِيًّا في هَامَاتِ أعدائه مَرْهَفُهُ . وَيُنْهَى بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة ﴿ فَتَقْبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ ﴾ وَمُوَالَاةٍ شَفَعَهَا بالإخلاص ، فَعَجَزَ عن وصفها دَوُوُ البلاغة وَالسَّن ، وَأَثْنِيَّةٌ جَمَعَهَا فَلَدَّتْ بها الأسماعُ لَدَاذَةَ الأَعْيُنِ السَاهِرَةِ بِالْوَسْن ؛ أن الأمر كَيْتَ وَكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتَب له «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرَّ الشريف» — صاحب مَارِدِينَ . والرسم أن يُكْتَب إليه : أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرَّ الشريف ، العالى ، المَوْلَى ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، السُّلْطَانِي ، المَلِكِي ، الفلَانِي ؛ ويدعى له ، نحو : لَأَزَالَتْ أيامه مَسْعُودُهُ ، وَأَبْوَابُهُ مَقْصُودُهُ ، وَأَلْوِيَةُ النَّصْرِ بنواصِي خَيْلِهِ مَعْقُودُهُ ؛ المملوكُ يُقْبَلُ اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَةِ بِأَكْلِ وَظِيفِهِ ؛ وَيُنْهَى لعلمه الكريم بعد السلام الزكي ، والثناء المَسْكِي ؛ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فيحيط بذلك علمه الكريم ، وَيُخَفِّفُ بالمُشْرَفَاتِ على عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرَّ الكريم» . وبذلك يكتب إلى ابن قَوْمَانَ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالْبِلَادِ القَرْمَانِيَّةِ — حاكم جولمرك — صاحب بُرْصَا وهو ابن عثمان — صاحب آيَاس لوق .

المرتبة الرابعة — « المقرّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَناب الكريم » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يُكتب
إلى نائب كرنك ، وحاكم جمشكراك ، وحاكم سيواس ، وحاكم أماسيا ، وحاكم
سنوب ، والحاكم بخيرت برت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب ماردين ، ونائب الصالحية ، وبعض خدام صاحب ماردين .

المرتبة الثامنة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حران ، ونائب
مازرد ، وحاكم قلعة الجوز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
من يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، وناظر الخاص ، على ما استقر عليه الحال آنحرا ، وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير مجلس ، وأمير أخور ، والدوّادار ،
وإستادار ، وحااجب المُجَّاب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك تواب السلطنة
بطرابلس ، وحمّاة ، وصفدّ ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلاني بمطالعة » وهم : النَّائب الكافل ، وأتابك العساكر ،

ونائب الشام .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .
 المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،
 ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه
 الطبقة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي
 والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسياس ، والأمراء المقدمين
 المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .

المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو الباسط
 الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالمة » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطليخان
 المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما
 أمحطت رتبة أحد هؤلاء فكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، وأنصرة
 الجناب الكريم ؛ أضعف الله تعالى نعمة الجناب العالی .

المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی » . وبذلك يكتب إلى
 كاشف الوجه البحري وكاشف القيوم والبهنساوية .

المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . وبذلك يكتب إلى الولاة
 الطليخان بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرهما .
 وربما كتب "صدرت والعالی" لأحدهم .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ وَالسَّامِي » . وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككاتب السرّ وناظر الجيـش ، وكذلك المَجَّاب الطبلخاناه بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاصّ فى الزمن المتقدّم . فلما جُمِعَ للصاحب شمس الدين المقسى بين الوِزَارَةِ ونظر الخاصّ ، كان يُكْتَب عنه بما يُكْتَب به عن الوزراء كما تقدّم . فلما انفصل الخاصّ عن الوزارة رُوِيَ فى الخاصّ ذلك القَدْر ، فكُتِب عن ناظر الخاصّ كما كتب عن الوزير؛ والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » . وبذلك يُكْتَب إلى النَّائِب الكافل ، والأنايك ، ونائب الشام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلانى .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرَابُلس ، وحمّاة ، وصدّ ، وثغر الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية ، ومقدّمى العسكر بغزة وسيس ، وربما كُتِب إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يقبل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القُدس الشريف ، ونائب الرّجبة ، وكاشف الوجه البحرى ، وكاشف القيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليدّ العالية » . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناة ،
بالوجهين القبليّ والبحريّ ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجناح العالى » . وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات
بالوجهين القبليّ والبحريّ أيضا .

قلتُ : وعلى هذه الطبقات الأربع يُقاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، ككاتبَيْ القُدسِ والرَّحبةِ ؛ وَمَنْ يُكتب له : صدرت
والسامي ، كالكاشف بالوجه البحريّ ، وكاشفِ القُيُومِ ؛ ومن يكتب له : هذه
المكاتبة ، كالولاة الطبلخاناة بالوجهين القبليّ والبحريّ ؛ ومن يكتب له : « يَعْلَمُ »
كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكونَ الكُتابةُ
عنهم لأعيان الدولة « الفلانيّ بمطالعة » وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدّم .

وأعلم أن هذه المراتب المضمّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف
عند حدّها ، بحيث لا يجوز تجاؤها بزيادة ولا التناخُرُ عنها بنقص ، بل هي على
سبيل التقريب ؛ والأمر في زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تُخرِجه عن حدّه
في المقدار موكولٌ إلى اختيار الكاتب ، يزيد في ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المكتوب إليه ، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأُسْتِمالاته
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغَضُّ منه بحطيطة رُتبتَه أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)
وهى الجزء الأعظم من صناعة الترسُّل ، وعليها مدارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهى أهمُّ ما تَصَلَّحَ به الكاتبُ ، وألزمُ مامَهَرَ فيه ؛ وهى قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(ما يُكْتَبَ عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن صَاهَاهُمْ)

مما هو مستعمل الآنَ ممَّا كان عليه الحال فى الزمن القديم مما يَقِلُّ وَيَكْثُرُ ،
وَيَتَكَرَّرُ تَدَاوُلُهُ فى الكتابة وسائر المكاتبات فى الحوادث المألوفة التى يكثر تداولها ،
وتتكرر الكتابة فيها بتكرار وقائعها ، وما رَسَمُ الكتابة به باقٍ إلى زماننا ، وإن تغير
مصطلح الإبتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصنف الأول

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال فى "مواد البيان" : جرت العادة أن تُنْفَذَ الكتبُ إلى ولاة الأعمال فى مثل
هذه الحالة ، مُتَّصِمَةً ماجرى عليه الأمر بالحضرة : من اتقياد الأولياء والرعايا

إلى الطاعة، ودخولهم في البيعة بصدورٍ مُنْشَرِحَةٍ، وحَضٍّ مِنَ الْأَعْمَالِ من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم، وإعطاء الرعايا على ذلك صَفَقَةً أيمانهم .

وقد كان الرسمُ فيها أن تُصَدَّرَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَكْتَشِفُ الخَطْبُ، وَتَرَابُ الشَّعْبِ، وَتَدْفَعُ الْمُهِمَّ، وَتَرْفَعُ الْمَلِمَّ؛ وَتَجْبِرُ الْوَهْنَ، وَتُسَبِّغُ الْأَمْنَ؛ وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ خِصَائِصَهُ وَمَنَاقِبَهُ، وَتَشْرِيفَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِقْرَارِ الْإِمَامَةِ فِي أَقَارِبِهِ، وَتَخْصِيصِهَا بِنَبِيِّ عَمِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ؛ وَمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ مَوَدَّتِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَقَاءِ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ: «أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ، بِإِخْتِمَاتِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكَ تَخْتُمُ الْخِلَافَةَ» وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَتَلَوُ ذَلِكَ بِالْإِفْصَاحِ عَنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ وَفَضْلِهَا، وَالْإِبَانَةِ عَنْ رَفِيعِ مَكَانِهَا وَمَحَلِّهَا؛ وَأَنَّهَا ظِلُّ اللَّهِ الْمَمْدُودِ، وَحَبْلُهُ الْمَشْدُودِ؛ وَمِسَاكُ الدِّينِ وَنِظَامُهُ، وَمِلَاكُ الْحَقِّ وَقَوَامُهُ . وَأَمْتِنَانِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ أَنْ جَعَلَ فِيهِمْ أُمَّةً يُقْسِطُونَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ فِيهِمْ؛ وَيُقِيمُونَ أَدْيَانَهُمْ، وَيَهْدُونَ إِيْمَانَهُمْ؛ وَيُرْهِقُونَ بَصَائِرَهُمْ، وَيَهْدُونَ حَاثِرَهُمْ؛ وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَتَهُمْ؛ وَيَحْمُونَ ذِمَارَهُمْ، وَيَحُوطُونَ دِيَارَهُمْ؛ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لِلْإِمَامِ مِنَ الطَّاعَةِ وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، وَالْأَقْيَادِ لِأَمْرِهِ فِي طَاعَةِ مَنْ يَنْصُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ: لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ، وَيَتَدَلَّ ظِلُّ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَ عَهْدِ خَلِيفَةٍ قَدِمَاتٍ: مِنْ أَبِي أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ بِمُقَدِّمَةِ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوَّى فِيهِ بَيْنَ بَرِيَّتِهِ، وَجَعَلَ فِي تَطَرُّقِهِ

إلى رسوله أسوةً لخليقته ، وتفرّد بالبقاء ، وأمتنع عن الفناء . ثم يقال : وإن الله تعالى لما آختر لعبده ووليه فلان الثقة إلى دار كرامته ، والحلول بفناء طاعته ، وأعانه على سياسة بريته ، وأنهضه بما حمّله ، وأيده فيما كفّله ؛ من الذبّ عن المسلمين ، والمرامة عن الدين ؛ والعمل بكتابه وسنته في القول والفعل ، وأستشعار خيفته ومراقبته في السرّ والجمهور ؛ وما يليق بهذا - استخلص عبده ووليه فلاناً الإمام الفلاني لخلافته ، وأهمل سماء الرحمة بإمامته ؛ وأحلّ عزيز النصر بولايته ، وألقى في نفس رأيه النصّ عليه ، والتفويض إليه ؛ لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد ، وعموم الأمانة للبلاذ ؛ فأمضى - قدس الله روحه - ما ألهمه ، وكلمه قبل نروجه من دار الدنيا وتممه ؛ عالمًا بفضل اختياره ، وأنه لم يملّ به الهوى في إشاره ؛ فقام أمير المؤمنين الإمام الفلاني مقامه ، وحفظ نظامه ؛ وسدّ ثلمته ، وعفى رزيته ؛ وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرّها ، وزاد باستخلافه في صيت الخلافة وقدرها .

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخصّ وليّه السعيد بقربه بأفضل صلواته ، وأشرف تحياته ، ويحسن جزاءه في سعيه في صلاح العباد ، وسداد البلاذ ؛ وأن يُلهم أمير المؤمنين الصبر على تجرّع الرزية فيه [ويجزيه] أفضل ماجزئ به صابراً مُحْتَسِباً ، وأن يجبر كسره في فقدّه ، ويوفّقه لجمل العزاء من بعده ؛ ويسدّده في مصادره وموارده ، ويهدّيه لما يُرضيه في جميع مقاصده ؛ ويُعينه على تأليف الأهواء ، وجمع الآراء ؛ ونظم الشمل ، وكفّ القتل ، وإرخاء الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أجمع من بحضرته ، من ذوى جهته وأمرائه دولته ؛ وكافة جنده وجماعة حوزته على بيعته ، وإعطائه صفة أيمانهم على طاعته

ومشايعة؛ عن صدور مُخْلِصة نَقِيَّة، وسَرَائِرِ صَافِيَة سَلِيمة؛ وعقائد مشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه، وأنقادوا مختارين إليه؛ وشَمِلْتَهُم بِذلك الرِّحمة، وَصَفَتْ عَلَيْهِم النِّعمَة؛ فَمَا بَرِحُوا الرِّزِيَّةَ، حَتَّى فَرِحُوا بِالعَطيَّة، وَلَا وَجَمُوا لِلصَّبيِّه، حَتَّى بَسَمُوا لِلرَّغِيبة؛ وَلَا أَظْهَمُوا لِفَقْدِ المَاضِي، حَتَّى أَضَاءَ الوجود بِالآتِي.

فإنَّ الحمد على هذه النعمة التي جَبَرَتِ الوَهْنَ، وَحَقَّقَت في فَضله المَنِّ؛ حمدا يَسْتَدِرُّ أَخلاف فَضله، وَيَسْتَدْعِي سابغ طَوْلُه؛ وَصَلَّى اللهُ على عَهدِ وآلِه. وأميرُ المُؤمِنين يَراك من أَهلِ مَحالِصتِه، وَالمُتَحَقِّقين بِطاعَتِه؛ وَهو يَأْمُرُك أَنْ تَأْخُذَ البِيعَةَ لِه على نَفْسِک، وَعلى جَمِيعِ أولِیائِه المُقِیمین قِبَلِک، وَکَافَّةَ رِعاياہ الذین هُم في عَمَلِک؛ وَتُشعِرَهُم بِما عِنْدَه لِلسَّارِعین لَطاعَتِه، المُبادِرین إلى آتِباعِه؛ من تيسيرِ الإِنصافِ وَالعدْلِ، وَإِفاضَةِ الإِحسانِ وَالفَضْلِ؛ وَما لَمَن نَكَبَ عَنِ الطَّرِيقَةِ المُنْثَلِي، وَحَادَ عَنِ الأُولَى، مِنَ الكَفِّ الرَّادِعِ، وَالادِّبِ الوَازِعِ؛ وَيتَوَسَّعُ في هَذا المَعْنَى تَوْسَعًا يَشْرُحُ صَدورَ أَهلِ السَّلَامِه، المُسْتَمِرِّين على نَهْجِ الأَسْتِقامِه؛ وَيَرُدُّعُ أَهلَ الفِسادِ، وَيَفْضُضُ من نَواظِرِ ذَوِي العِنادِ. وَيُحَلِّي الكُتَّابَ بِآياتِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ تُحَسِّنُ أَسْتِعارَتِها في بابِ العَزاءِ، وَيُبلِغُ ذِكرَها في بابِ الإِشادَةِ بِالخِلافَةِ وَالخُلُقَاءِ. فَان كان الكُتَّابُ مِمَّا يَقرأ بِالْحَضْرَةِ. قال في مَوضعٍ «وَكُتَّابُ أميرِ المُؤمِنين إِلَيْک»: «وَأَتمَّ مَعاشرَ أَقاربِ أميرِ المُؤمِنين: مِنَ إِخوتِه وَبني عَمِه وَخَواصِّ الدَولَةِ وَأَمرائِها وَأَجنادِها وَكُتَّابِها وَقُضَّائِها وَكَافَّةَ رِعايِها، وَمن أَشتمَلِ عَلَیْه ظَلَّ مَمْلَکَتِها - أَحَقُّ مَنْ حافِظُ عَلَی عَوارِفِ أميرِ المُؤمِنين وَأَعْتَدَ بِلِطائِفِه؛ وَقام بِشِكرِ نِعمَتِه، وَسارَعَ إلى آتِباعِه وَأَعْتَصَمَ بِجِبْتِ دِعوَتِه؛ فَاجْمَعُوا عَلَی مَتابِعَتِه، وَإِعطائِه صَفَقَةَ إِیمانِکُم عَلَی مَبايِعَتِه؛ لِيجمَعَ اللهُ عَلَی التَّالِيفِ کَلِمَتِکُم، وَيُحِیَ بِالتَّأزُّرِ بَیضَتِکُم» وَیُتَّبِعُ ذَکَ من وَعَدَ أَهلَ الطَّاعَةِ

بما يضاعف جُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند أستقراره في الخلافة بعد أبيه المُستَعْلَى بالله ، والدَّوْلَةُ مشتملة على وزير ؛ من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفناء ؛ الذى تَمَجَّد بالأزليَّة والقِدَم ، وتفرد بالوجود وتَزَّه عن العَدَم ؛ وجعل الموت حَتْمًا مقضياً على جميع الأمم .

يمجده أمير المؤمنين على ماخصه به من الإمامة التى قَصَّه سرِّها لها ؛ ووزَّنه نَفَرها وجمالها ؛ حمد شاكر على جزيل عطية ، صابر على جليل الرزية ، مُسَلَّم إليه فى الحُكْم والفضية ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذى ثبت حجته ، ووضَّحت حجته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامة كلمة فى عقبه باقيه ، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقيه ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله رُوحه وصلى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمَّله من أوق الإمامة ^(١) ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ وإلى الله يرغب أمير المؤمنين فى إلهامه حُسن الصبر على هذا المُصَاب ، وإجزال حظه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده فى خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

وكتب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُمومته وأوليائه وخدم دولته، وسائر أجناده وغبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مشرقه، وأغصان الإمامة مُثمرة مُورقة؛ والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نصرته الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوضحت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهر له من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولى الأمر بحضرته تولى الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار أبتهاج وسرور؛ يعطون صفة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شمول السعد وعُموم الرشد، وتيقنوا خيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يعزبك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاًها، وأسكنت الألباب جرحاً وولماً، وهينك وإياهم بمتجدد دولته التي تهلل لها وجه الزمان، وأستهلت بها سحاب الفضل والإحسان . وأمير المؤمنين يمد الله الذي أقر الحق في منصبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرده به .

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسم، والنبي العظيم، وأشكر الله على ما جدد لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفت بأساء الزمان وجنابته، وشفقت من داء كُلمه ونكايته؛ وتقدم إلى الدعاء (؟) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، وأستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والأجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم مشايخته؛ لتنالوا

في العاجلة حظًا جسيماً ، ونُحِرُّوْا في الآجلة أجراً كريماً : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين عليّ الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين مملك ، ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كتبت به إلى ولاية الأطراف بعد قراءة عهده ، مهتتا بخلافته ، وتجديد ولايته ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعد ، فالحمد لله مولى المنائح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذى له الحكم الظاهر عدله ، ولديه الطول الفائض فضله ، وعنده مفايح الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين على ما أفرده به من سنيّ المواهب ، ونظمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب ؛ وتزينت بهم الأرض تزيّن السماء الدنيا بزينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذى نشر الله به الرحمه ، وكشف الغمه ، وأنقذ الأمه ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمّه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، والمذكور فى زبر الأولين ، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاة باقية إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن أطفها مكانا ، وأشرفها محلاّ وشانا ، وأولاها بأن تستنطق به الأقلام ، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام ؛ ما خصّ الله به أمير المؤمنين من المن الظاهره ،

وتولاه من المنح المتظاهره ؛ وأصاره إليه من الخِلافة في أرضه ، وأستخلفه عليه من القيام بسُننِ دينه وفرضه ؛ وأسترعاه إِيَّاه من حياطة بلاده ، وأوجهه من طاعته على كافة خلقه وعباده ؛ وذخره لدولته من كفيله وخيله ، ومقيم أدلة حقه وموضح سبيله ؛ السيد الأجلّ الأفضّل الذي آرتضاه الله للدبّ عن الإسلام ، وآنتضاه لنصرة إمام بعد إمام ؛ وشهر مناقبه في كلّ موقف ومقام ، وخصّه بفضائل لم تُرَ مجتمعاً للملك من ملوك الإسلام ؛ لاجرم أنّ أمير المؤمنين قد أحلّه منه محلّ الرُوح من الجسد ، والوالد من الولد ؛ وفوضّ الأمور إليه تفويض معول على يمنّ تقيته معتمد ، مبالغ في حسن الاختيار للأمة مُجتهد ؛ والله تعالى يمتّع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مُخلصاً جمع في الإيمان بين القول والعمل ؛ بكرمه .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجلّ الأفضّل عند مثوله بحضرته ، وإنهائه أمور دولته وأحوال مملكته ؛ على أمرك الذي آستحدمه في الخدمه ، وآستحققت به إفاضة الإحسان وإسباغ النعمه ؛ وأن لك في الدولتين : المُستصيريه والمُستعليه من الخدم المشكوره ، والمساعي المبروره ؛ ما يدلّ على مناصحتك وإخلاصك ، ويعبثُ على أصطناعك وآستخلاصك - أمر بكتب هذا السجلّ لك مؤكداً لأواخيك ، ومُعرباً عن رأيه الجميل فيك ؛ ومجدداً من ولايتك ، ومُجرباً لك فيها على مُستمر رسلك ومستقرّ عادتك . فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يرتبطها ، ووفّها من حقّ الاجتهاد ما يُقرّها عندك ويُدبّطها ؛ وأجعل تقوى الله تعالى عمادك ، وأطو عليها طويّتك وأعتقادك ؛ ومكّن في نفوس الأولياء بحيل رأي أمير المؤمنين فيهم ؛ وإحمّدهم لمواقفهم في الخدمه ومساعدتهم ؛ وحقّق عند كافة المُستقرّين لديك ، والواردين عليك ؛ ما يكتفون به من الأمر الشامل ،

ويعمرون به من حُسنِ النظر المتواصل؛ وأجرِ على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف، وتتكب سبيل الجور والإجحاف؛ ومهد السبل قبلك، وأحيم من أسباب الفساد ولايتك وعملك؛ وأخصص متولى الحكم والدعوة الهادية - ثبتها الله تعالى - بالإعزاز والرعاية، ووفر حظهم من الملاحظة والعناية؛ وخذ المستخدم في الخطبة العلوية باقامتها في أوقاتها، على أفضل قوانينها وواجباتها؛ معلناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يتوج فروق المنابر، ويسنف أسماع البوادي والحواضر؛ وتوفر على مائمه الأموال وأمنها، وغزرها ورخاها، وقضى بوفورها وحصولها، ودعا إلى درورها ومواصلة حموها؛ وأنظر في أمر الرجال المستخدمين معك نظراً يؤدي إلى مصلحتهم. فأعلم هذا من أمير المؤمنين، وأغبط بما أصاره الله إليه أغبط أمثالك من المخلصين، وأعتقد طاعته أعتقد من يجاريك من أهل اليقين، وأعمل بوصاياه ومراشده تحظ في الدنيا والدين؛ وطالع بالكائن منك بعد قراءة هذا السجل على كافة الناس أجمعين؛ وكتب في كذا وكذا.

وأعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه، يكتب ملطف عن الوزير، يلف كتاب الخليفة ضمنه، ويوجه به إلى حيث المقصد:



وهذه نسخة ملطف في هذا المعنى، كتبت به عن وزير في الدولة الفاطمية، يلف كتاب الخليفة طيه؛ وهو:

ينطوى هذا الأمر الوارد على الأمير، على كتاب مولانا وسيدنا الإمام الفلاني لدين الله، أمير المؤمنين؛ صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أو أبنائه المنتظرين، إن كان لا ولده - بما أصاره إليه من شرف

الإمامه، وبوأه إياه من مقام العظمة والكرامة؛ إثر انتقال الإمامِ فلانِ أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوارِ ربه . فاعتمد العملَ بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك، وتلاوته على رءوس الأَشهاد، وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد، على الرسم المعتاد؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان؛ ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك، والأمر على ما تقدم في الخلافة من التعزية بالماضي، والتهنئة بالمستقر، ونحو ذلك مما يجري مجراه .



وهذه نسخة مكتوبة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت، في شهر رجب الفرد سنة آثنتين وخمسين وسبعائة، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأورد عليه من البشائر أسنى البشر، وأسمعه من التهاني ما أنتشى حديثه بين البرايا وانتشر، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل ملكهم صالح البشر .

صدرت هذه المكتوبة إلى فلان^(١) وصرها مقدماً بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد نقر؛ تُهدى إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر، وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر؛ وتوضح لعلهم أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر، أمراء الدولة الشريفة، ضاعف الله نعمتهم؛ كانوا قد عظموا أخانا الناصر، وحكموه، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن؛ وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وأمثال الأمر في كل جليلٍ وحقيق؛ فلم يرع لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا آلتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة؛ وآتفت مع الصبيان، وأراد
القَبْض على الأمراء، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكبر والإيقاع بهم .
فلمّا تحققوا منه ذلك، آجتمعت الأمراء، وآتفت الكلمة على خَلْعِه من الملك
الشريف وإقامتنا. فخلع المشار إليه؛ وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسى
السُلْطَنَة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين
أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المُسْتَكْفِي بالله،
ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله
تعالى أحكامهم؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جارى العادة في ذلك؛
وضربت عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر، وتَسَنَّفَت الأسماعُ
وقرت العيون وأسسترت الخواطر؛ وأبتجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السعد الذي
كُتِبَ لنا من القَدَم؛ وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخذ المقرَّ حظه من هذه التهنیه، وليُدْعَ خبرها لتكون المسارُ مَعِيْدَة ومُبْدِيَة؛
ويتحقق ماله عندنا من المكانه، والمحلّ الذي زان بالإقبال الشريف زمانه؛ ويتقدّم
أمره الكريمُ بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية، ويتقدّم
أيضا بضرب البشائر وبالزينة على العادة .

وقد تجهّز إلى الجناب العالی نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطّه،
ويجهزها إلينا مُجَبَّة المجلس السامى، الأمير، الأجلّ، الكبير، العَضْد، الذُخْرَى،
النَّصِيرَى، الأوحدى، عَضْد الملوك والسلاطين، يلبغا الحموى الصالحى، أدام الله
عُلوّه، المتوجّه بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها
لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم، ويجهزها إلينا على العادة مُجَبَّة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالی صحبة المشار إليه تشریفاً شریفاً كاملاً؛ فيتقدم الجناب العالی بتسلمه منه وتبسیه ، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمترلة ، ويُعيد الأمير سيف الدين يلغا المشار إليه إلى الباب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثاني

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الدعاء إلى الدين ، وهو من أهم المهمات)
قال في "مواد البيان" : أشرف ما يُنشئه الكاتبُ الدعاءُ إلى دين الإسلام الذي أظهره الله تعالى على كلِّ دين ، وأعزّه على كره المشركين ، وأستجراً مخالفيه إليه ، وأجتذاب الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه ؛ عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، لأنه قوامُ الملك ونظامُ السلطان اللذان لا يصحان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكُتُب إلى علم التوحيد وبراهينه ، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته : ليتوسع في الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح حجته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفتح بحمد الله الذي أختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره ، وقَدَّسه وطَهَّره ؛ وجعله سبيلاً إلى رضاه وكرامته ، وطريقاً إلى الزلفى في جنته ؛ وشفيعاً لا يُقبل عملٌ عاملٍ إلا به ، وأباً لا يصلُ وأصلُ إلا منه ؛ فلا تُغفر السيئات إلا لمن أعتصم بحبله ، ولا تُقبل الحسنات إلا من أهله . وشكره تعالى على الهداية إليه ، والتوقيف عليه ؛ وزيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ، وتوره من تبيانته . وتمجيدته من تعظيم آياته ، وباهر معجزاته ؛ وحكيم صنعته ، وبديع فطرته . وتزيينه عما لا يليق بسُلْطانه ، ولا تجوز إضافته إلى عظيم شأنه . وتسيححه

عما يصفه به المُلحدون، ويَحْتَلِّقُه الجاحدون؛ والصلاة على رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته؛ وما خصه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

ثم يُدْبِعُ ذلك بالدعاء إلى الدين والحصّ عليه. وإيضاح ما في التمسك به من الرّشاد في دَارِ الْمَبْدِ وَالْمَعَاد. والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تَمْجِيسِ السَّيِّئَاتِ، ومُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وعِزِّ الدُّنْيَا وَفَوْزِ الْآخِرَةِ. والإنذار بما أوعده الله به النَّاكِبِينَ عن سبيله، العَادِلِينَ عن دَلِيلِهِ؛ من الإذلال في هذه الدار، والتَّخْلِيدِ بعد العَرْضِ عليه في النار؛ وتَصْرِيفِ الْمُخَالَفِينَ بين الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، في العاجل والمُغْبَةِ.

قال: وينبغي أن يتأني الكاتب فيما يُورِدُه من هذه الأغراض، ليقع في المواقع اللائقة به، ويَجْلُوَ الْحَجَجَ في أحسن المعارض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس. فإنه إذا وَفَّقَ لذلك، ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد، وأقر السيوف في الأعماد. ثم قال: ومن صدقت في هذا الفنّ رغبته، أيد الله تعالى غيرته، وعصّد بديته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا، فلم يُعهد أن ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين. إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر. كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم، والكفر مقهور معهم، مذلول لديهم. أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَنَصْرَتُ الرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وفي رواية «وَنَصْرَتُ أُمَّتِي» لَأَجْتَاَحَ أَهْلُ الْكُفْرِ الْإِسْلَامَ؛ ولكن الله وعد دينه أن لا يُخَذَلَ.

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتِبَ بالحثِّ على الجهاد)

قال في "موادِّ البيان" : كما أن الدين يَنْتَظِمُ بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يَنْتَظِمُ بصيانة حَوَازِئِهِ ، وما دخل في مملكته ؛ وَكَفَّ أعدائه عن تَتَقُّصِ أطرافه ، وَالتَّغْلِبِ على بلاده . ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، وأكَّد الأمر فيه وشدَّده ؛ والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخالفين إلى بعض الثُّغُور ، أو سَنِّ العَارَةِ على أهل الإسلام ، ان يَدْعُو إلى الجهاد ومُقَارَعَةِ الأعداء ؛ وَصَوْنِ حريمِ الملة ، وَحِفْظِ نظامِ الدولة .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه : على إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وَخِذْلَانِ أعدائه ؛ وإدالة الموحدين ، وإدالة الملحدين ؛ وَالصَّلَاةِ على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله ، وَذِكْرِ طَرَفِ من موافقه في الجهاد ، وَمُقَارَعَتِهِ لِشَيْعِ الإلحاد ، وتأييد الله تعالى أنصاره على أهل العناد . ثم يذكر الحادثة بنصها ، ويشرح القصة على فصها ؛ وَيَنْدُبُ من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، وَيَخاطِبُهُم بما يُرْهِفُ عَزَائِمَهُم في نُصْرَةِ الدين وَكَافَّةِ المسلمين ، وَأَتْبَاعِ سَبِيلِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، الَّذِينَ خَصَّهم اللهُ تعالى بِصِدْقِ الصَّمَائِرِ ، وَنَفَازِ البَصَائِرِ ؛ وَصِحَّةِ الدين ، وَوَثَاقَةِ اليقين ؛ فلم يكونوا ليرؤموا هرا ما إلا سهل لهم ماتوعر ، ويسر عليهم ما تعسر ؛ وسما بهم إلى ما هو أقصى منه مرعى وأبعد مدى ؛ رغبةً فيما رغبهم فيه من نُصْرَتِهِ ، وَتَعَرُّضًا لما عرَّضهم له من جَزِيلِ مَثْوِيَّتِهِ ؛ وَأَنْ يُحْضَمَهم على التمسك بعزائم الدين ، وَالْعَمَلِ على بصائر المخلصين ؛ وَأَقْتِرَاضِ ما فرض اللهُ عليهم من جِهَادِ أعدائه ، وَتَحْيِيزِ ما وعدهم به

من الإظهار بهم والإظهار عليهم؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرِينَ، ويؤدوا الحَقَّ مُحْتَسِبِينَ،
ويُقدِّمُوا رَسَلًا لَنَا كَصِين وَلَا شَاكِينَ وَلَا مُرْتَابِينَ؛ مُتَّبِعِينَ الحَقَّ حَيْثُ يَمُوقَصِدُ،
ومضارين دونه من صد عنه وَعَدَدَ؛ وَيُبالِغُ فِي تَخِيَةِ أَهْلِ البَسَالَةِ وَالتَّجْدَةِ، وَالبَّاسِ
وَالشَّدَةِ؛ وَيبعثهم على نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَلْقِهِمْ؛ وَالفوز بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ،
وَتَتَوَرُّ البصائر فِي الإِيمَانِ؛ وَفَضِيلَةِ الأَنْفِ مِنَ الضَّمِيمِ، وَالبُعْدِ مِنَ الذَّمِّ؛ إِلَى غيرِ
هذا مما يَعْدِلُ الأرواحَ وَالمُهَجَّ، وَالإِقْدَامِ عَلَى مِصَارِعِ التَّلَفِّ. فَإِنَّ المُلُوكَ المَاضِينَ -
لعلمهم أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْدُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ
إِلَى المِكَالِفِ، وَيَعْرِضُونَهُ لِلذَّابِحِ؛ الرِّغَابِ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمُ إِقْدَاءَ نَفْسِهِمْ فِي المِهَالِكِ
تَارَةً، وَيَذَكِّرُونَهُمُ الأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيُخَوِّفُونَهُمُ مِنَ الوُقُوعِ فِي المَدَلَّةِ أُخْرَى .

ثم قال : وينبغي للكاتب أن يُقدِّمَ فِي هَذِهِ الكُتُبِ مُقَدِّمَاتٍ، يَرْتَبِهَا عَلَى تَرْتِيبِ
يَهْزُ الأَرَبِيَّاتِ، وَيُسَبِّحُ العِزَّاتِ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالفوزِ بِنَصِيبِ
مِنَ الأَجْرِ.

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ المِكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمَرَّ الحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا
زَالَتِ المُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا لِيهِمْ بِالْحَثِّ عَلَى الجِهَادِ، وَالقِيَامِ بِأوامِرِهِ، وَالحِصْصِ عَلَى
مُلاقاةِ العَدُوِّ، وَالأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقد تَقَدَّمَ فِي الكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَاتِ المِكَاتِبِ
فِي أَوَّلِ هَذِهِ المِقالَةِ : أَنَّ الشَّيخَ شَهَابَ الدِّينِ مِجْمُودًا الحِلبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ"
أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ عَنِ المَلِكِ فِي أَوَاقَاتِ حَرَكَاتِ العَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثُّغُورِ، يُعَلِّمُهُمُ بِالحِرْكََةِ لِلِقَاءِ
عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ القَوْلَ فِي وَصْفِ العِزَّاتِ، وَوَقْوَةِ الهِمَمِ، وَشِدَّةِ الحِمِيَّةِ لِلدِّينِ،
وَكَثْرَةِ العِساكِرِ وَالجِيشِ، وَسُرْعَةِ الحِرْكََةِ، وَطَيِّ المِراحِلِ، وَمُعَاجَلَةِ العَدُوِّ، وَتَحْيِيلِ
أَسبابِ النَّصْرِ، وَالوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الظُّفْرِ، وَتَقْوِيَةِ القُلُوبِ مِنْهُمْ، وَبَسْطِ آمالِهِمْ،
وَحَثِّهِمْ عَلَى التَّيَقُّظِ، وَحِصْصِهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أيّين كلامٍ وأجلّه ، وأمّكِنِه وأقربِه من التّوّة والبسالة ، وأبعدِه من اللّين والرّفقة ؛ ويبالِغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى وأستنزالِ نصّره وتأييده ، والرجوع إليه في تَثْبِيَتِ الأقدام ، والأعتصامِ به في الصّبر ، والأستعانة به على العُدوّ ؛ والرّغبة إليه في خِذْلانِهِمْ ، وزلزلةِ أقدامِهِمْ ، وجعلِ الدائرة عليهم ؛ دون التصريح بسؤالِ بطلانِ حركتِهِمْ ، ورجاءِ تأخيرِهِمْ ، وأنْتَظارِ العرَضِيّاتِ في تحلّفِهِمْ ، لِمَا في ذلك من إيهامِ الضّعْفِ عن لِقائِهِمْ ، وأستشعارِ الوهنِ والخوفِ منهم ؛ وأن زيادةَ البَسْطِ وتقصّها في ذلك بحسبِ المكتوبِ إليه .

وهذه نسخةٌ مُكَاتَبَةٌ من ذلك عن السلطانِ إلى بعضِ نوابِ الثُّغُورِ ، من إنشاءِ الشيخِ شهابِ الدينِ محمودِ الحَلَبِيِّ ، أوردناها في ”حسن التوسل“ وهي :

أصدرناها ومُنَادِي النَّصْرِ قَدْ أَعْلَنَ بِيَاخِيلَ اللهُ أَرْكَبِي ، وَيَا مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ أَصْحَبِي ، وَيَا وَفُودَ الظَّفَرِ والتأييدِ أَقْرَبِي ؛ وَالْعَزَائِمُ قَدْ رَكَضَتْ عَلَى سَوَابِقِ الرِّكْضِ إِلَى الْعِدَاءِ ، وَالْهَمُّ قَدْ نَهَضَتْ إِلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ فَلَوْ كَانَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ لِأَسْتَقْرَبَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَدَى ؛ وَالسُّيُوفُ قَدْ أَنْفَتْ مِنَ الْعُمُودِ فَكَادَتْ تَنْفِرُ مِنْ قُرْبِهَا ، وَالْأَسِنَّةُ قَدْ ظَمِئَتْ إِلَى مَوَارِدِ الْقُلُوبِ فَتَشَوَّفَتْ إِلَى الْآرْتَوَاءِ مِنْ قُلُوبِهَا ؛ وَالْحِكْمَةُ قَدْ زَارَتْ كَاللُّيُوثِ إِذَا دَنَتْ فِرَائِسُهَا ، وَالْجِيَادُ قَدْ مَرِحَتْ لِمَا عَوَدَتْهَا مِنَ الْإِتْعَالِ بِمَجَامِعِ الْأَبْطَالِ فَوَارِسُهَا ؛ وَالْجِيُوشُ قَدْ كَثُرَتْ النُّجُومُ أَعْدَادُهَا ، وَسَارِبَهَا لِلْهَجُومِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ أَمْدَادُهَا ؛ وَالنَّفُوسُ قَدْ أَضْرَمَتْ الْحَمِيَّةَ لِلدِّينِ نَارَ غَضَبِهَا ، وَعَدَاهَا حَرُّ الْإِشْفَاقِ عَلَى تُغُورِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ بَرْدِ الثُّغُورِ وَطِيبِ شَنْبِهَا ؛ وَالنَّصْرُ قَدْ أَشْرَقَتْ فِي الْوُجُودِ دَلَائِلُهُ ، وَالتَّأْيِيدُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى الْوُجُوهِ مَجَالِيلُهُ ؛ وَحُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ فِي إِعْزَازِ دِينِهِ قَدْ أَنْبَأَتْ بِحُسْنِ الْمَالِ أَوَائِلُهُ ؛ وَالْأَلْسُنُ بِأَسْتِزْلَالِ

نَصَرَ اللهُ لِهَجَبِهِ ، والأدجاء بأرواح القبول أرحه ، والقلوب بعوائد لطيف الله بهذه الأمة مبهجة ، والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه ، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه ؛ والنبات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعاً ، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها و«من كان مع الله كان الله معه» ؛ وما بقي إلا طي المراحل ، والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الساحل ؛ والإحاطة بعدو الله من كل جانب ، وإنزال نفوسهم على [حكم] ^(١) الأمرين [الآخرين] : من عذاب وأصيب وهم ناصب ؛ وإحالة وجودهم إلى العدم ، وإحالة السيوف التي إن أنكرها أعناقهم فما بالعهد من قدم ؛ وأصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها ، وأبتلاؤهم من حملاتها بريج عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ؛ فيكن مترقباً طلوع طلائعها عليه ، متيقناً من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فر أدركته من ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه ؛ وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وصمها ، وجمع سوائم الرعايا من الأماكن الخوفة ولمها ؛ وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها ، فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فكأنه بالعدو وقد زال طمعه ، وزاد ظلمه ؛ ودم عفي مسيره ، وتحقق سوء منقلبه ومصيره ؛ وتبرأ منه الشيطان الذي دلأه بغروره ، وأصبح لجه موزعاً بين ذئاب القلا وضباعها وبين عقبان الجور ونسوره ؛ ثقة من وعد الله وتمسكاً منه باليقين ، وتحققاً أن الله ينصر من ينصره ^{هـ} والعاقبة للتيقن .

وهذه نسخة مرسومة في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كتبت به عند ظهور الفرج اللوسارية والشوال بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

الحَلْبِيِّ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه، لقيام النائب بالملكية قيام السلطان الذي أستتابه، وهو:

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالى، لازالت هراسمه النافذة تَبْلَغُ أهل العِصَابَةِ المحمّدية غَايَةَ الآمال، وأوامره المَطَاعَةُ تُقْضَى بكسر اللّو سارية وشين الشوال؛ أن تتقدم العساكر المنصورة بالملكية الطرابُلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة، وأدّل بسيوفهم الطائفة الكافره؛ بارتداء ملابس الجهاد، والتحلّى بمرارة الصبر على اجتلاء الحِلَاد، وأن يجيبوا داعي الدين، ويكفوا أيدي المعتدين؛ ويفوقوا سهامهم، ويجعلوا التقوى أمامهم؛ ويشرعوا رماحهم، ويحملوا سلاحهم؛ ويومضوا بروق السيوف، ويرسلوا نبال الخوف؛ ويهدموا بنيان الكفار، ويطلعوا أهلة القسي بمد الأوتار؛ ويهضموا جانب أهل العناد، ويقابلوا البحر بملء بحر من الحيادة؛ وينظروا أمواجه بأموج النصال، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال؛ ولا يهملوهم بالنهار ولا بالليل، ويعدّوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل؛ ويثوروا بمصايح الرباط في سبيل الله ظلام الدجّة؛ وأن يصابروا ويصبروا، فإذا استنفروا فلينفروا؛ ويبالغوا في الغدو والرواح ليلغوا الرعية من الأمن أمانها. فقد قال صلى الله عليه وسلم: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». ويعتمدوا على القريب المحيب، ويجهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب؛ وينافسوا في أمر الآخرة ويدعوا الدنيا، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا؛ ويشهدوا المواقف، ويبدلوا التلذذ والطارف؛ وليبرز الفارس والراجل، ويظهر الرامح والنابل؛ فإن الجهاد، سطورة الله تعالى على ذوى الفساد، ونقمة القائمة على أهل الشرك والعناد؛ وهو من القروض الواجبه، التي لم تزل سهام أصحابه صائبه؛ فواظبوا على فعله،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُئله ؛ وأطلبوا أعداء الله برأ وبجراً ، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ؛ وخدوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الرّبح الثمين ؛ ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة والمشركين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأعداء ، وهزوا أعطاف الأسيه ؛ وشتموا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ؛ واتخذوا الخيام مساكن ، وأجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ؛ وأنصبوا الألوية والأعلام ، وأطفئوا جمرة الشريعة الفاضلة للإسلام ؛ ولا تحشوا من جمعهم الآئيل إلى التفريق ، وحشدهم الذي هو عمّا قليل إن شاء الله تعالى غريق ؛ ولا تعبثوا بسفنهم البحرية ، فإن سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفهم الخشبية ، فإن مجاديفكم السيوف والرماح ؛ فأقلعوا قلوبهم ، وشئتوا جموعهم ؛ وأذهبوا الجحف والحيف ، وخاطبهم بالسنة السيف ؛ وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز نارا ، وأدعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ ونكسوا صلبهم المنصوب ، وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب ؛ وأرفعوا باليقين شك هذه المحنة ، وقتلواهم حتى لا تكون فتنة ؛ وآهروا في ذات الله طيب المنام ، وأقلوا الأقدام إلى الأقدام ؛ وأكشفوا عنكم أستار الملل والملام ، وأهتموا بما يعلى كلمة الإسلام والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتميز ، ﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّنفُ الرَّابِعُ

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فِي الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الطَّاعَةِ وَذَمِّ الْخِلَافِ)

قال في "مواد البيان": طاعة السلطان والالتقياد إليه، والرجوع إلى رأيه والاعتماد عليه، أبدئ الأسباب، في استمرار الأتساق والاستتباب؛ وهي فرض أوجبه الله تعالى. فقال: ((أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)) ولا تصح مملكة ولا تدوم دولة إلا بأمرين: أحدهما عدل السلطان، والآخر طاعة الرعية له؛ ففتى أرتفع أحدهما، فسَدَّ السَّائِسَ والمَسُوسَ. ولم تزل ملوك الأزمنة يقدمون إلى الرعايا لزوم الطاعة، والاعتصام بحبل الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعه.

قال: والرسم فيها أن تفتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين، وجمع كلمة الموحدين؛ وعاية أهوائهم إلى الاتفاق، وصيانة عصاهم عن الأتساق؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتنبيه على فضائل الطاعة، فإنها العروة الوثقى، والمعقل الذي لا يُرْفَى؛ والحِصْنُ الحصين، والكَنْفُ الأمين؛ والحِجَى الأمانع، والمَرْقَبُ الأرفع؛ وأن من حافظ عليها فاز وسلم، ورجح وغنم؛ ومن فارقها خسر وخاب، ونكب عن سبيل الصواب؛ وإيضاح مافي سبيل الطاعة من اتفاق الكلمة، وانتظام شمل الأمة؛ وشمول الخيرات، وعموم البركات؛ وعمارة البلاد، وصلاح العباد؛ وما في المشاققة من الفساد العام، العائد بانتثار النظام؛ وأنبات الحبل، وتفريق الشمل، وأجتناث الأصل؛ وطُمُوسِ الديار، وصيال الأشرار، وأتصاع الأخيار؛ وتوالى الفتن التي لا تُصِيبُ الظالم خاصة دون العادل، ولا المشاقق دون الموافق؛ وحلول التوائب المزيلة للنعم؛ وإتباع ذلك بما يجب من إعدار وإنذار، وترهيب وترغيب، وتذكير وتبصير، ووعظ وتخويف؛ وبعث العلماء

الحُصْفَاءِ ، عَلَى رَدْعِ الْجُهْلَاءِ السَّخْفَاءِ ، وَتَنْبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوَى الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَحْوِ هَذَا مَا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكُتَائِبِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مكتبات] في معنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وهي :
أما بعد ، فإن الله أفترض الطاعة وأوجبها ، وأمر بها ورغب فيها ؛ وجعلها عِصْمَةً من كل فتنه ، وضياء من كل شبهه ، وسلامة من كل هلكه ؛ وسببا للظفر بخير الدنيا والآخرة ؛ من أراد الله به خيرا وفقه لها ، وألزمه المحافظة عليها والاعتصام بحبلها ؛ فتعجل عزها وشرفها ، وسعتها وأمنها ؛ وأستحق السعادة في الدار الآخرة بها ، والمثوبة عليها .

آخر : وقد علمت ما جعل الله في الطاعة ولزومها ، والمحافظة عليها : من العز والمِنَّعةِ والأَيْدِ والقُوَّةِ والفُوزِ بخير الدنيا والآخرة [وما] في خلافتها من صُنُوفِ الخَوَافِ ، وأنواع المتألف .

آخر : وقد كانت الطاعة أتلفت بك على كل ظليل ، وأفضت بك إلى لين مهادٍ عند إقباض المضاجع ، وشفاء المشارب عند تكدر المناهل ، وأتصال أمانة عند حدوث الخواف ؛ حتى فعلت كذا وكذا .

آخر : فلم يَمْرُقْ من طاعته مَارِقٌ ، ولا فارقها مُفَارِقٌ ؛ إلا صرَّعَ الله خدَّه ، وأتَّعَسَ جدَّه ؛ وخضد شوكته ، وأكذب ظنَّه وأُمنيَّته ، وجعله لسيوف الله غرَضًا ، ولأوليائه غنِمة .

آخر : والطاعة هي العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى .

« عبد الحميد » : - فان الفتنة تشوف لأهلها بأنق منظر ، وأزبن ملبس ؛ تجر لهم أذيالها ، وتعدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمي بهم في حومات أواجها ؛ مسلمة لهم : تعدهم الكذب وضمنهم الخدع ؛ فاذا لزيمهم عضاضها ، ونفر بهم شماسها ؛ تحللت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ؛ قد سلبوا أجمل لباس دينهم ، وأستزلوا عن أحصن معاقل دنياهم : من الغناء البيبي منظره ، الجميل أثره ؛ حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيجاف في التعب ، وسوء المقلب ؛ فن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولآته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركًا لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

« ابن عبد كان » في دم الخلاف : - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، أعوره إنعامنا ، وتوه به إكرامنا ؛ وشرفه ولأؤنا ، وحسن عنده بلاؤنا ؛ وأبتينا له الأموال ، وأسئنا له الأعمال ، وأوطأنا عقبه الرجال ؛ فلم تقع النعم منه عند شاكر ، ولا الصنعة عند محتمل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خسيسته ، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه ، وآماله تقصر دونه ؛ أضراه ذلك وأبطره ، وأطغاه وأكفره ؛ فأختال زاهيا ، وأستكبر عاليا ؛ وغدر باغيا ، وشاق عاصيا ؛ وأوضع في الفتنة لنا حربا ، ولأعدائنا حربا ؛ ولمن أنحرف عنا يدا ، ولمن مال إلينا ضدا ؛ من غير سبب أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ وأن رأه أستغنى) وكقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما ورده الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السائة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سقط في يده ، وفكر في غليظ جريمه

وخيانته ، فأذاه الخوف الذي آستشعره ، والإشفاق الذي خآمره ؛ إلى أن ركب عظيما من الأمور ، وكاشف بالعصبية والغرور ؛ مكاتفا أعداء (١) ، ومواليا ذوى العداوة والشنآره ؛ وزجو بحول الله وقوته ، وإرادته ومشيتته ، وما لم يزل الله - تقديس اسمه - يجرّيه عندنا من جميل عاداته فيمن سفه الحق ، وزاغ عن القصد ؛ أن يُنسل هذا الخائن بجبايت أعماله ، ويُسلمه لقبائح أفعاله ، وأن يصرعه بأسوا مصارع أمثاله ؛ فإن أحدا لم يحمّد النعمة ، إلا آستدعى النقمه ؛ ولم يدع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولاً لا يُبدل رسمه ولا يُحوّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإن أمراً لو خلّص من فلتات الخطأ وخطوات الملا ، بفضيلة رأي ولطافة بصر بالأمور ، كنت أحجى بذلك دون أهل زمانك ، للذى جرّت لك عليه تصاريف التبّع ، وتعرّضت لك به وجوه العبر ؛ ولما آستقبلت من موارد أمور نفسك ، وتعبت من مصادر أمور غيرك ؛ ولكن الله إذا أراد أمراً جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عللا ؛ فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء ما تُفيدّه التجريبه ؛ ومن أسباب السلامة الأتنبأه بالعبر ، والأستدلال بما كان على ما يكون . وأنت أمرؤ جرّت لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من الحجج ، عرفت بها مالك وعليك ؛ فان تأخذ بها ، عرفت كيف تسلك مسالكه ، وإن تدع الأخذ بذلك ، تدعه على علم . وقد رأيت الذى آتقادت لك به النعمة ، وهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحقّ التى رفع الله بها ذكرك ، وأحسن عليها عقباك وذنرك ؛ فلم تمض بك فى طاعتهم رتبته ، إلا قربك الله بها فى الخير عقبه ، ولا تبدل من نفسك نصحا ، إلا أوجب

(٢) الملا هنا معناه الظن والطمع .

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .

لك به مُجْحَاً ، ولم تَقْتَأُ تَوَاتِرَ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسنِ طاعتك ، حَتَّى طُلْتَ بها على من طاووك ، وَفَضَلْتَ بها من فاضلك ؛ وجريت ممدوداً عِنَانَكَ إِلَى قُصُوى غايات أملك ، فأصبحت قريعَ المسامين ، بعد خليفة الله أمير المؤمنين ، وخيرته من خلقه ، بعد ذوى الفضل من أهل بيته ؛ حَتَّى مَالَكَ من رِجَالِ العرب نظير في منزلة ، ولا نديد في حال ولا رتبة ؛ بل هم فيك رجلا ن : إما رَاهِبٌ منك ، وإما راعب فيك . قلت : وهذا الصنف من المكاتب السلطانية مستمر الكتابة إلى زماننا . فما زالت الملوك يكتبون إلى من يَخَيَّلُونَ منه خَلَعَ الطاعة من التواب ومن في معنائهم ، ويحثونهم على لزوم الطاعة ، ويحذرونهم المخالفة والخروج عن الجماعة .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملك سيسى عند كسرة التتار ، بعد قيامه معهم في المصافف ، ومساعدته إياهم ، وهو :
بصره الله برُشيدِه ، وأراه مواقع غيبه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده ، وأسأله بسلامة نفسه عن روعته السيوف الإسلامية بفقده .

صدرت تعرفه أنه قد تحقق ما كان من أمر العدو الذي دلّاه بغروره ، وحمله التمسك بخداعه على مجانبه الصواب في أموره ؛ وأنهم استنجدوا بكل طائفه ، وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدة يَشْتَرُونَ الخداعة بالموادعة ، وَيُسِرُّون المصارمة في المسالمة ؛ وَيُظْهِرُونَ في الظاهر امورا ، [ويُدَبِّرُونَ في الباطن أمورا] ^(١) وَيَعِدُّونَ كُلَّ طائفة من أعداء الدين ويمنونهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ؛ وَكُنَّا بِمَكْرِهِم عاملين ، وعلى معاجلتهم عاملين ؛ وحين

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

ثَيْنٍ مَرَادُهُمْ، وَتَكَلَّلَ أَحْتِشَادُهُمْ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ، وَأَسْتَجْرَرْنَا هُمْ لِيَقْرَبُوا فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ، وَيَبْعَدُوا فِي الْهَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ؛ وَصَدَمْنَا هُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قِبَلٌ، وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْجَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ: وَهَلْ يَعِصُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ؟ فَحَصَرْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ الْفِضَاءِ الْمَتَّسِعِ، وَضَايَقْنَا هُمْ كَمَا قَدْ رُوِيَ وَمَرَّقْنَا هُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ؛ وَأَنْزَلْنَا هُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رُوِيَ وَأَكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ؛ وَبَعَثْنَا جِيُوشَنَا الْمَنْصُورَةَ تَحَطَّفَتْهُمْ رِمَاحُهَا، وَتَلَقَّفَتْهُمْ صَفَاحُهَا؛ وَبَيَّدَهُمْ فِي الْقَلَوَاتِ رُعْبَهَا، وَفَرَّقَهُمْ فِي الْقِفَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضْرِبُهَا؛ وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السِّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ، وَيُخَيِّلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ لِلنَّيِّتِ إِلَيْهَا رُجُوعٌ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عَيَانًا، وَتَحَقَّقَ مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ زَيِّدَهُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا.

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ مَا زَالَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ، وَأَنْهُمْ مَا أَقْدَمُوا إِلَّا وَنَصَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ؛ وَمَا سَاقَتْهُمْ الْأَطَاعُ فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا إِلَى حُتُوفِهِمْ، وَلَا عَادَمْتُهُمْ قَطُّ فِي وَقْعَةٍ إِلَّا أَحَادٌ يُخْبِرُ عَنْ مِصَارِعِ أُلُوفِهِمْ؛ وَلَقَدْ أَضَاعَ الْحَزْمَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْتَدِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ [بِطَاعَتِنَا] الَّتِي كَانَ فِي مِهَادِ أَمْنِهَا، وَوَهَادِ يُمْنِهَا؛ وَحِمَايَةِ عَفْوِهَا، وَبَرْدِ رَأْفَتِهَا الَّتِي كَدَّرَهَا بِالْخَالِفَةِ بَعْدَ صَفْوِهَا؛ يَصُونُ رِعَايَاهُ بِالْبِطَاعَةِ عَنِ الْقَتْلِ وَالْإِسَارِ، وَيُنَجِّي أَهْلَ مِلَّتِهِ [بِالْحَذَرِ عَنِ الْحَرَكَاتِ] الَّتِي مَا نَهَضُوا إِلَيْهَا إِلَّا وَجَرُوا ذُبُولَ الْخَسَارِ؛ وَلَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لِسُيُوفِنَا الَّتِي كَانَ مِنْ سَطَوَاتِهَا فِي أَمَانٍ، وَوَثِقَ بِمَا ضَمِنَ لَهُ النَّتَارُ مِنْ نَصْرِهِ وَقَدْ رَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ [أَمْرٌ] ذَلِكَ الضَّمَانُ؛ وَجَرَّ لِنَفْسِهِ بِمَوْلَاةِ النَّتَارِ عَنَاءً كَانَ عَنْهُ فِي غِنَى، وَأَوْقَعَ رُوحَهُ بِمِظَاةِ الْمَغْلِ فِي حَوْمَةِ السِّيُوفِ الَّتِي تَحَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨) .

أولياءه من هنا ومن هنا؛ وأقتحم بنفسه موارد هلاكٍ سلبت رداء الأمن عن منكبيه، وأغترَّ هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأتى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثبات الأسود الضارية والليوث الكاسره؟ لقد أعترض بين السهم والهدف بحجره، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وطفره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها؛ ومجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا تؤيسهم من عفونا ما استقاموا، ونسلك فيهم حكم من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا: تزحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسئ ملازمة ربة الخنف خناقه، ولا يرجع يورد نفسه في موارد الهلاك وهل يرجع إلى الموت من ذاقه؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبذل السيوف الإسلامية مصوبه؛ ويبادر إلى الطاعة قبل أن يئدها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل؛ ويعجل بجمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحمل منها إلينا، ويسلم مفتح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السبب في تمزق شمله، وتفرق أهله، وقلع بيته من أصله؛ وهدم كائسه؛ وأبتدال نفسه ونفائسه؛ وأسترقاق حرمة، وأستخدام أولاده قبل خدمه؛ وأستقلاع قلاعه، وإحراق ربوعه ورباعه؛ وتعجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه. ومن لغازان أن يجاب إلى مثل ذلك، أو يُسمح له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليتفع بما أهدت جيوشنا المؤيدة في يده من الخيل والحول، ويعيش

في الأيمن ببعض ما نسمح له به ومنّ للعور بالحوّل ؛ والسيوف الآن مُصْغِيَةٌ إلّا جوابه لتُكفّف إن أبصر سبيل الرشاد، أو نَتَوَضَّعْ بَرءوسِ حُمَاهِ وَكِنَايَةِ عَنِ الإِعْمَادِ إن أصرَّ على العباد؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلى من نكث العهد من المخالفين)

قال في "موادّ البيان" : إذا نقض معاهد عهده ، أو نفّض من شروط الهدنة يده ؛ فالرسم أن يصدر ما يكتب به بالحمد لله تعالى على موهبتته في إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفّله من النصر على الباغين ، ووعده به أهل العدل من الإدالة والتّمكين ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ؛ وإيراد طرف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تتخرط في هذا النظام ، وتليق بهذا النمط من الكلام ؛ ثم يتبع ذلك بمقدمة تدلّ على متانة البصائر في الدين ، وثاقة العقائد في إذالة الحادّين ؛ ومضياء العزائم في مجاهدة المعتدين ، والاستطالة على المعاندين ؛ مع ما تضمّنه الله تعالى من نصره وإظفاره ، ووعده به من تأييده وإقراره ؛ وسهله من إهواء الأهوية إليه ، وجمع الكلمة عليه ؛ بما خوله من بأسٍ وشده ، وعديد وعدة . وما يليق بذلك مما يُعرب به عن علو السلطان ، ووفور الإخوان ؛ واتّساع القوة والأيد ، وصدق العزم والجد . ثم يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غزّوهم في عُقر دارهم ، وتسرّيدهم بالغارات المباشرة براً وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولاً لمساءلتهم ، وأمثالاً لأمر الله تعالى في مسألتهم . ويأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، والمعاقب المستترعة من أيديهم ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِزَّاتِ مُضْطَّرَمَةٌ مُتَوَقَّدَةٌ ، وَتِلْكَ السِّيُوفُ مُشْحَذَةٌ مُهَنْدَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
 قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَقَضَ مِنَ الدِّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مُوجِفَةٌ وَرَاءَ
 هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحَقُ أَنْجَبَتْ بِالْهَضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِقْلَاعِ
 وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْإِسْتِنَابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْدَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ
 بِالْإِنذَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنِ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أُجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُئِيَ الْأَمْرُ
 فِيهِ عَلَى مَا يَبْسُطُ الْهَيْبَةَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّزْوَلِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ
 فِي ذَلِكَ بِأَخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَاظَ
 فِيهَا بِطَلْقِ بَعْضِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهَا مَزَاحِمَةٌ بِالْأَدُولِ وَالْمَلِكِ ، وَحُجَّجٌ
 تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كتبت به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي بالديار المصرية ،
 إلى بهرام النصراني الأرميني الذي كان أستورزه ، ثم خرج عليه رضوان بن ولخشي ،
 أرغاما للدين ، لتحكّم نصراني في أهل الملة ، وولي الوزارة مكانه ، فقهر هاربا
 إلى الشام ناقضا للعهد ، وكتب إلى الحافظ يطلب أهله وجماعته من الأرمين الذين
 كانوا معه في جملة جنود الديار المصرية ، مظهرا للطاعة والرغبة إلى التّخلى عن الدنيا ،
 والانتقطاع في بعض الديرة لتتعبد مكرّا وخديعة ؛ فكتب له بذلك جوابا عن كتابه
 الوارد منه . ونص ما كتب إليه :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَمُ ، الْمُؤَيَّدُ ،
 الْمَنْصُورُ ؛ عَنِ الْخِلَافَةِ وَشَمْسِهَا ، تَأْجُ الْمَمْلُوكَةِ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأَمْرَاءِ ، شَيْخِ الدَّوْلَةِ

وعمادها؛ دُوَّ الْمُجَدِّينَ ، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه ، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وَسَّعَتِ الْقَوْلَ فِيهِ وَبَسَطَتْهُ ، وَتَفَسَّحَتْ فِيهَا أوردته منه وذَكَرْتَهُ ؛ مِمَّا خَوَاهُ وَمَحْصُولُهُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَالْوَلَاءِ وَالْمَشَايِعَةِ ؛ وَالْأَعْتِرَافِ بِعَمِّ الدَّوْلَةِ عَلَيْكَ ، وَالْإِقْرَارِ بِإِحْسَانِهَا إِلَيْكَ ؛ فَلَعَمْرُؤُا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ هَذَا الَّذِي يَلِيْقُ بِكَ وَيَحْسُنُ مِنْكَ ، وَيَحْسُنُ أَنْ يَرِدَ عَنْكَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ لَكَ ؛ وَقَدْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ أَسْلَفَتَكَ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ قَدِيمًا ، وَتَقَلَّتْكَ فِي دَرَجَةِ التَّنْوِيهِ حَدِيثًا ؛ حَتَّى رَفَعْتُكَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَبَلَّغْتُكَ مَا لَمْ تَسْمُ إِلَيْهِ هِمَّةٌ طَالِبٌ ؛ وَأَوْطَأَتِ الرَّجَالَ عَقَبَكَ ، وَجَعَلْتَ جَمِيعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ تَبَعَكَ ؛ مِمَّا أَغْنَى اعْتِرَافُكَ بِهِ عَنِ الْإِطَالَةِ بِشَرْحِهِ ، وَالْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ .

وأما ما ذَكَرْتَهُ مِمَّا كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعْطَاكَ التَّوْتِيَةَ عَلَيْهِ ، فَأَجَابَكَ مِنْهُ إِلَى مَا رَغِبْتَ فِيهِ ، فَاسْتَقَرَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ فِي مَعْنَاهُ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَزَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَنِيَّةِ وَعَلَانِيَةٍ ؛ وَاعْتِقَادُهُ أَنْ لَا يَرْجِعَ عَنْهُ ، وَلَا يُغَيِّرُ مَا أَحْكَمَهُ مِنْهُ ؛ وَإِنَّمَا حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ هَذَا الْمُرَادِ أَنْ كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ غَضِبُوا لِمَلَّتْهُمْ ، وَأَمْتَعَضُوا مِمَّا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً فِي شَرِيعَتِهِمْ ؛ وَنَفَرَتْ نَفُوسُهُمْ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَيْهِ قَادِحٌ فِي دِينِهِمْ ، وَمُضَاعِفٌ لِأَمَلِهِمْ ؛ وَأَنَّهُ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ ، وَوِزْرٌ لَا يُجَاوِزُ وَلَا يُصْفَحُ [عنه] حَتَّى إِنْ أَهْلَ الْمَشْرِقِ أَخَذُوا فِي ذَلِكَ وَأَعْطَوْا ، وَعَزَمُوا عَلَى مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِمَّا صَرَفَهُ اللَّهُ وَكَفَى مَثَوْتَهُ وَالْأَشْتِقَالَ بِهِ .

وأما ما أَلْتَمَسْتَهُ مِنْ تَسْيِيرِ مَنْ بِالْبَابِ مِنْ طَائِفَتِكَ إِلَيْكَ ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسُوغُ وَلَا يُمْكِنُ فَعْلُهُ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُؤَمَّرَ بِهِ لَمَنَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ فَلَمْ يَفْسَحُوا فِيهِ . وَالْآنَ فَلَنْ

يَحْلُو حَالِكٌ مِنْ أَحَدِ قَسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُتَفَصِّلٍ عَنْهَا ،
فَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُحْيِيكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوصَ ، أَوْ إِنْجِمْ ، أَوْ أَسْيُوطَ ؛
فَأَيُّهَا أَحْتَرْتُ وَلَآكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَى أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ
مَعَكَ عَلَى خَمْسِينَ أَوْ سِتِينَ فَارِسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِينَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَى عَادَاتِهِمْ ،
وَرُسُومِهِمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عَيْدَ الدَّوْلَةِ وَمَتَقَلِّبِينَ فِي فَضْلِهَا ،
وَأَكْثَرَهُمْ مَتَوْلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى الْقَضِيَّةِ الَّتِي مَا زِلْتَ تَذْكُرُ رَغْبَتَكَ
فِيهَا وَإِيثَارَكَ لَهَا : مِنَ التَّخَلِّيِ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدَّيْرَةِ ، وَالْإِقْطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛
فَإِنْ كُنْتَ مَقِيمًا عَلَى ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَىِّ الضَّيَاعِ سِتَّتَ يَكُونُ فِيهَا دَيْرٌ تَقِيمُ فِيهِ
وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَّيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِينًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا
دَائِمًا مُخَلَّدًا ؛ وَتَجْرَى مَجْرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَنُ
إِلَيْهِ وَتَسْتَحْكِمُ نَفْسَكَ بِهِ . وَإِنْ أَبَيْتَ الْقَسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ . وَلَمْ يُرِضَكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ،
وَلَا رَغِبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقَّقْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَافَّةً مِنْهُمْ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَقُولُ
بِالشَّهَادَتَيْنِ : مِنْ قَاصِّ وَدَانٍ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّفِقُونَ
عَلَى الْقَصْدِ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوِكَ ؛ وَهُوَ عَمَلٌ دِينِيٌّ ، لَا يُرِيثُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛
فَتَأْمَلْ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لِعَدَمِ وَقُوعِ
الْهُدَنِ الْمُرْتَبِ عَلَيْهِمَا هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ ؛ فَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى ذَلِكَ مَشَاءَ الْكَاتِبِ
عَلَى الْقَاعَةِ الْقَدِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلَعَ الطاعة)

قال في "موادّ البيان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كليّ عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تفتد هذه الكتب إلى من تُرجى إناسته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإياس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاّشه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ؛ ويدكره ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ؛ وأنه لا ينفّر سربها بجمّدها وكفرها ، ويوحش ربعاً بإهمال حمدها وشكرها ؛ ويربطها بحسن الطاعة ، ويستترهنها بالتأدب في التباعه ؛ ولا يجتزئ الوبال إلى نفسه بالخروج عن العضمه ، في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم النقمه . ويبصره بعاقبته ومن يليه من ذوى الجند بما يقتضى ربّ الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ؛ وأن يسلبهم ملبس الظلّ الظليل ، وأن يعطّلهم من حلّي الرأى الجميل ، ويتدرّع في أثناء ذلك بشعار التفاق ، ويتسم بميسم الشقاق ؛ ويتعجّل إزاجه من داره ، وبعده من قراره ؛ وهدم ماشيده الإخلاص من ذكره ، وتقويض ما رفعتّه الطاعة من قدره ؛ ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً مجتهداً ، وبعد أن كان مرامياً عن السدة مرماً بيدها ؛ ويضبع

مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأَفِيضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مَرَاتِقِ
السِّيَادَةِ ، وَمِنَ الرَّغَائِبِ فِي إِحْلَاقِهِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِمَنْ يَزِينُ لَهُ عَاجِلَ الْآجِلِ ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِمُجْدَعِ الْبَاطِلِ ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ ، وَيُبْعِدُ أَشْخَاصَهُمْ عَنِ نَظَرِهِ ؛
نَاطِرًا فِي عَاقِبَتِهِ ، وَحَارِسًا مُهَجَّتَهُ ؛ وَرَاغِبًا فِي حَقْنِ دَمِهِ ، وَصِيَانَةً حَرَمِهِ ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفِنَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْرَزُهُ ، وَالْكَفِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعْزِهِ ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَةَ الْعُنُودِ
مَنَازِعًا ، وَمُؤَاصَلَةَ بِالْحُجُودِ مَقَاطِعًا ؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِبًا ، وَمَطْعَمَ النِّعْمَةِ بِضِيَاعِهِ
حَقِّهَا مَغْرِبًا ؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ مُمْسِكٌ ، وَفِي الْأَمْرِ مُسْتَدْرِكٌ ؛ لِأَنَّ يَهْبَ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لِفَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سِرْبَهُ ، وَكَدَّرَ شِرْبَهُ ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْتِقُ وَيُعَاقِدُ ، وَيَتَوَكَّدُ وَيُعَاهِدُ ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمَلَأُ قَوَادِهِ أَمْنًا ،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا ؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتِثَالِ الْمَرَاسِمِ ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ ؛
وَلَا يَسْتَمْتِرْ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمَطَاوَلَةِ ، وَيَقْتَصِرْ عَلَى الْمَغَايِظَةِ وَالْمَهَاطَلَةِ .

ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا : وَقَدْ قَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ هَذَا إِلَيْكَ نَائِبًا عَنْهُ فِي أَسْتِصْلَاحِكَ ،
وَقَائِدًا يَقُودُكَ إِلَى طَرِيقِ نَجَاحِكَ ؛ قَبْلَ تَجْرِيدِ مَوَاضِيهِ ، وَإِحْلَاقِ مُسْتَأْنَفِهِ فِي الْحَرْبِ
بِمَاضِيهِ ؛ وَخِيُولِهِ مُجَادِبِ الْأَعْنَةِ ، وَدَوَائِلِهِ مُشْرَعَةِ الْأَسْنَةِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي عُقْرِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكُمَا ، وَأَنْتَرَاعِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَعْطَاكُمَا ؛ لِتَذُوقِ مَرَارَةِ الْخَالَفَةِ ،
وَتَزِينِهَا بِجَلَاوَةِ الْمَوَاقِفِ ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاكِمًا ، وَلَا تُكُنْ لَهَا ظَالِمًا ؛
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وَإِنْ كَانَتِ الْمَكْتُوبَةُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةٌ بِخُلُوعِ الطَّاعَةِ ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِقَالََةَ
فَأَقْبَلَ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالنَّكَايَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَاجَعَ الْعَصِيَانَ ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تَفْتَحَ .

بِحَمْدِ اللَّهِ جَاعِلِ الْعَاقِبَةِ لِلتَّقِيْنَ ، وَالْعُدْوَانِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ؛ وَالْعِزَّةِ لِحُرِّيَّتِهِ ، وَالنَّدَاةِ لِحُرِّيَّتِهِ ؛
وَالْإِظْهَارِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْحَسَارِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَدَائِرَةِ السُّوءِ عَلَى الْخَالِعِيْنَ طَاعَةً
حَلْفَانَهُ ، الْقَائِمِيْنَ بِحُجَّتِهِ . ثمَّ يُقَالُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا رَأَى تَخَوُّلَهُ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ
أَمَالِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَفْعَالِهِ ؛ وَتَسْدِيدِ مَرَامِيهِ ، وَهَدَايَةِ مَسَاعِيهِ ؛ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ،
وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ؛ بِإِدَالَةِ مُوَالِيَتِهِ ، وَإِذَالَةِ مُعَادِيَتِهِ ؛ وَمُعَوْنَتِهِ عَلَى مَا وُلَّاهُ . وَتَمَكِّيْنَهُ
مِنْ نَوَاهٍ ؛ وَيَسَالَهُ الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

ثمَّ يُؤْتَى بِمَقْدَمَةِ تَدْلِ عَلَى جَمِيلِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ ، وَذَمِيمِ مَغْيَةِ المَعْصِيَةِ ؛ يَبْسُطُ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ، لِتَكُونَ فِرَاشًا لِمَا يَتْلُوهَا . ثمَّ يُقَالُ بَعْدَهَا : وَإِنَّمَا يَجْمَلُ ذَلِكَ
أَهْلَ الْغَرَارَةِ الَّذِينَ لَمْ يُلُوكُوا شُكَاثِمَ التَّجَارِبِ ، وَلَمْ يُمَارِسُوا ضَرَامِ النُّوَابِ ؛
وَأَنْتَ فَقَدْ تَدَوَّقْتَ مِنْ كِرَاهَةِ المَعْصِيَةِ وَمِرَارَتِهَا ، وَعُدُوبَةِ الطَّاعَةِ وَحَلَاوَتِهَا ؛
مَا يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَظَكَ وَأَدَبَكَ ، وَقَوْمَكَ وَهَدَبَكَ ؛ وَكَشَفَ لَكَ
عَنْ عَاقِبَتِهَا ، وَعَرَّفَكَ بِغَايَتِهَا ؛ فَدَعَتَكَ الطَّاعَةَ إِلَيْهَا بِمَا أَسْبَغَتْهُ عَلَيْكَ مِنْ لِبَاسِ
شَرَفِهَا وَمَجْدِهَا ، وَأَسْتَحْدَمَتْهُ لَكَ مِنْ أَنْصَارِ إِقْبَالِهَا وَسَعْدِهَا ؛ وَتَهَنَّتَ المَعْصِيَةَ عَنْهَا
بِمَبْلُوتِهِ مِنْ نَوَائِبِهَا وَصَنَائِعِهَا ، وَجَرَّبَتْهُ مِنْ مَرْمِضِ مَرَامِيهَا وَمَوَاقِعِهَا ، لِأَنَّهَا أَقَلَّتْ
عَدَدَكَ ، وَمَزَّقَتْ مُطْرَفَكَ وَمُتَلَدَكَ ؛ حَتَّى تَدَارَكَكَ مِنْ عَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَا أَنْبَتَكَ
بَعْدَ الْحَصْدِ ، وَرَأَشَكَ بَعْدَ الْحِصِّ ؛ وَأَتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْكَ حَيَّتَ إِلَى أَتْبَاعِ
الضَّلَالَةِ الَّذِينَ غَرُّوكَ ، وَمِلَّتَ إِلَى أَشْيَاعِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ اسْتَهْوَوْكَ ؛ فَاصْغَيْتَ إِلَى أَقْوَالِهِمْ
الَّتِي ظَاهَرَهَا نُصْحٌ وَبَاطِنُهَا غِشٌّ ، وَأَرَائِهِمْ الَّتِي مَوَارِدُهَا صَلَاحٌ وَمَصَادِرُهَا فِسَادٌ ؛
وَمِلَّتَ إِلَى مَعَاوِدَةِ الشُّشْقَاقِ وَالْأَرْتِكَاسِ فِي الْعِصْيَانِ ، وَمُقَابَلَةِ التَّعْمِيِّ بِالْكَفْرَانِ ؛
فَقَدَّمَ كِتَابَهُ إِلَيْكَ مُدَّكْرًا ، وَمَنَحَكَ خُطَابَهُ مُعْذِرًا مُنْذِرًا ؛ لِيَعْرِفَكَ حَظَّكَ ، وَيَهْدِيَكَ
رُشْدَكَ ؛ [وَيُدَلِّكَ] عَلَى الْأَحْسَنِ لَكَ فِي مَبْدِئِكَ وَعَاقِبَتِكَ ، وَيُحَدِّدَكَ مِنْ مَرَاجِعَةِ

ماقارفته ؛ وأن تَزَلَّ عن المنزلة التي رَقَّكَ إليها ، وتُجَدِّبَ رباعَكَ من النعمة التي أرتَعَكَ فيها ، وتُتَخَلَّ عن مرابع الدَّعةِ التي أوردَكَ عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنًا ، وَكُنْ إليها مُحْسِنًا ؛ وَاَتَنَفَّعْ بِمِرَاشِدِ أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بِخِلَافِكَ عَنْ أمره نَصِيكَ من الدنيا والدِّينِ ؛ فَارْجِعْ إليه مُسْتَرْغَمًا فَإِنَّهُ يَقْتَدِي بالله في الرحمة للحسينين ، مادام مُؤَثَّرًا لِرَبِّ النعمة لديك ، وإِقْرَارِهَا عَلَيْكَ . فاعلم هذا وأَعْمَلْ بِهِ إن شاء الله تعالى .

قال : وإن كانت المكتوبة إلى رَعِيَّةٍ قد نَحَرَجْتَ عن الطاعة كَتَبَ إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَقَفَّكُمْ اللهُ لَطَاعَتِهِ ، وَعَصَمَكُمْ من معصيته ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُدْبِلِي الإنسانُ بَغْرُورَهُ ، وَيَقِيمُ لَهُ الضلال في صورة الهدى بِبَهْتَانِهِ وَزُورِهِ ؛ مُسْتَخْفًا لَطَائِشِي الألباب ، وَمُسْتَرِيلاً للأقدام عن مَوْقِفِ الصواب ؛ مُحْسِنًا بِكَيْدِهِ لاعتقاد الأباطيل ، مُزَيِّنًا بَغِيَّةِ أَتْبَاعِ الأضاليل ، صارفاً بِمَكْرِهِ عن سواء السبيل ؛ مُصَوِّراً لِلْحَقِّ في صورة المين ، مُغْطِياً على القلوب بِسِغَافِ الرِّينِ ؛ وَالْحَازِمُ اليَقْظُ من تحرُّزٍ من أَشْرَاكِه وَحَبَائِلِهِ ، وَتَحْفَظُ من تخاليله وغوائله ؛ وَأَتَّهَمُ هَوَاجِسِ فِكْرِهِ ، وَأَسْتَرَابَ بوساوس صدره ؛ وَعَرَضَ مَا يَعْرُضُ له على عَقْلِهِ ، وَكَرَّرَ فِيهِ النَظْرَ مُتَحَرِّزًا من مَكْرِ الشَّيْطَانِ وَخَتْلِهِ ؛ فَإِنَّ أَلْفَاهُ عَادِلًا عن الهوى ، مَائِلًا إلى التقوى ؛ بَرِيثًا من خُدَعِ الشَّيْطَانِ ، آمِنًا من عوادي الأَفْتِنَانِ ؛ أَمْضَاهُ وَإِتِّقًا بِسَلَامَةِ مَغْبِتِهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَشُمُولِ الأَمْنِ في أولاهُ وَأَنْحَرَاهُ .

وَأَتَّهَمِي إلى أمير المؤمنين أَن الشَّيْطَانَ المَزِيدَ اسْتَحْفَفَ أَحْلَامَ جَمَاعَةِ من جُهَالِكُمْ ، وَأَسْتَوْلَى على أَفْهَامِ عِدَّةٍ من أَرَادِكُمْ ؛ وَحَسَّنَ لَهُمْ شَقَّ عَصَا الإِسْلَامِ ، وَمَعْصِيَةَ الإِمَامِ ؛ وَمَفَارِقَةَ الجَمَاعَةِ ، وَالْأَسْلَاحَ من الطاعة ؛ التي فرضها اللهُ تعالى على الجمهور ، وجعلها نِظَامَ الأمور ؛ فقال جَلَّ قَائِلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وَأَخْتِيَارَ الفُرْقَةِ التي نَهَى اللهُ عنها . فقال :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ومجانبة الأئمة التي عدّها في جلائل نعيمه ، فقال مُتَسْتَبِهَاً عَلَى عِبَادِهِ : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وسوّى لهم التعرّى من آداب الدين ، والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين ؛ فنبذوا ما بأيديهم من بيعته ، وسلبوا من ظلّ دعوته ؛ وركبوا من ذلك أوعر المراكب ، وسلكوا أحسن المسارب ؛ وسعوا في البلاد بالفساد ، وقاموا في وجه الحقّ بالعناد ، واستخفوا بحمل الآثام ، وبسطوا أيديهم إلى الدماء الحرام ، وشنوا الغارات على أهل الإسلام .

وقد علمت أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار ، فقد استنزل في هذه الدار سُخْطَ الجبار ، وتبوأ في الآخرة مقعده من النار ؛ وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض والصلوات ، وتأديّة العبادات والزكّوات ، وعقد العقود والمناكحات ؛ لأن هذه الأحوال إنما تُرضى وتُرفع ، وتُحجّب وتُسمع ؛ إذا تولّاها أمير المؤمنين ، أو من يستخلفه من صلحاء المسلمين ؛ فأما إذا استبددتم فيها بأنفسكم ، وأقنديم في تأديتها بناكب عن سبيله ، مجانبٍ لدليله ؛ فقد نسكتم في الضلالة ، وتطابقت على الجهالة ؛ وكلُّ راضٍ منكم بذلك ، عاصٍ لله ورسوله ولإمام .

ولما أطلع أمير المؤمنين على ما ذهبتم إليه بسوء الاختيار ، وركبتموه من مرآكب الاعتذار ؛ لم ير أن يُلغِيكم ويهجركم ، ويُغفلكم ولا يُبصركم ؛ فقدم مكاتبتكم مُعذراً منذراً ، ومخوفاً مُحذراً ؛ وبدأكم بوعظه مُشفقاً عليكم من زلّة القدم ، وموقف الندم ؛ وجاذباً لكم عن مصالّ الغواية ، إلى مرآشد الهداية ؛ وافتتحكم باللفظ الأحسن ، والقول الألين ؛ وهداكم إلى السبيل الأوضح ، والمتجر الأربح ؛ واختار أن يهديكم الله تعالى إلى طريق الرشاد ، ويدلّكم على مقاصد السداد ؛ ويعيدكم إلى الأولى ،

وَيَبْعَتَكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ ، وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَعْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ، وترجعوا إلى إجماع المسلمين ، وما آتفت عليه
كلمة إخوانكم في الدين ؛ وتبّعوا مذاهب أهل السلامة ، وأولى الاستقامة ؛ فإن وقع
ما ألقاه إليكم الموقّع الذي قدّره فيكم ، وسألتكم الإقالة ، فالتوّبه تنفعكم ، والعفو
يسعكم ؛ وإن تماديت في غيكم وباطلكم ، وغروركم وجهلكم ؛ تقدّمت إليكم جيوش
أمير المؤمنين مُقَوِّمَه ، ومن عصاتكم متقممه ؛ وذلك مقام لا يميز فيه البريء من السقيم ،
ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالى يقول : ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ؟ وأي فتنة أشد من طاعة الشيطان ، ومعصية السلطان ؛ وشقّ
العصا ، وإراقة الدّما ، وإثارة الدهما ؟ فاتّقوا الله وأرجعوا ، وتأملوا وارجعوا ؛
وتبصّروا واستبصّروا ؛ وقد أوضح لكم أمير المؤمنين المحجّه ، وبدأكم بالمحجّه ؛ فأوجِدوه
السبيل إلى ما ينويه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حقن الدماء ، وصيانة الحرّيم ،
وتحصين الأموال ، وشمول الأمن والأمان ؛ وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفّقكم الله
تعالى [إليه] : من إجابة دعائه والعمل برأيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من نرحج عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغني كتابك تذكر أنك تحمّل المرد على الجرد ؛ فسترد عليك جنود الله
المقربون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على
الفحول ؛ كأنها الوعول ، تنحوض الوحول ؛ طوال السبال ، تختضب بالجربال ، رجال
هم الرجال ؛ بين راح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ؛ ولا يتكلون عن الأصحاب .
قد ضروا بضرب الهام ، وأعتادوا الكتر والإقدام ، ليسوا بدوى هينة ولا إجمام ؛
يقضون بالسيوف ، ويخالطون الرخوف ، في أعتهم الخوف ؛ يزارون زبير الأسود ،

ويَبُونُ وَثُوبُ الْفُهودِ؛ ليس فيهم إلا شاكٌ مُحْتَبِكٌ، في الحَرْبِ مُجْرَبٌ؛ قد شَرِبَ على نَاجِدِ الحَرْبِ وأَكَلَ، ذُو شِقْشِقَةٍ وَكَلْكَلٍ؛ كَأَمَّا أَشْرِبَ وَجْهَهُ تَقِيعَ الحِنَاءِ؛ قد رَمَى الحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَدَّتْهُ وَأَلْفَهَا؛ فهي أُمُّهُ وَهُوَ آبَنُهَا، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُ بِقُرْبِهَا؛ فهو بِطَلْبِهَا أَرَبٌ، وعلى أهلِها حَرْبٌ؛ لا يروعه ما يروعه، ولا يزيغه ما يزيغ العُمرَ الجَبَانَ؛ حين يَسْتَدُّ الوَعْيَ، وَتَخْطُرُ القَنَا؛ وَتُقْلَصُ الشِّفَاهُ، وَتُسْفَرُ الكِمَاهُ؛ فعند ذلك تُسَالِمُكَ المُردُّ، وَتُكْشَفُ عن الجُرْدِ. فَتَاهِبُ لَدُنكَ أَهْبَتَكَ، وَأَخْطُبُ لَهْ خِطْبَتَكَ، من المَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِيَةِ؛ ثم كِيدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُتَطَرُونُ؛ فإِذَا اسْتَأْرَكَ الجَمُوعُ، وَحَشَدُكَ الخِيُولَ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسَرَّبُ خِيَلًا؛ إِلَّا وَثِقْنَا بِأَنْ سَمِدْنَا اللهُ من مَلَائِكَتِهِ، وَيزِيدُنَا من نَصْرِهِ؛ بما قد جَرَّتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛ وَنَحْنُ نَجْرِي من ذَلِكَ على نِقَمَاتٍ من اللهُ وَنَكَالُ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ في المَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ في المِوَاطِنِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الحَقُّ وَالبَاطِلُ؛ فَأَبْشِرْنَا بِمَا سَاءَكَ صَخْرًا، وَمَشَّاكَ تُقَادُ كَمَا يُقَادُ الجَمَلُ المَخْشُوشُ .



ومن أحسن الكتب المكتوبة في هذا الباب ما كتب به قوام الدين (يحيى بن زيادة) وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببغداد إلى (طغرل) مُقَطِّعِ البَصْرَةِ بأمر الخليفة له في ذلك، وقد بلغه أنه نَزَحَ عنها، قاصدًا بعض الأطراف، مفارقًا لطاعة الخليفة، عند ما طَلِبَ من ديوانه شَيْءٌ من المال، فأوجب ذلك أنْتِئَاءَهُ عن عَزْمِهِ وَتَوَجُّهَهُ إلى بَغْدَادٍ داخِلًا تحت الطاعة، ومُقابَلَتَهُ بالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بالقبول. وهذه نسخته:

أصدرت هذه الخدمة إلى الجنب الكريم، الأميري، الاسفَهَسَلَارِيَّ، الأجلِّيَّ، الكيبريَّ، السَيِّدِيَّ، العِمَادِيَّ، الرُّكْنِيَّ، الظَّهيريَّ، المُحْتَرَمِيَّ، العزِّيَّ، الجَمَالِيَّ، أمير الجيوش؛ أطل الله بقاءه، وأدام علوه ونعمته؛ وأنا أوقع الأقوال المتواترة،

والأموال المتناصرة، مُسْتَعْرِبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها فى المنام، وتخطبني بها أَضْعَافُ أَحْلَامٍ؛ فلو لا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بمُتَجَدِّدَاتِهَا إلا مَنْ حَنَّكَهُ التَّجَارِبُ؛ لم أَصَدِّقْ هذه الحركة المباركة التى وقعت منه بسعادته؛ فإنى ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَادٍ، وعورة على كماله؛ وإلا فمن أين يدخل الزَّلُّ على ذلك الرَّأْيِ السَّيِّدِ، والعقل الرَّاجِحِ، والفكر الصَّائِبِ؟ الذى يُعَلِّمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُتِيرُ، وَيُعَرِّفُ النُّجُومَ كَيْفَ تُتَسِيرُ، ويهدى غيره فى المُشْكَلاتِ إلى صواب التَّدْبِيرِ. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ المُمْكِنِ وتَلَاْفِيهِ؛ بالانحراف عن الهوى إلى الرَّأْيِ الصَّادِقِ، والرُّجُوعِ عن تَأْوِيلِ النفسِ إلى مراجعة الفِكرِ النَّاصِحِ؛ فالعُودُ إلى الحقِّ أَوْلَى مِنَ التَّمَادِي عَلَى الباطلِ، وَأَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مَا أَقُولُ بِأَذْنٍ وَاَعِيَهُ وَقَلْبٌ حَاضِرٌ؛ وَحُوشَى أَنْ تَسْتَدْفِعَهُ الكَوادِبُ عن تَدْبِيرِ الحَقَائِقِ، وَعِرْفَانِ النَّصَائِحِ؛ فَإِنَّ مِنَ القَوْلِ مَا بُرْهَانُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ مِنْ غَيْرِهِ .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الذى أَحْوَجَ إلى هذه الحَالِ القَبِيحَةِ السُّمَّعَةِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ فى هذه الحَرَكَةِ؛ وَأَحْتِمَالِ هذه المَشَاقِّ، والأَنْزَعاجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ هَلْ هُوَ لِشَيْءٍ جَرَّتْ العَادَةُ بِمِثْلِهِ، وبمطالبة ديوانه بما كان يندفع الأمر ببعضه؟ كما جَرَّتْ عَادَةُ الدَّوَابِّ، وَخِدْمُ السُّلْطَانِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَمَدٌ - أدام الله نِعْمَتَهُ - بأولِ خَاطِرِهِ، وَبَادئِ رَأْيِهِ فى هذه العَجَلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَثْبِيتٍ وَلَا رَوِيَّةٍ. لِمَ لَا رَاجِعَ فِكرَهُ الكَرِيمَ، وَيَقُولَ لِنَفْسِهِ: إلى أين أَمْضِي؟ وَلِمَنْ أَخْدُمُ؟ وَعَلَى أَيِّ بَابِ أَقِفُ؟ وَتَحْتَ أَيِّ لِوَاءٍ أَسِيرُ؟ وَبِأَيِّ غَبَارٍ أَكْتَحِلُ؟ وَفَضْلَ مَنْ أَطْلُبُ؟ وَعَلَى حُكْمِ مَنْ أُنزِلُ؟ بَعْدَ أَنْ رُبِّيتُ فى عَرَصَةِ الخِلَافَةِ، وَدَارِ النُّبُوَّةِ، وَحِضْنِ المَمْلَكَةِ؛ أَنشأني نعيمها صغيرا، وَقَدَّمَنِي كَبِيرًا؛ وَكُنْتُ مأمُورًا بِفِعْلِنِي أَمِيرًا، وَطَارَ صَبْتِي فى الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا؛ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ أَقْصَدَهُ، وَأَمْثَلُ مِنْ كُلِّ

مَنْ أَرْجُوهُ وَأَسْتَجِدُّهُ؛ أَفَأَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَهْدِمُ مَا بَنَى الْإِنْعَامُ عِنْدِي فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ؟ ! هَذَا هُوَ الْمَكْرُوهُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي تَعَوَّذَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حِينَ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ" وَمَنْ يَكُونُ حَضِيضَ خِلَافَةٍ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ تَابِعَ إِمَارَةٍ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَا هَجَمَ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا لَكُنْتُ . ثُمَّ لِمَ لَا يَلْتَفِتُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، الَّتِي صَحِبْتَهُ بِوَفَائِهَا، وَيَسْمَعُ خُطَابَهَا بِلِسَانِ حَالِهَا تَمَّ؟ تَقُولُ لَهُ: يَا عِمَادَ الدِّينِ! أَمَا هَذِهِ خِيَامُ الْإِنْعَامِ عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ الْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ تَحْتَكُ؟ أَمَا هَذِهِ مَلَابِسُهُ الْفَاخِرَةُ مُفَاضَةً عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ مَمَالِكُهُ حَافَةٌ بِكَ؟ أَلَيْسَ الْأَصْطِنَاعُ رَفَعَ قَدْرَكَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي تُثْقَلُ عَلَيْكَ بَعْضُ الْأَنْحِطَاتِ عَنْهَا، وَوَهَبَ لَكَ الْهِمَّةَ الَّتِي أَبَيْتَ الضَّيْمَ بِهَا؟ فَخُوشِيَتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ فَلَهَا، وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ فَضَعَّفَ عَنْ حَمْلِهَا؛ فَيَالَيْتَ شِعْرَى! مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهَا؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَقُولُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ وَلَا أَعُقِبُ: وَلَوْ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَقَوَعَ كُلُّ مَحْذُورٍ، وَحُلُولُ كُلِّ مَكْرُوهٍ؛ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْذُورًا، فَكَيْفَ بظنِّ مَرَجِّمٍ، وَقَوْلِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّمٍ؛ وَرَأْيِ فِطِيرٍ غَيْرِ مُخْتَمِرٍ . وَلَقَدْ كَانَ أَسْتِسْلَامُهُ لِمَالِكِ الرَّقِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْمَدَ فِي الْعُقُبَى؛ وَاقْعَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ حَيْثُ وَقَعَ . وَالْآنَ فَالْوَقْتُ ضَاقَ فِي إِصْدَارِ هَذِهِ الْمَكَاتِبِ، عَنْ اسْتِقْصَاءِ الْعِتَابِ وَالْمُحَاقَقَةِ؛ وَإِيْرَادِ كُلِّ مَا تَلَزِمُ بِهِ الْحُجَّةُ، لِكِنِّي أَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْجَمَلَةِ:

إِنِّي أَخَافُ عَلَى سَدِيدِ ذَلِكَ الرَّأْيِ إِجَابَةَ دَاعِي الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَبَّاحَ مِنْ أَوْسَعِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَحُوشَى كَلَامُهُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ .

وَالثَّانِي اسْتِشْعَارُهُ بِسَعَادَتِهِ مِنْ بَادِرَتِهِ، وَأَسْتِيْحَاشُهُ مِنْ عَجَلَتِهِ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَدْقِ مَكَايِدِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا تُؤْمِنُ مِنَ الْخَوْفِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ الْمَأْمُونِ،

وَتَسْحَرُ الْعَقْلَ بِالتَّحْيِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصْفُو لَهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا التَّوَعُّعُ إِذَا عَرَّضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشِجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلَلُ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ اللَّازِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكِبَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَّضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْأَسْتِشْعَارَ ، فَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخِنَاسِ ، إِلَّا فِي صُدُورِ النَّاسِ ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي الْمُدْنِبُ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا الْمُسِيءُ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لِاسْمِيَّ إِذَا أَتَبَعَ الذَّنْبَ بِالْأَسْتِقَالَةِ وَالْأَسْتِغْفَارِ ، وَالْأَعْتَادِ وَالْإِقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوُهَا ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمُهُ عَنْهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْخِيفَةَ ، تَغْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُجْرَجَ سَوْءَ الظَّنِّ وَالْأَسْتِشْعَارَ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مَثَلَهُ مِنْ خُلَصَانِ الْمَالِكِ لَا يُسْمَحُ بِهِ ، وَلَا يُسْغَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

والثالث الاتقباض والحياء . فانه رُبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : بَأَى وَجْهٍ أَلْقَى مُوَلَايَ ؟ وَبَأَى عَيْنٍ أَبْصَرَ مُوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةَ ؟ رَبَّانِي وَأَنْسَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِأَلِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ النَّحِيْزَةِ ، وَالْمَيْلِ مَعَ خَوَائِدِ الطَّبْعِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْأَعْتَادِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي الْبَلَّاجِ وَالْإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَلِصِيصٍ مِنْ خَوَاصِهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

«بَأَى عَيْنٍ تَلْقَانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟» فَقَالَ : «بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاضِحِ الْمِعَاصِي» . وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أَدْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَنْابَ . وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي فَرْطَ الْأَسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ خَافَ بِأَدْرَةِ مَوْلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطَفَ

(١) فِي الْأَصْلِ "بَل" وَلَا مَعْنَى لَهَا .

عليه برحمته؟ وليس هذا بديع، ولا من الصَّفحِ ببعيد. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجمع ضمان البصرة عشر معشار ذلك .

والرابع إصغائه - والعياذ بالله - إلى قول من لا ينصحه، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لمة الناقد، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقدما قيل: «صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحدرها عليه، وأحدره منها؛ ويسره لليسرى .

وبعد ذلك فأنا أنصفه من نفسي، وأقول الحق: إن نفساً رباًها خليفة الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همماً باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحمل الهوان، ولا تقر على الأبدال؛ فغالبا ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عبدان، ولكني أفرد عنه بالسِّن والتجريب؛ وطريقي هو بسعادته يعرفها، وإنني لأدحر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولي، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحتي ومقصده، فإني أوجب ذلك له على نفسي، وأراه من واجبات خدام مالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا .

وقد علم الله تعالى أني قد أوصحت من عُدري، وأحسن المتأب عنه بسعادته، مالو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه؛ ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام واجبه؛ فإن أمر

أَنْ أَتَوَّلَى وَسَاطَتَهُ فَأَنَا أَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي مَرَّاضِيهِ ، وَتَمَشِيَةِ أَمْرِهِ أَكْثَرِمِمَّا فِي نَفْسِهِ .
وإن آخِثَارَ بِسَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرِي وَسِيْطُهُ وَسَفِيْرِهِ ، فِعِيْن مَنْ يَخْتَارُهُ : لِيَكُونَ
حَدِيْثُهُ مَعَهُ . وَقَدْ أَسْلَفْتُ مِنْ وَظَائِفِ إِحْسَانِ الْمَنَابِ أَنْتِي تَنْجَزْتُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ أَمَانًا
مُتَوَجِّجًا بِالْقَلَمِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ ، عَلَيَّ نَفْسَهُ الْكَرِيْمَةَ وَمَالَهُ وَأَوْلَادِهِ - وَالْأَمَانَ الْمَذْكُورَ
طَيَّ كِتَابِي هَذَا - مَقْرُورًا بِجَنَاتِمِ أَمَانٍ ثَانٍ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ بِسَعَادَتِهِ جَوَابَ
ذَلِكَ . إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ إِلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيْمَةَ ؛ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ
إِلَّا وَهُوَ مُقَابِلُ التَّجَاعِ الشَّرِيْفِ ، مُلْقِيًا نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكِهَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ لَهَا ،
وَالطَّفُ بِهَا ، وَأَشْفَقُ عَلَيْهَا مِنْهَا ؛ تَالِيًا مَا حَكَاهُ الْقِرْعَانُ الْحَمِيدُ عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّهُ يَرَى -
بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيْقِهِ - كُلُّ مَا يُجِبُّ ، وَيَأْمَنُ كُلُّ مَا يَحْذَرُ . وَأَنَا أَسْتَسْرِعُ وَصُورَهُ
عَنْ أَسْتِعْرَاضِ مُهِمَّاتِهِ ، وَلِرَأْيِهِ كَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : فَإِنْ أَتَقَفَتِ الْمَكَاتِبَةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِي زَمَانِنَا ، رَاعِي الْكَاتِبُ فِيهِ صُورَةَ
الْحَالِ ، وَجَرَى فِي ذَلِكَ عَلَيَّ مَا يَلَائِمُ حَالَهُ ، وَيُنَاسِبُ مَا هُوَ فِيهِ ؛ مَعَ النَّظَرِ فِي كَلَامِ
مَنْ سَبَقَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَالنَّسْجِ عَلَيَّ مِنْوَالِ الْحَمِيدِ ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِالْمُحْسِنِ فِي إِيرَادِهِ
وَإِصْدَارِهِ .

الصَّنْفُ السَّابِعُ

(الْكُتُبُ فِي الْفُتُوْحَاتِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ ،

وَأَسْتِرْجَاعِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ ، وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَيَّ الْمُدُنِ)

وَأَصْلُهَا مِنْ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَدُخُولِ الْأَبْوَابِ . كَأَنَّ الْمَدِيْنَةَ أَوْ الْحِصْنَ كَانَ مُقْفَلًا

مُتَمَتِّعًا بِالْأَغْلَاقِ عَلَيَّ قَاصِدِهِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ فَيَدْخُلُ .

قال في "مواد البيان" : وهو من أعظم المكتاتب خطراً، وأجلها قدراً؛ لأشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتأييد، وما يتر فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكتاب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ، ويُجعل نصب عيون المتصفحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفو الحليم ، الغفور الرحيم ، العليم الحكيم ؛ ذى البرهان الأمين والفضل الجسيم ، والقوة المتين والعقاب الأليم ؛ مُبِيدِ الظالمين ، ومُبِيرِ القاسطين ؛ ومؤيدِ العادلين ، وجاعلِ العاقبة للمتقين ؛ المُهْلِ إِمَهالاً وإنذاراً ، والمُعاقِبِ تنبيهاً وإذكاراً ؛ الذى لا يُنجى منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مَطْلَبٌ ؛ وَكَيْفَ يَعْتَصِمُ منه وهو أقرب من جبل الوريد ، وله على كل لافظٍ رقيبٌ وَعَيْدٌ ؟ . والصلاة على رسوله الأمين ، الذى حتم به النبيين ؛ وَفَضَّلَهُ على المرسلين ، وأيده بأوليائه الثابتين ؛ الذين قاموا فى نُصْرَتِهِ ، وإِعْزَازِ رَأْيَتِهِ ؛ المَقَامِ الذى فَازُوا فيه بِالْحَصْلِ ، فاستولوا به على قِصَبَاتِ الْفَضْلِ ؛ فشرَكهم معه فى الوصف والثناء ، فقال جَلَّ قَائِلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُوتى بِمُقَدِّمَةٍ تشتمل على التحدُّثِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فى شُحْدِ الْعِزَائِمِ لِنُصْرَتِهِ ، وتثبيت الأقدام فى لِقَاءِ عَدُوِّهِ ومجاهدته ؛ وإِنْجَازِهِ وَعَدَهُ فى الإِعْزَازِ والإِظْهَارِ ، وَالِإِظْفَارِ ؛ وَالْأَسْتَبْشَارِ بِمَوْجِعِ النِّعْمَةِ فى الفَتْحِ الجليل ، والإِسَادَةِ بِإِبْقَاءِ هَذَا الْأَثَرِ الجَمِيلِ . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مُقَارَبَةِ الْعَدُوِّ وَمُدَانَاتِهِ ، وَبَثِّ الطَّلَائِعِ لتنفيدِ السَّرَايَا فى مَبَادِي مَلَاقَاتِهِ ؛ وما أَفْضَى إليه الأمر فى التَّقَابِلِ

والمؤابَه ، والتواشج في المطاعنة والمضاربه ؛ وذكر مواقف الشجعان في الكفاح
والمجاهده ، والذَّبَّ والمجالدَه ؛ وثبوت الأقدام ، والحدود بالنفوس ، وأشدتداد الأيدي ؛
وقوة الشكائم ، وأستصحاب العزائم ؛ وتفخيم أمر العدو : بوصفه بكثرة الرجال
والأجناد ، والقوة والأستعداد : لأن توقع الظفر بمن هذه صفتُه أعظم خطراً ، وأوقع
في النفوس أثراً .

ثم يذكر مجال بين الفريقين من قراع ومصاع ، ومضاربة ودفاع ؛ ومصاولة
ومناضله ، ومناهدة ومكافهه ؛ وحماية ومناخه ، وثبات ومصاففه ؛ ومقاومة ومواقفه ،
ومحادعة ومطامعه ؛ وينعت المواقب والكائب ، والخيل والأسلحة ؛ والجرحى
والمجذلين ، والأسرى والمقتلين . وأستعمال التشبيهات الفائقة ، والأستعارات الرائقة ؛
وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل ، وبريق صفحات المناصل ؛
وإعمال المقاصل في القمم ، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياجي الظلم ؛
وينعت الدماء المنبعثة من الجراح ، على متون الرماح والصفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تكامل النصر ودلائل الظفر ، وما أنجلت عنه
الحرب : من قتل من قتل وأسر من أسر ، وهزيمة من هزم ؛ وما فاز به الرجال
من الأسلاب والأموال ، والذواب والرجال ؛ وما جرت عليه الحال من أنفال العدو
عند المقاتلة ، أو أسر العدو وإن أسر ، أو اعتصامه بمقل لا يمحصنه ؛ أو امتناعه بحيث
يحتاج إلى منازله باستنزاله قسراً ؛ أو حيازة المعقل الذي كان بيده ، وما أعتمد فيه :
من حُسن السير ، وتحفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة ؛ أو رغبتَه
في المسالمة ، وسؤاله في المهادنه ؛ لخوف أظله ، وهلع أحتله ؛ وما تردد من رسائل ،
وتقرر من شروط وعقود ؛ وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم ، وأقتضاه
صواب الرأي .

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع؛ ذكر اتفاق الحزبين^(١)، واتخاذ الكلمة، وشمول النعمة .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة، حذرًا من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتديبر، وتسديد وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عدده، وتتم حيلته؛ فأطلع منه على ذلك، فبادره مقللاً لكيده ومكره، مذكراً له وبال أمره؛ شرح الحال على نصحها وما انتهى إليه آخرها .

قال : وقد يقع من هذه الأمور ما لا يحسب، وسبيل جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويحتم الكتاب بحمد الله القاضى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذاله؛ الذى يستدرج بحلمه إمهالاً؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إمهالاً؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أوائل المقالة الرابعة من الكتاب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها؛ وأن ما وقع في كتاب المهلب ابن أبى صفرة، من كتابه إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج، على عظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه :

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تقطع مواد نعيمه عن خلقه حتى تقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعدونا كذا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا؛ ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله . ﴿ قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "آساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَأَتَمَّا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِيحَازِ ، لَكُونَهُ مِنَ التَّابِعِ إِلَى الْمَتَّبِعِ ؛ إِذِ الْحَجَّاجُ كَانَ هُوَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْعِرَاقِ وَمَا وَالَاهُ الْعَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، عَلَى شِدَّةِ سَطْوَتِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ مَعَ كَوْنِ الْأَدَبِ فِي مَكَاتِبِ الْمَرْعُوسِ الرَّئِيسِ الْإِيثَانَ بِقَلِيلِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْمَقْصِدِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَغْلٌ لِلرَّئِيسِ بِطُولِ الْكَلَامِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَعَاقِلِهِمْ وَالْأَسْتِيَاءِ عَلَى بِلَادِ الْبَغَاةِ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ فِي الْكِتَابَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ مَجَالَ الْكَاتِبِ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ أَوْسَعُ ، مِنْ حَيْثُ عِزَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَظُهُورُ دِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الحمد لله مُدَبِّلِ الْحَقِّ وَمُنِيرِهِ ، وَمُذِلِّ الْبَاطِلِ وَمُبِيرِهِ ؛ مُؤَيِّدِ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ الْإِنجَازِ ، وَمَتَمِّمِ وَعْدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بَوْشِيكَ الْإِنجَازِ ؛ وَأَتَمِّدُ كُلَّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضَ كُلِّ شَرِّعٍ وَأَجْتَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْأَلَامِعِ ، وَظَلَّمَهُ الْمَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاجَ الْمُنِيرِ ، وَالْبَشِيرَ النَّذِيرِ ؛ فَأَوْضَعَ مَنَاهِجَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهَ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعِصْمِ دِينِهِ ؛ وَتَمَرَّ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَنْ نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنْدَهُ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَتَعَلَّتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقِبَائِلِ الْمَهَامِ (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاة أمره، ووقفه لاتباع سنة رسوله وأقتفاء أثره، وأعانه على تمكين الدين، وتوهمين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين و] ^(١) أنهضه بالمرامة عن الملة، والمجامة عن الحوزة، وإعزاز أهل الإيمان، وإذلال حزب الكفران؛ ويسأله الصلاة على خيرته أئمتي؛ وصفوته المنتصي؛ مجد أفضل من ذب وكافح، وجاهد وناخ؛ وحى الذمار؛ وغزا الكفار؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع، ومجته المدافع؛ وسهمه الصارد، وناصره المعاضد؛ فارس الوقائع، ومفترق الجماع؛ ^(٢) مبيد الأقران، ومبيد الشجعان؛ وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإأس والجان.

وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها؛ ويتهادى ^(٣) طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولى الباطل والإفك؛ والهجوم عليهم في عقردارهم، وأجنتات أصلهم والحد في دمارهم؛ واستزاهم من معاقلهم، وتشريدهم عن منازلهم؛ وتعميض نواظرهم الشوس [وإلباسهم لباس البوس] لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزه، ومحمود الإلحاد وعمره؛ وعلمولة المسلمين، وأنخفاض دولة ^(٤) المشركين؛ ووضوح [محجة] الحق ومجته، وصدوع برهانه وآيته.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الفلانيين المشركين إلى دسنت خلافته، ومقر إمامته؛ بعد أن غزاهم براً وبحراً، وشردهم سهلاً ووعراً، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠).

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها.

(٣) كذا هنا، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباسها".

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١).

من عواقب كفرهم مُرًا ؛ و فرَّق جماعهم التي تُطبَّق سهوب الفِضَاءِ [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها المهامة حزنا وسملا ، و مرَّق كآبهم التي تُلحِق الوهاد بالنجاد ، و تختطف
الأبصار ببوارق الأغماد] ^(١) وتجعل رعود سنايكها في السماء ، و سبي الدَّرَارِي
والأطفال ، و أسر البطاريق والأقيال ، و أفتح المعاقل والأعمال ، و حاز الأسلاب
والأموال ؛ و استولى من الحصون على حصن كذا و حصن كذا ؛ و محامها رسوم الشرك
وعفاها ، و أثبت سنن التوحيد بها وأمضاها ؛ و غم أولياء أمير المؤمنين ، و متطوعة
المسلمين [من الغنائم] ما أقرَّ العيون ، و حقق الظنون ؛ و انفصلوا وقد زادت بصائرهم
نفاذا في الدين ، و سرائرهم إخلاصا في طاعة أمير المؤمنين ؛ بما أولاهم الله من النصر
و الإظهار ، و الإعزاز و الإظهار ؛ و وصح للشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان ،
و أناهم إياه من الهوان ؛ أنهم على مضلة من النى و العمى ، و منجاة من الرشد و الهدى ؛
فصرعوا إلى أمير المؤمنين في السلم و الموادعة ، و تجملوا بدلا بدلوه [نفاديا] ^(٢) من الكفاح
و المقارعة ؛ فأجابهم إلى ذلك متوكلا على الله تعالى ، و أمثالا لقوله إذ يقول :
﴿وَأِنْ جَنَّحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ و عاقد طاغيتهم
على كتاب هُدنة كتبه له ، و أقره في يده ؛ حجة بضمونه .

أشرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من الخُصيين ،
و تعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام و المسلمين ؛ فيحسن ظنك ،
و تقر عينك ؛ و تشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله ، المعتد بطوله ؛ و تتلو كتاب

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع " وبعده " .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كافة من قبلك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلال عدوهم وتوهمته ، فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، وإما فتح لما استولى عليه البُغاة من المسلمين .

فأما فتح بلاد الكُفْر فكان سبيلهم فيه أن يُصدّر الكتاب بحمد الله تعالى على علو دين الإسلام ورفعته ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم ، والصراف المستقيم ؛ ويذكر ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم من جهاد الكُفْر . ثم على إقامة الخلفاء في الأرض حفظاً للرعيه ، وحيطة للبريه ، وصونا للبيضة ؛ ويخص خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عدده ، ووفور مدده ؛ ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشدناد في الله تعالى ، والقيام في نصرة دينه ؛ ثم تذكر الملحمة وما كان من الوقعة والنحام القتال ، وما أنجحت عنه الملحمة من النصرة على عدو الدين وخذلانه ، والإمكان منه ، وقتل من قتل منهم ، وأسر من أسر ، وتفريق شملهم ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطاعيتهم بهلاك عدوهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القدس الشريف ، وإنقاذه من يد الكُفْر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحد بكل جاحد،
 غني التوفيق عن رأي كل رائد؛ موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد؛
 مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقدا، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وأرد؛
 متعدّد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي [حكم القول] بعزم^(١)
 لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]^(٢)
 أنواع إلى المراقب وأنوارا إلى المساجد؛ وبعوث رعيه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب
 وخيالا إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح
 هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بجزء للأقلام فيه سبح
 طويل، وأطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل؛ وبشري للخواطر في شرحها مآرب،
 ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب؛ والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرأفة
 به دوام لا يقال معه: هذا مضي؛ وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
 وأستبقت عقائد أهله على أيّين بصائرهما؛ وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط،
 وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط؛ وكان الدين غريبا فهو
 الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه؛ وأمر الحق وكان
 مستضعفا، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا؛ وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك
 راغمة، فأدجحت السيوف إلى الآجال وهي نائمة؛ وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لأبن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)

”غنيا بالتوفيق“ .

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية عمرة ٢٢٩٤

على كلِّ دين ، وأستطارت له أنوارُ أبانت أن الصَّباحَ عندها حيانَ الحين ؛ وأستردَّ المسلمونُ ترائماً كان عنهم أيقاً ، وظفروا يقظةً بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النَّأي طارِقاً ؛ وأستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ؛ وتلاققت على الصَّخرةِ قلوبهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرةً [قلوبهم] كما تُسنى بالماء غلهم .

ولما قَدِمَ الدِّينَ عليها عَرَفَ منها سويداءَ قلبه ، وهنَّ كفوها الحجرُ الأسودُ بيتَ عِصْمَتِها من الكافرِ بحرِّه ؛ وكان الخادمُ لا يسعی سعيه إلا لهذه العُظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاءَ هذه النعمى ؛ ولا يناجز من يستمطئه في حرِّه ، ولا يعاتب بأطراف القنأ من يتماذى في عتبه ؛ إلا لتكون الكلمةُ مجموعاً ، والدعوةُ إلى سامعها مرفوعة ؛ فتكون كلمةُ الله هي العُليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأذنى من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربما سلقته فأنضح قلوبها بالأحتمار ، وكانت الخواطرُ ربما غلت عليه مرَّاجلها فأطفأها بالأحتمال والأصطبار ؛ ومن طلبَ خطيراً خاطر ، ومن رامَ صفةً راجحةً تجاسر ، ومن سَمَّا لأنَّ يجلى عمرةً غامر ؛ وإلا فإن القعودَ يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعفُ بأيديها مهز القوائم فتقضها ؛ هذا إلى كون القعود لا يقضى فرضَ الله في الجهاد ، ولا يرعى به حقُّ الله في العباد ؛ ولا يوفى به واجبُ التقليد الذي تطوَّقه الخادمُ من أئمةٍ قضوا بالحقِّ وبه كانوا يعدلون ، وخلفاءُ الله كانوا في مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لأجرم أنهم أوثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ؛ وبقيتهم الشريفه ، وطلعتهم المنيفه ، وعنوان صحيفه فضلهم لا عدم سواد العليم وبياض الصحيفه ؛ فما غابوا

(١) كذا فيما تقدم أيضاً (ج ٦ ص ٤٩٧) وفي رفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجين" .

(٢) الزيادة عن رفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غُضُّوا لَمَّا نَظَرُوا؛ بَلِ وَصَلَهُمُ الْأَجْرِمَا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطِرُوهُ
 الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَنَقُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمُضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ
 جُنُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَبَقَتْ بِهِ جُيُوبُهَا؛ وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا،
 وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بَلِ إِنْ أَبَدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ
 بَأَنَّ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا تُكِنُّهُ أَغْشَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرُ لَا تُوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكِتَابِ الْخَلَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَقَقًا، وَطَارَتْ
 فِرْقُهُ فَرَقًا؛ وَفَلَّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصَا، وَصُدِعَتْ حَصَاةُهَا وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَاحِصًا؛
 وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عِقُوبَةٌ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ
 لِصَاحِبِ يَدَيْهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضِبَتْ عَيْنُهُ
 وَكَانَتْ [عُيُونٌ] السُّيُوفِ دُونَهَا كَسِيفَهُ؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقِظَتُهُ تَرْيِيقُ نَظْفِ
 الْكَرَى مِنَ الْجُفُونِ، وَجُدِعَتْ أُنُوفُ رِمَاحِهِ وَطَلَمًا كَانَتْ شَاخِجَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِقَةً
 بِالْمُنُونِ؛ وَأُصْحَبَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الطَّاهِرَةَ وَكَانَتْ الطَّامِثِ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْوَاحِدَ
 وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُؤْتِ الشَّرْكَ مَهْدُومَهُ [وَيُؤَبُّ الْكُفْرَ مَهْتُومَهُ] وَطَوَائِفَهُ ^(٢)
 الْمُحَامِيَةَ، مُجْتَمِعَةً عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَةِ، وَشُجْعَانِهِ الْمُتَوَافِيَةَ، مُدْعِنَةً لِبَدَلِ الْمَطَامِعِ
 الْوَافِيَةَ؛ لَا يَرَوْنَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَهْمَ عُسْرِهِ، وَلَا فِي فَنَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَهْمَ نُصْرِهِ؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ
 عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَقَلَّ يَنْتَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي
 أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه الله بمداركه، وأُنجده بملائكته، فكسرهم كسرةً مابعدها جبر، وصرعهم صرعةً لا يتعش بعدها بمشيئة الله كُفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فيلوا بنارٍ من السلاح ونالوه أيضا بنار] ^(١) فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى صارت كالعراجين، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فأختلسه، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بُعد المسافة فأترسه، وكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا؛ وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا؛ وأسر الملك وبيده أوثق وثاقه، وأكد وصله بالدين وعلاقته؛ وهو صليب الصلوت، وقائد أهل الجبروت؛ وما دهموا قط بأمرٍ إلا وقام بين دهماهم ينسط لهم بآعه، ويحرضهم وكان مدّ اليدين في هذه الدفعة ودأعه؛ لاجرم أنهم يهافت على ناره فرأشهم، ويجمع في ظل ظلامه خشائهم؛ ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا ينون عليه أشد عقده وأوثقه، ويعدون سورا تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سرانهم، وذهبت دهاهم [ولم يقلب منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليا يوم الخلدان] ^(٢) بالأحتيال؛ فنجأ ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف؛

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية "قماً" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذَه اللهُ تعالى بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لموعده؛ فكان لعديتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرؤية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا؛ الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها] ^(١) المستضاء بانوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كلها] ^(١) أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن؛ وكل هذه ذوات معاقل ومعاقير، وبحار وجزائر، وجوامع ومنتائر، وجموع وعساكر؛ يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها؛ ويحصده منها كفرا ويزرع إيمانا، ويحط من منتارجوامعها صلبانا ويرفع آذانا؛ ويبدل المذايح منتائر والكائس مساجد، ويؤي بعد أهل الصلبان أهل القرآن للدب عن دين الله مقاعد . ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بحار ومجورور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النسخ في الصور . ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد؛ وظنوا أنها من الله ما نعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم؛ فلما نازها الخادم رأى بلدا كبلاد، وجمعا كيوم التناد؛ وعزائم قد تالبت وتالفت على الموت فزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فراول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولحج وعرة غريقة؛ وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأولى مفهوم من المقام . أنظر ما كتبه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعْرَجٌ، ولخَيْلٍ فيها مُتَوَجِّحٌ؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرب منها؛
 وضرب خيمته بحيث يناله السّلاح بأطرافه، ويُرَاحمه السُّور بأكفاه؛ وقابلها
 ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجرها ثم ناجرها؛ فضمها صمّةً
 أرقتب بعدها الفتح، وصدع أهلها فإذا هم لا يبصرون - على عبودية الخلد - عن عتيق
 الصّبح؛ فراسلوه ببذل قطيعة إلى مده، وقصدوا نظرة من شدّة وانتظاراً لنجده؛
 فعرفهم الخلد في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول؛ وقدم المنجنيقات التي تتولى
 عقوبات الحصون عصيها وحبائلها، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تُفارقها سهامها
 ولا يفارق سهامها نصالها؛ فصاحت السُّور بأكفاه فإذا سهمها في شأيا شرفاتها سواك،
 وقدم النّصر نسرًا من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء؛
 فشجّ مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها [صمّ أعلاجها] ^(١) ورفع منار عجاجها؛ فأخلى
 السُّور من السيّارة، والحرب من النّظاره؛ فأمكن النّقاب، أن يسفر للحرب النّقاب،
 وأن يعيد الحجر إلى سيرته [الأولى] ^(١) من التراب؛ فتقدم إلى الصّخر فضع سرده
 بأنياب معوله، وحلّ عقده بضربه الأخرق الدالّ على لطفة أمّله، وأسمع الصّخرة
 الشريفة حنينه وأستغاثته إلى أن كادت ترقّ لمقبله؛ وتبرأ بعض الحجارة من
 بعض، وأخذ الحراب عليها مومّقا فلنّ تبرح الأرض، وفتح في السُّور بابا سدّ من
 نجاتهم أبوابا، وأخذ يتقب في حجره فقال عنده الكافر: (يَالَيْتِي كُنْتُ تَرَابًا) فينثذ
 يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله
 وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمأم أمرهم؛ ابن بارزان سائلا أن يؤخذ
 البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسّطوة؛ وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذلّ

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان.

الْمَلَكَةِ بعد عِزِّ الْمَلِكَةِ، وطرح جَبِينَهُ في التراب وكان جَبِينًا لَا يَتَعَاظَاهُ طَارِحٌ، وبذل مَبَلَةً من القطيعة لَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ طَرْفٌ آمِلٌ طَامِحٌ، وقال: ها هنا أُسَارَى مُؤْمِنُونَ يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفَرَنْجُ على أَنهم إن هُجِمَتْ عليهم الدار، وحمَلت الحربُ على ظهورهم الأوزار؛ بَدَى بهم فَعَجَلُوا، وُثِي بنساء الفَرَنْجِ وأطفالهم فقتلوا؛ ثم آسقتلوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خَصْمٌ إِلَّا بعد أن يَنْتَصِفَ، ولم يُسَلِّ سَيْفٌ من يَدٍ إِلَّا بعد أن تتقطعَ أو يَنْقِصَفَ؛ وأشار الأُمراءُ بالأخذ بالميسور، من البلد المأسور؛ فَإِنَّهُ إن أُخِذَ حَرْبًا فلا بُدَّ أن تفتحَ الرجالُ الأيجاد، وتبذلَ أَنفُسَها في آخر أمرٍ قد نِيلَ من أولِهِ المُراد؛ وكانت الجِرَاحُ في العساكر قد تقدمت منها ما اعتقل الفَتَكَاتِ، وأعتاق الحَرَكَاتِ؛ فقبِلَ منهم المَبْدُولُ عن يَدِهِم صَاغِرُونَ، وَأَنْصَرَفَ أَهْلُ الحَرْبِ عن قُدْرَةٍ وهم ظاهرون؛ ومَلَكَ الإسلامُ خِطَّةً كان عهدُهُ بها دِمْنَةً سُكَّانَ، فقدمها الكُفْرُ إلى أن صارت رَوْضَةَ جِنَانٍ؛ لا جرمَ أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أَهْلَ الحَقِّ وأسخطهم؛ فَإِنَّهُمْ خَدَّعَ اللهُ حَمَوهَا بِالْأَسْلِ وَالصَّفَاحِ [وبنوها بالعمدِ وَالصَّفَاحِ] وأودعوا الكائسَ بها وبيوتَ الديوية والأستبارية منها كُلَّ غَرِيبَةٍ من الرُخَامِ الذي يَطْرُدُ ماؤهُ، ولا يَطْرُدُ لِأَلَاؤِهِ؛ قد لَطَّفَ الحَديدُ في تَجْزِيعِهِ، وتَفَنَّنَ في تَوْشِيْعِهِ؛ إلى أن صار الحَديدُ، الذي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالذَّهَبِ الذي فِيهِ نَعِيمٌ عَنِيدٌ؛ فما تَرَى إِلَّا مَقَاعِدَ كَالرِّيَاضِ لها من بِيَاضِ التَّرخِيمِ رَفْرَاقٌ، [وعمدًا كالأشجار لها من التَّنْيِيتِ أوراقٌ] .

(١) في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضي الفاضل "يفك".

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان وأنظر ما تقدم من هذا المطبوع

(ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) في الأصل "كالأسمار" وفي رسائل القاضي الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات تتفطرن للسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب للالرجوم؛ ورُفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يُقعدُها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وحقق علماه في حقايقه، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في أستفتاح بقية الثغور، وأستشراح ماضق بتمادي الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد أستنفدت مواردُها [وأيام الشتاء قد مردت مواردُها] ^(١) والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرُها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد؛ وينفق عليها، ولا ينفق منها؛ وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرائب لبرها، ويداب في عمارة أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطاع الفرنج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لأسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع . ^(٢)

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص؛ فلذلك نفذنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضى الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وَقَفْتُ على نسخة كِتَابِ كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله، عند ما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية، فانترعها من يد بني طولون وأستولى عليها للخليفة، في نحو كُرَّاسِيَّة، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أوها : أما بعدُ فالحمد لله العليُّ الكبير، العزيز القدير؛ أَضْرَبْتُ عن ذكرها الطولها .

الصنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "مواد البيان" : من أخلاق العامة تقبيحُ سيرةِ السلطان إذا زلَّ في بعض آرائه ، والإزرأءُ على تديره في جيشٍ يُجهزه فيُكسر، ونحو ذلك : مما لا يسلم من مثله ، والإفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلافى الوهنَ وقيم العُذر، كما يكاتبهم بتفخيم المنح، وتعظيم التُّوحات، والتحدُّث بمواقع المواهب . وشكرالله تعالى على إسباغ النعم ، والإظفار بأعداء الدين والدولة : ليقوى بذلك مُنتهم، ويُرهِف بصائرهم ويستخلص طاعتهم، ويملاً صدورهم رهبة . قال : وليست لهذه الكُتب رسومٌ ينتظم كلُّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نرسم في أصوله قولاً وجيزاً : وهو أن يقتضب الكاتب له المعاذير التي تُحسن أحوالته ، وتستزلفه ، والمجج التي تُعيد الأثم عاذراً ، والدَّام شاكراً ، وتوجبُ التقرير من حيث يجب التأنيب، والإحماد من حيث يستحقُّ التذنيب . مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش، فيقول : وقد علمت أن الحرب سيجال ، والدنيا دُول تدال ؛ وقد تهب رِيحُ النَّصر للفاستين على المُقسطين أمتحاناً من الله وبلوى،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يصرح
بباطل، ولا يُطلق كذبا محضًا ، ولا يَخْتَلِقُ زورًا يعلم الناس خلافه ، فتضاعف
الهجنة، وتكاثف المحنة ؛ فإنه لا شيء أقيح على السلطان، وأقدح في جلالته الشان ؛
من أن يُعثر في كتبه على إفاك قد يعلمه بعض من يقف عليه ؛ بل ينبغي أن يعتمد
في ذلك حسن التخلّص والتورية عن الغرض ، وأستعمال الألفاظ التي تدلّ على
أطراف الحال ولا تُفصح بحقائقها .

وهذه نسخة كتاب من ذلك .

الحمد لله الذى ساس الأمور بحكمته ، وأبان فيها مواقع قدرته ؛ وسلك فيها
طريق مشيئته ، وصرفها على ما رآه عدلًا بين العباد في أقسام نعمته ومحنته ، وأحوال
بلوآه وعافيته ؛ وجعل الأيام فيهم نوبًا ، والأحوال بينهم عقبا ؛ فخص أوليائه وأهل
طاعته بالنصر فى المحاكمه ؛ والصالح عند المخاصمه ؛ والظهور على من شاقهم وعاداهم ،
والقهر لمن ضادهم ونأواهم ؛ إنجازا لما وعد به الصابرين المحسنين ، وإعزازا للدين
وأنصاره من المؤمنين ؛ ولم يحل أعداءه من دولة أداها لهم ، وجولة على الحق زادا
فى طغيانهم ؛ ووصل الإملاء لهم فيها بخذلانهم : ليجب الثواب للحسنين ، ويحق
العذاب على الكافرين . فقال فى محكم كتابه - وقد ظهر المشركون على المسلمين -
(**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**) .
وقال : (**لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحْقُقَ الْكَافِرِينَ**) وناب بين الفريقين
فى المصائب ، والمواهب ؛ والمسائر ، والمضار ؛ ليشفى الله صدور المؤمنين ، وليمحص
مافى قلوبهم ؛ ويوجب لهم إخلاص السرائر فى طاعته ، والجهاد فى سبيله ، والنصرة

لرسوله ، والمرامة عن دينه ، والمدافعة عن حريمه ؛ ضِعْفَ الثَّوَابِ وَحُسْنَ الْمَأْتَابِ ،
وَيُحِلُّ بِالْمُشْرِكِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وإذا كان الحال بين الفريقين المتلاقين ، والفئتين المتجاورتين ، والحزبين
المتحاربين ؛ في تعاور الغلبة ، وتعاقب الدولة ؛ جاريا على تقدير الله ومتصرفا على حكمه ،
ومستوسقا على ماسبق في علمه ؛ فليس يُعْنَى في ذلك زيادة عدد ، ولا اتصال مدد ؛
ولا قوة أيد ، ولا لطف كيد ؛ ولا اختيار وقت محمود للقتال ، ولا الأثخاب لأهل
البسالة والنجدة من الرجال ؛ ولا يجب أن يستريث النصر من أبطأ عنه ، ويستشعر
الجزع من نال خصمه منه ؛ بعد تحصيله السلامة في نفسه ، وقِيَامِ العُدْلِهِ بعنايته
وجده ؛ وقد جمع الله للأمر من المناقب - التي ورثها عن آبائه ، وحازها في صدره ؛
والحيازة فيما بان من فضل بأسه ، وثبات جأشه ؛ وأصالة رأيه ، وصحة تدييره ؛ وإيفائه
الحرب شروطها ، والمهيجاء حقوقها : من الخزم والثؤدة ، والإقدام عند الفرصه ؛
والإصابة في التقدير والتعبير ، والأحباط في سدّ مواقع الخلل والعوره ، وإعمال
النظر والرؤية ؛ لولا اعتراض القضاء الذي هو مالك نواصي العباد ، وغير مدفوع
بمحال ولا جلاذ ، ولا قوة ولا عدة ولا عتاد - ما أوفى حسنه على مزينة الظفر ،
وزاد عظمه في السناء والخطر ؛ إلى ما شمل عسكره في منقلبه بمراعاته لهم ، ومدافعتهم
من ورائهم ؛ حتى توافى الجمع موفورين ، وأبوا سالمين غانمين ؛ وبالله الحول والقوة
وعليه صمآن الإدالة على ما جرى به وعده الصادق ، وأخبر عنه كتابه الناطق ؛ وهو
حسب أمير المؤمنين وكافيه ، وناصره وواليه ، ونعم الوكيل والظهير ، والمولى
والنصير ؛ وصلّى الله على سيدنا محمد سيّد المرسلين ، وإمام المتقين ، وآله الطيبين
أجمعين ؛ وسلّم تسليما .



وفي مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جاريةً على سُبُلِ جامعةٍ لوجوه الحكمة ، منتظمةٍ لأسباب
 الصلاح والمعدلة . فمنها ما عرّف الله أوليائه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
 بهدآيته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ؛ والعلة فيما قضى من ذلك لحينه ،
 والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
 - وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
 في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبنئ على أوثق أساس
 الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
 الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في متزغ غاياتها
 ومقضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه دانية ولا قاصية ؛ ولا يسقط
 عن معرفته فضل ما بين الخاطرين والوهمين في الخير والشر ، وما بين الجبلين والدرين
 في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
 فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
 الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضلّ من حيث ضلّ ، وغلط من
 حيث غلط ؛ واتّصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزّرية على فعل ربه ، تعالى عن
 قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن الله جلّ جلاله عادةً في الحيشين المتحارين ، والحزبين المتحاكين : من
 عباده المؤمنين ، وأضدادهم المفسدين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاقبة
 بين الفئتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ؛ والمعاقبة والامتحان ،

والتَّصَرُّفَ وَالْحِدْلَانَ ؛ والإِعْلَاءَ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالٍ ، وَالإِمْلَاءَ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
 بِتَضْمِينِ الْخَيْرَةِ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالدَّائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالْتَّمَحِيصِ لَهُؤُلَاءِ ،
 وَبِالْحَقِّ لِأَوْلِيَاكَ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيُنُوبُهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
 وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ (١) ؛ وَمَنْ سَعَدَ
 بِقِسْمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحَظَّ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَرِيادَةً
 أَنْصَارٍ وَعُدَّةٍ ، وَفَضْلَ عِتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةَ وَنَجْدَةٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةَ وَبَسْطَةٍ ؛
 وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى قَاضِيًّا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُوفَى بِإِحْدَى الْحُسَيْنِيِّينَ مِنْ عُدُوِّهِ ،
 أَوْ غَلَبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعَمًا ، وَمُتَحَنِّنًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
 وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكُتَّابِ ، دائر
 فِي مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَالشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي ذَلِكَ تَفَنُّنَاتٌ
 كَثِيرَةٌ ، أورد بعضها في كتابه "حُسن التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هزيم هو وجيشه ، يتضمَّن إقامة عُدْرِهِ ، وَوَصْفَ اجْتِهَادِهِ ؛
 وَيُحِثُّ عَلَى مَعَاوَدَةِ عُدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بِنَارِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكتابة إلى فلان : لِأَزَالِ مَأْمُونَ الْغُرَّةِ ، مَأْمُولِ الْكَرْهِ ، مُجْتَنِيًّا حُلُوَ الظَّفَرِ
 مِنْ أَكْحَامِ تِلْكَ الْمَرَّةِ الْمُرَّةِ ؛ رَاجِيًا مِنْ عَوَاقِبِ الصَّبْرِ أَنْ يُسْفِرَ لَهُ مَسَاءُ تِلْكَ الْمَسَاءَةِ
 عَنْ صُبْحِ الْمَسْرَةِ ، وَاتِّقَا مِنْ عَوَائِدِ نَصْرِ اللَّهِ بِإِعَادَتِهِ وَمِنْ مَعَهُ فِي [الْقُوَّةِ] (٢) وَ[الْأَسْتَظْهَارِ
 كَمَا بَدَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوصحت فيه السيوف عُذرها ،
 وأبدت به الكماة صبرها ؛ وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها ،
 وبذلت فيه الأبطال من الحلال جُهدَها ولكن لم يكن الظفر إليها ؛ وكان عليهم
 الإقدام على عمرات المنون ، والأصطلاء بجمرات الحرب الزبون ، ولم يكن عليهم
 إتمام ما قدر أنه لا يكون ؛ فكأرت رقاب الأعداء فى ذلك الموقف السيوف ، وكأرت
 أعدادهم الحتوف ، وتدققت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت
 تلك الآحاد من تلك الألوف ؛ فضاقت بأزديحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد
 العدد على الجلد فلم يُقد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال ؛ وأملى للكافرين
 بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار ، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام
 عما ألفوه من الفرار . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
 وقد ورد أنهم ينصرون كما تنصر ، وإذا كانت الحروب سجالاً فلا ينسب إلى من
 كانت عليه [وبالآ] إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر . مع أنه قد أشتهر بما فعله
 فى مجاله ، من اللب عن رجاله ؛ وما أبداه فى قتاله ، من الضرب الذى ما تروى
 فيه خصمه إلا بדרه بارتجاله ؛ وأن الرماح التى أمتدت إليه أحرس سيفه السنة
 أسنتها ، والحياذ التى أقدمت عليه جعل طعنة أكفأها مكان أعنتها ؛ فأثبت
 فى مستنقع الموت رجله ، ووقف وما فى الموت شك لواقف ليحصى خيله ورجله ؛
 حتى تحيز أصحابه إلى فئة مأمئهم ، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم
 أو ظهر من مكئهم ؛ وهذا هو الموقف الذى قام له مقام النصر ، إذ فاتته النصراء
 وفاته النصر ، والمقام الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أذن العدد وفقد

فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوْفٌ لا يدركهم الحَصْرُ؛ [وكذا فليكن قلب] الجيش
 كالقلب يقوى بقوته الحسد، وإذا حق اللقاء فلا يفر عن كئاسه إلا الطيُّ ولا ينجي
 [عربيه] إلا الأسد؛ وما بقي إلا أن تعفوا الكُوم، وتُوبَ الحُلوم؛ وتتدمل
 الحراح، وتبرأ من فلول المصابرِ صُدور الصِّفاح؛ وتنهض لأقتضاء دين الدين،
 من غرمانه المعتدين؛ وتبادر إلى استنجاز وعد الله بأن الله يحصُّ المؤمنين، ويحسِّق
 الكافرين؛ والليث إذا جرح كان أشدَّ لثباته، وأمدَّ لوثباته؛ والموتور لا يضطلي
 بناره، والثائر لا يهرب الإقدام على المنون في طلب ناره؛ والدهر ذو دُولٍ، والزمان
 متلون إن دجت عليكم منه بالقهْر ليلة واحدة فقد أشرقت لكم منه بالنصر ليالٍ
 أول، فالمولي لا يلتفت إلى مافات، ويُقبل بفكره على تدير ما هوأت؛ ويُعدُّ
 للحرب عدته، ويعجل أمدَّ الاستظهار ومدته؛ ولا يؤخر فرصة الإمكان، ولا يعيد
 ذكر ماضٍ فإنه دخل في خبر كان؛ ولا يُظهر بما جرى عجزاً، فإن العاجز من ظنَّ
 أنه يُصيب ولا يُصاب، ولا يتخذ غير ظهر حصانه حصناً فلا حرز أمتع من صهوة
 الجواد ولا سلم أسلم من الركب؛ ولعلم أن العاقبة للثقين، ويدرع جنة الصبر
 ليكون من النصر على ثقةٍ ومن الظفر على يقين، فإن الله مع الصابرين؛ ومن كان الله
 معه كانت يده الطولى، وإذا لقي عدو الله وعدوه فليصبر لحملته فإن الصبر عند الصدمة
 الأولى؛ والله تعالى يكلؤه بعينه، ويمدده بعونه، ويجعل الظفر بعدوه موقوفاً على
 مطالبته له بدينه .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصِفُ الأحنفَ
بأخذ الثَّارِ .

هذه المكتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصِّفاح والسنة الرِّمَّاحِ سره ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كُسوف الشمس لا ينال طلعتها وان
سرار القمر لا يضره . توخَّع لعلمه أنه ربما أتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها
اللَّقاء ، وصدمنا العدو صدمة من لا يجب البقاء ؛ وأريناه حرباً لو أعانها التأيد فالتت
جموعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصف فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه
رجوعه . وحين شرعت رياح النَّصْر تهب ، وسحابُ الدماء من مقاتلهم تصوب
وتصب ؛ وكرعت الصِّفاح في موارد نُجُورهم ، وكشفت الرِّمَّاحُ خبايا صدورهم ؛
وما بقى إلا أن نستجمل سيوفنا الرِّى من دمائهم ، وتقف صُفُوفنا على ربوات أشلائهم ؛
وتقبض بالكف من صفحت الصِّفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته
الجراح حلة عندهم ؛ - أظهروا الخرع في عزائهم ، وحكموا الطمع في غنائهم ؛ فحصل
لجندنا نَجْبٌ أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم ، وطمع منع جيوشنا أن تكف عن
النَّهْب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فاغتم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العجب
والطمع ، وأتتهز فرصة الإمكان ، التي أعانها عليها [المطمعان] إبداء الهلع ، وتحلية ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن « الغفوة » .

(٢) في حسن التوسل "فرصة" "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جمعنا] ^(١) بعض ذلك العقيد المنظم ، وانتفض من حزينا ركن ذلك الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم ؛ وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرتنا جفون السيوف ، وحطمتنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرابتنا تلك الألوف كيف تعدد الأحاد بالألوف ؛ وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطاعهم ، ويرد سراعتهم ، ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أنصارهم وأسماعهم ؛ إلى أن نفسنا للنهزم عن خناقه ، وآيسنا طالبه عن لحاقه ، ورددناه عنه خائباً بعد أن كادت يده تتعاقب بأطواقه ؛ وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا ، ورأى منا جداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ؛ وعادوا ولنا في قلوبهم رعب يثنيهم وهم الغالبون ، [ويدركهم وهم الطالبون] ^(١) ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون ؛ وقد لم الخادم شعث رجاله ، وضم فرقتهم بذخائر ماله ؛ وأمدهم بنفقات أصاحت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم ؛ وسلاح جدد استطاعتهم ، وأعان شجاعتهم ؛ وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم ، وتحضهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهمهم في أجر رواجهم وعدوهم ؛ وقد نضوا رداء الإعجاب عن أكافهم ، واعتصموا بعون الله وتأيدته لابقوة جلدتهم ولا بجدة أسيافهم ؛ وسيعجلون العدو - إن شاء الله تعالى - عن أندمال جراحه ، ويتعجلون إليه بجيوش تسوءه طلائعها في مسائه وتصبحه كآئبها في صباحه ؛ والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا ، ولا يترع أعنة نصره من يدنا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "وضربهم" ، والتصحيح عن حسن التوسل .

الصنف التاسع

(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهمك به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرض إليه في "مواد البيان".
والذى ينبغي أن تُبنى المكاتبة فيه عليه ذِكرُ هزيمة المهزوم وما استولى عليه من
الغلبة والقهر، وصورة الحال في النصرة عليه، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر
ذات يده؛ وأسر رجاله، وأسترقاق ذراريهم ونسائهم؛ وما يجرى مجرى ذلك : مما فيه
إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله؛ ونحو ذلك مما يدعو المكتوب
إليه إلى الطاعة، ويوجب الأقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط : كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر
رحمه الله، إلى البولس حمد ملك الفرنج، المستولى على طرابلس من الشام، وأنطاكية
من بلاد العواصم حين غزاه الملك ^(١) في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها
من عانه، ^(٢) وهى :

قد علم التومص الجليل المستقلة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى
القومصية؛ ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده؛
ما كان من قصدينا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهدته بعد رحيلنا من
إحراق العمار وهدم الأعمار؛ وكيف كُنست تلك الكائن من على بساط الأرض
ودارت الدوائر على كل دائر، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل
البحر كالجزائر؛ وكيف قطرت الرجال وأستخدمت الأولاد ومثلكت الحرائر، وكيف
قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفي "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠، ص ٢٥٤) "يمتد".

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة . (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف مُهَبَّتْ لك وَلرِعَيْتِكَ الأموالَ والحريمَ والأولادَ والحواشيَ ، وكيف آسْتغْنَى
 الفقيرُ وتَاهَلَ العَازِبُ وآسْتخدمَ الحريمَ وَرَكِبَ المَاشِيَةَ ؛ هذا وَأنتَ تَنْظُرُ نَظَرَ المَغْشَى
 عليه من المَوْتِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا قَلْتَ فَرَعًا : عَلَى هذا الصَّوْتِ ؛ وكيف رَحَلْنَا
 عنكَ رَحِيلَ من يَعودُ ، وَأَحْرَناكَ وما كانَ تَأخِيرُكَ إِلا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ وكيف فَارَقْنَا
 بِلادَكَ وما بَقِيَتْ فيها مَاشِيَهُ ، إِلا وَهِيَ لَدِينا مَاشِيَهُ ؛ وَلا جَاريَهُ ، إِلا وَهِيَ في مِلْكنا
 جَاريَهُ ؛ وَلا سَاريَهُ ، إِلا وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي المَعَاوِلِ سَاريَهُ ؛ وَلا زَرَعٌ إِلا وَهُوَ مَحْصُودٌ ،
 وَلا مَوْجُودٌ إِلا وَهُوَ مَنكَ مَفْقُودٌ ؛ وَمَا مَنَعَتْ تِلْكَ المِغَايِرُ الَّتِي هِيَ في رُءُوسِ الجِبالِ
 الشَّاهِقَةِ ، وَلا تِلْكَ الأَوْدِيَةُ الَّتِي في التُّحُومِ مُحْتَرِقَةٌ وَلِلعقولِ خَارقَهُ ؛ وكيف سُقْنَا
 عنكَ ولم يَسْبِقْنَا إِلى مَدِينَتِكَ أَنْطَاكِيةَ خَبَرَ ، وكيف وَصَلنا إِليها وَأنتَ لا تُصَدِّقُ
 أَننا نَبْعُدُ عنكَ وَإِنْ بَعُدْنَا فَسَنَعُودُ عَلَى الأَثَرِ ؛ وَها نَحْنُ نُعَلِّمُكَ بِما تَمَّ ، وَنُفْهِمُكَ
 بالبلاءِ الَّذِي عَمَّ .

كانَ رَحِيلُنَا عنكَ من طَرابُلُسَ يومَ الأربِعا ، وَنَزُولُنَا أَنْطَاكِيةَ في شَهرِ رَمَضانَ ؛
 وَفي حَالِ التُّزُولِ خَرَجْتَ عَسَا كَرُكًا لِلْمِبارَزةِ وَتَنَاصَرُوا فَمَا نَصَرُوا ، وَأَسْرَمَ مِنْ بَيْنِهِم
 كَدِ اسْطِطْلَ فَسالَ في مَراجِعةِ أَصْحابِكَ ، فَدَخَلَ إِلى المَدِينَةِ ، فَخَرَجَ هُوَ وَجَماعَةُ من
 رُهبانِكَ : وَإِنْ رَأَيْهِمْ في الخَيْرِ مُحْتَلِفٌ ، وَقَوْلُهُمْ في الشَّرِّ واحِدٌ ؛ فَلِما رَأَيْناهُم قَدِ فاتَ
 فِيهِم القَوْتُ ، وَأَنَّهُم قَدِ قَدَّرَ اللهُ عَلَيْهِم المَوْتَ ؛ رَدَدْنَاهُم وَقُلْنَا : نَحْنُ السَّاعَةُ لَكُمْ
 مُخَاصِرًا ، وَهَذا هُوَ الأَوَّلُ في الإِنْذارِ وَالآخِرُ ؛ فَرجِعُوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ بِفِعْلِكَ ، وَمَعْتَقِدِينَ
 أَنَّكَ تَدْرِكُهُم بِجَيْلِكَ وَرَجَلِكَ ؛ فَفي بَعْضِ ساعَةِ مَرَّشانِ المَرشانِ ، وَدَاخَلَ الرَّهْبُ
 الرُّهبانَ ؛ وَلِأَنَّ للبِلاءِ القَسْطَ لَآنَ ، وَجاءَهُم المَوْتُ من كُلِّ مَكانٍ ؛ وَفَتَحَناها بِالسِّيفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مفار، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل باهمال جميع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من آخرته لحفظها
 والحمامة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده
 شيء منهم ومنها؛ فلورأيت خيالك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، ويأرك
 والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي توزن بالقطار، وإماءك
 وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك دينار؛ ولورأيت كأنسك وصلبانها قد كسرت
 ونثرت، ومحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
 ولورأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القدس، والمدبح وقد ذبح فيه الراهب
 والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقه، وأبناء المملكة وقد دخلوا
 في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تَحترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار
 الآخرة تَحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان
 وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
 بهذا الخبر ككأبا؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران
 بماء عبرتك؛ ولورأيت معانيك وقد أفقرت، ومرأبك وقد أخذت في السويديّة
 بمراكبك، لصارت شوائيك من شوائيك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية
 منك أسترجعها، والرّب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض أقتلها. ولتلم
 أنا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش،
 وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفردين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية
 في هذه المدّة إقامة(؟) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحا

(١) في الاصل "تلميس" ولم نعر عليه في المعجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن

قرب معرة النعمان بالشام .

وإما كَسِيرًا؛ وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحَيُّ إذا شاهد الأموات، ولعلَّ اللهَ
 إِنَّمَا أَحْرَكَ لِأَنْ تَسْتَدْرِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا فَاتَ ؛ وَلَمَّا لَمْ يَسْلَمْ أَحَدٌ يُخْبِرُكَ
 بِمَا جَرَى خَبْرُنَاكَ، وَلَمَّا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ [أَنْ] يُبَاشِرَكَ بِالْبُشْرَى بِسَلَامَةِ نَفْسِكَ وَهَلَاكَ
 مَا سَوَاهَا بِأَشْرُنَاكَ بِهِذِهِ الْمَفَاوِضَةِ وَبَشْرُنَاكَ، لَتَسْتَحَقِّقَ الْأَمْرَ عَلَى مَا جَرَى، وَبَعْدَ هَذِهِ
 الْمَكْتُوبَةِ لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُكَذِّبَ لَنَا خَبْرًا، كَمَا أَنَّ بَعِيدَ هَذِهِ الْمَخَاطَبَةِ يَجِبُ أَنْ لَا تَسْأَلَ
 عَمَّا جَرَى .



وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :
 هذه المكتوبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلتته، وأقامه من حفرة ذلته، وتجاوز له
 عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلته .

بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها [العدو] ^(١) بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه؛ وكيف
 في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه؛ أسرع في مفارقة المجال، من الظل
 في الانتقال، وأشبهه في مُماتلة الوجود بالعدم من طيف الخيال؛ ^(٢) يمشون إليه
 بقلب واجب، ويهتدون من تحرّصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب؛
 ويأتون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كآلف، ويتسرعون منه وراء مقدّم يمشي
 إلى الزحف ولكن إلى خلف؛ جناح جيشه مهبط، وطرف سنانة غضيض؛
 وساقه عسكره طالعه، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعه؛ تأسف
 السيوف بيمينه على ضارب، وتأسى الجنائب حوله إذ تعدّ لمحارب فتعدّ لهارب؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) في الأصل "يمضون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الأصل "ويهتدون من تجريبه وتهذيبه بينه" الخ، ولا معنى له .

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى^(١) من عدده وعدده معالجة الحين ؛ أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تُناديه ألسنة أسنته : الكرة الكرة فلا يلوي إلى نداءها ، وتُسكو إليه سيوفه الظمأ وقد رأته موارد الوريد فيردها إلى العمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخطى لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله ؛ فنجح منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وأنسم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار ، وكان يقال : النَّارُ ولا العار ، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والأجترأح ؛ لا علم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الضبا في أكتافهم ؛ فباى جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه ، وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربته]^(٢) .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشيب نأرها ؛ أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية ، وتبعثه على طلب غايتين : إما شهادة مريحة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته .

الصنف العاشر

(في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "مواد البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة - عند ما ينتهي [إليه] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأستباحة المحارم ، وأقتراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوسل" « ولا يلتفت » .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا الجرى-
بالتصديق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته، الممتن
بفضله قبل إيجاب شكره؛ خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماً؛ الذي
أختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، وأختص به صفوته
من الناس؛ وأبعث به محمداً سيد المرسلين : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه إيالة خلقه، وأفدرة على القيام
بخدمته؛ ونصبه لإعزاز دينه، والمحافظة على مفروضه ومسئولته؛ وزيادة العباد
عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها؛ ويسأله الصلاة
على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإن أمير المؤمنين يرى أن من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيقه لحفظ
ما استحفظه من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على من قلده
النظر فيهم، وأعتاد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم؛ ومساواته بين قريتهم
وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده؛ فلا ينال القريب [فقط]
نصيهاً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهدي حائرهم، ويشهد بصائرهم، ويثقف
مأثمهم، ويصلح فاسدهم؛ ويتخولهم من مواعظه بما يبرد الغلل، ويشفي العلل؛
وينسخ الشك باليقين، ويقبس مقابيس النور المبين [فن] أصغى إلى إرشاده سعد
جده، وورى زنده، وأحمد يومه وعده؛ ومن خالف عن أمره ضل مسعاه، وخسر
آخرته ودنياه، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه، والكف بإقامة
الحدود عليه من جماعه .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ أَحْتِقَابِ
الْآثَامِ ، وَأَسْتِدْمَاثِ مَرَاكِبِ الْحَرَامِ ، وَالْأَسْتِهْتَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ ، وَالْإِتْجَابِ عَلَى
دِينِ الشَّهَوَاتِ ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَتَدْفَعُ عَنْ تَأْيِيدِ
الْعِبَادَاتِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ؛ وَتَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْبِهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ ، وَالسَّوَائِمِ الْمُهْمَلَةِ .
وَتَقْصِيرُ مَشَائِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كَفِّهِمْ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفِهِمْ ؛ وَتَعْرِيفُهُمْ وَجُوهَ
مَرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِمْ ، فَاْمْتَعَّضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَشْفَقَ مِنْ نَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ ؛ وَارْتِجَاعِ مَا أُوْدِعَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَتْرَاعِ مَا أَلْبَسَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَبَادِرِ بَكَابِهِ مُوقِظًا لِعَافِكُمْ ، وَمُبْصِرًا لِدَاهِكُمْ ؛ وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى مَرَاضِيهِ
الْأَوْلَى ، وَمَعَاوِدَةِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ؛ وَمِبَادِرَةِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَالْأَخْذِ لِأُحْرَاكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ ، وَلَسَقَمِكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ ، وَلِنَوْمِكُمْ مِنْ يَقِظَتِكُمْ ؛ عَالِمِينَ أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا كَسْفَرٍ شَارِفُوا الْمَنْزِلَ . فَاجْهَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا ، وَأَقْلِعُوا وَارْجِعُوا ، وَاسْمِعُوا وَعُوا ؛ فَكُنْتُمْ وَاللَّهُ وَقَدْ تَوَضَّعْتُ خُدْعُهَا ،
وَتَصَرَّمْتُ مَتَاعُهَا ، وَجَلَّ مَتَوَقَّعُهَا ؛ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَفَادِ أَيَّامِهِ ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ ؛ وَالشَّقِيُّ مِنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَامَنْدَمَ . وَأَوْعَزَ إِلَى وَإِلَى الْحَرْبِ
فَلَانَ بَقْرَاءَةَ مَا نَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ ، وَآخْتَبَارِ سَيْرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ ؛ فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى ، وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ؛ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحَوَّلَهُ ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا ، وَبِطَالَةً وَمِحَالًا ؛ أَقَامَ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مُرَاقِبٍ فِيهِ . فَرَحِمَ
اللَّهُ عِبَادًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ ، وَحَمَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ؛
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ ، وَيَشْفِي صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَيُرْشِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ . فَلْيَعْلَمْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُلَّتْهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الحادى عشر

(الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين)

قال فى "مواد البيان" : من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده، ووقف عليه [تعهده] أمر الرعايا فى أعماله ، وتفقد الكتب إليهم بالنهى عن التنازع فى الدين ، وحسن أسباب المجادلة والمرء ، والتحذير من اتباع البدع والأهواء ، والإخلاق إلى مفضل النحل والآراء : لأنه متى فسح لهم فى هذا الباب صاروا شيعاً متباينين ، ورفقاً متحاربين ؛ وأشقت عصاهم ، وأتقتضت حيلهم ، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة ، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان . ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الأهتمام ، ولم يخولوا بحسن مادته على تغاير الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمة فى تأليف كلمة أهل الإسلام ، وما من به عليهم من الاتفاق والائتنام ، وشكره على موهبته فى نزع الغل من صدورهم ، والتأليف بين قلوبهم ، وتصييرهم إخواناً متصافين ، وخلاناً متوافين ؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم ، وإقذارهم بما منحهم من الألفة على مرأمة من رآهم ؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكنه الله تعالى من مرضيه ، ووقفه له من القيام بفرضه ، والنهوض بحقوق طاعته ، والعمل بكتابه وسنته ، ورغبته فى الخير العام ، وشمول الصلاح لكافة الأنام - لا يزال يحض رعيته على ما يقضى بسداد دنيآهم ، وحسن المنقلب فى أنحرام ؛ ويرى أن أفنع ذلك عائد ، وأجزله فائده ؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر ، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر ؛ وحال بينهم وبين الخوض فى محدث النحل والآراء ، والإصغاء إلى مفضل البدع والأهواء ؛ التى

تصدُّ عن سنن الهدى، وتُلقي في مهاوى الردى، وتدعو إلى شقِّ العصاب، وتقضى بانتثار النظام، واختلاف الآثام، وأنفصام عرى الإسلام. وكفَّهم عن المماراة في الدين، والإصغاء إلى سنة المضلِّين، المعطلة للسنن، القادحة للفتن، الداعية إلى احتقَاب الآثام، وإراقة الدماء الحرام، ونحو هذا مما يضاويه .

ثم يقول : وأتتهى إلى أمير المؤمنين ألتفاتكم عن معاشكم التي جعلها الله لدنياكم قواما، وعبادتكم التي صيرها لآخرتكم نظاما، وإقبالكم على المماراة والمنازعة، والمناظرة والمجادلة، إلى شكوك يُقيمها من يرغب في الرياسة والتقدم: ليفوز بجيِّث المطعم، الذى يُعْمى البصائر، ويُفسدُ السرائر، ويقدح زند الضلال، ويُشبُّ نار المحال والأتحال، فامتعض أمير المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليم عاجلته، وذميم آجلته، وبأدركم بكتابها هذا منبها لغافلكم، ومرشدا لجاهلكم، وباعثا لكم على الشاغل بما أطاب أخباركم، وحسن آثاركم: من تلاوة كتاب الله الذى آثركم بتلاوته، وزياره بيوت عبادته، والتأدب بأدب نبيه وعترته، وأوعز إلى النائب فى الحرب بتقويم من خرج عن أمره، وتثقيف من أصرَّ على غيِّه، وأن يحسم الداء قبل استشرائه، ويستدركه دوين استفعالها، فأصغوا إلى زواجير أمير المؤمنين ومواعظه، وأقتدوا بهديه ومرشده، لتفوزوا بطاعته، وتسعدوا برضاه، وتسلموا فى الحاضر، من مهانة أتم بغيرها أولى، إن سلكتم الطريقة المثلى، وفى الغابر مما أعدَّه الله لمن خالف عن أمره من العقاب فى الدار الأخرى، فأعلموا هذا وأعملوا به إن شاء الله تعالى .

قال : وقد يكتب السلطان إلى الرعية بالنهي عن التفانح بالبادية والتنازع فى العصبية . ثم قال : والطريقة فى هذا المعنى مشتقة من طريقة هذا الرسم .

الصف الثاني عشر

(المكاتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "مواد البيان": على هذه الكتب مدارُ أشغال السلطان في أعماله، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولأيةٍ ومحملة .

قال: وليس لهذا أمثلة فنوردُها، لِكِنَّه يَبْنِي للكاتب أن يُوَكِّد القول بها، فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نَظْمُهُما - نوعٌ واحد: لأن كُلَّ مأمورٍ به مَنبِيٌّ عن ضِدِّه، وكُلُّ مَنبِيٍّ عنه مأمورٌ بِضِدِّه؛ فيبني له أن يُوَكِّد القول في امتثال ما أمرَ، والعملِ عليه والإنفاذِ، والانتهاؤِ عما نهى عنه، والحذرِ من الإلمامِ به. ويحزم الأمر في العبارة عنهما جزماً تاماً لا يُمْتَكِن معه من الإخلال ببعضهما والتقص فيهما لهوى؛ ويأتي من المبالغة بما يَضِيقُ العُدْرَ، ومتى وقع تقصيرٌ أو تناقلٌ عما حُدِّدَ فيهما، فإنما يُمثِّلُ ذلك بمثِّلٍ جامعة مع تَفْنِئِ المعاني التي يأمر بها وينهى عنها .

ثم قال: والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال، أمكنه أن يسطه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .
وأعلم أنه كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عنايةٌ بالكتابة إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين: من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يجري مجرى ذلك؛ وإلى العمال بالوصية بالرعايا، والاجتهاد فيما لديهم من جباية الخراج، والاهتمام بأمر الدواوين، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين، فقد تقدّم في الكلام على مُصْطَلَحِ أهل العَرَبِ في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازري ما أغنى ذِكْرُه هناك عن إعادته هنا أو ذُكْرِ غيره .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقةُ بأمور السلطنة، فمن ذلك ما كَتَبَ به أبو عبد الله
 ابن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هودٍ أحدِ ملوك الطوائف بالأندلس في الرِّفقِ
 بالرعيَّةِ، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مُعَلِّي مَنَارِ الْحَقِّ وَرَافِعِهِ، وَمُوَلِّي مُتَوَالِي الْإِنْعَامِ وَمُتَتَابِعِهِ ؛
 وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ مُشَفِّعِ الْحَشْرِ وَشَافِعِهِ ، الْمَبْعُوثِ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ
 وَجَوَامِعِهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْمُبَادِرِينَ إِلَى مَقَاصِدِهِ الْعَالِيَةِ وَمَنَازِعِهِ ، وَالذَّائِبِينَ عَنْ حَوَازَةِ
 الْإِسْلَامِ بِمَوَاضِي الْأَعْتَرَامِ وَقَوَاطِعِهِ ؛ وَالرِّضَا عَنْ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ الْعَبَّاسِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 ذِي الْمَجْدِ الَّذِي لَا يَنْالُ شَيْئًا مَطَالَعَهُ .

فإنَّا كتبنا إليكم ، كتب الله لكم عِزَّةً قَدْحُهَا بِالثَبُوتِ فَائِزٌ، وَسَعَادَةً قَسَطُهَا لِلنَّيِّ
 حَازِرٌ؛ مِنْ فِلَانَةٍ : وَكَلِمَةَ الْحَقِّ مَنْصُورَةً اللَّوَاءِ، مَنْشُورَةً الْأَضْوَاءِ، وَالتَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ
 فِي الْإِعَادَةِ وَالْإِبْدَاءِ، وَالتَّسْلِيمُ إِلَيْهِ مَنَاطُ أَمْرِنَا فِي الْإِتْمَاءِ وَالْإِبْتِدَاءِ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى
 وَشُكْرُهُ وَصَلَّتُنَا إِلَى نَيْلِ مَزِيدِ النِّعَاءِ وَالْآلَاءِ؛ وَمَكَانَتِكُمْ لَدَيْنَا مَكَانَةُ السَّنِيِّ الْمَنَاصِبِ ،
 الْمُتَشَمِّي إِلَى كِرَامِ الْمُتَشَمِّيَاتِ وَالْمُنَاسِبِ؛ الْمُتَحَلِّي فِي الْغِنَاءِ وَالْأَكْتِفَاءِ، وَالْخُلُوصِ
 وَالصِّفَاءِ، بِأَكْرَمِ السَّجِيَّاتِ وَالْمُنَاقِبِ؛ الْمَعْلُومِ مَالِدِيهِ مِنْ الْمُنَاصِحَةِ السَّالِكَةِ بِأَكْرَمِ
 السَّجِيَّاتِ فِي الْمُنَاحِي الْحَسَانِ عَلَى الْمَهْبِيعِ الْأَوْضَعِ وَالسَّنَنِ الْأَلْحَبِ .

وقد وقفنا على كتابكم معلما بنجر فلانة وبما رأيتموه من المصلحة في تحصيلها ،
 والاجتهاد في سبب تأمينها ؛ ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح ، وتوخواون مانتوسمون
 فيه النجاح ؛ لكن أهم الأمور عندنا ، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا ؛ الرِّفقُ
 بالرعيَّةِ ، وحملها على قوانين الإحسان المرعيَّةِ ؛ وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتابُ
 [أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ، ويتظلمون من
 متحيفهم ومتعسفهم ؛ وفي هذا ما لا يخفى عليكم ، ولا ترضون به لو آتتهى إليكم ؛

فإنه إذا كان الناظر في خِدْمَةٍ مِّنْ لَا يُحْسِنُ سِيَّاسَةَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَعْلَمُ طَرِيقَ الرَّفِيقِ الحَاوِيَةَ لِرَفِيقِ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ؛ أَعَادَ التَّسْكِينَ تَنْفِيرًا ، وَالتَّسِيرَ تَعْسِيرًا ؛ وَتَعْلَمُونَ مَا نَا لَا نَقْدَمُ عَلَى إِيْشَارِ الْعَدْلِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَمَلًا ، وَلَا نَبْنِي لَهُمْ بَاطِنَةً بِغَيْرِ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بَدَلًا ؛ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ وَأَوْلَى مِنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ يُجَكَّلُ هَذَا الْمَقْصَدُ ، وَيَتَحَرَّى فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا هَذَا السَّنَنَ الْأُرْشُدَ ؛ وَقَدْ خَاطَبْنَا أَهْلَ فَلَانَةَ بِمَا يُذْهِبُ وَجَلَّتْهُمْ ، وَيَسْطُرُ أَمَلَهُمْ ؛ وَعَرَفْنَاكُمْ بِأَنَّكُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ جَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ [بَعْضِ] الْخِدْمَةِ لِأَخْذْتُمْ عَلَى يَدِهِ ، وَجَازَيْتُمُوهُ بِسُوءٍ مَعْتَمَدِهِ ؛ وَأَشْعَرْنَاكُمْ بِأَنَّ قَدْ آسَتْ وَصِينَاكُمْ بِهِمْ خَيْرًا ، وَنَبَهْنَاكُمْ عَلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَيْمًا وَيَرْفَعُ ضَيْرًا ؛ وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَسْتَأْنِفُونَ نَظْرًا جَمِيلًا ، وَتَوَنُّحُونَ عَنْهُمْ الْخِدْمَةَ الَّذِينَ لَا يَسْلُكُونَ مِنَ السِّيَّاسَةِ سَبِيلًا ؛ وَتَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ تَحْسُنُ فِيهِمْ سَيْرَتُهُ ، وَتَكْرُمُ فِي تَمْشِيَةِ الرَّفِيقِ عَلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ ؛ وَمِثْلَكُمْ لَا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبٍ تَحْسِنُ عَوَاقِبُهُ ، وَغَرَضُ يَوْافِقُهُ الْقَصْدُ الْإِحْتِيَاطِيَّ - وَيُصَاحِبُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتب عند حدوث الآيات السماوية)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا - عند حدوث الآيات الموهولة التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده إلى الإقلاع عن معصيته ، والإقبال على طاعته ، كالرياح العواصف ، والزلازل والصواعق ، وأحتماس القطر ونحوه في التسكاب عما جرت به العادة - كتباً يضمنها من الوعظ الشافي الرفيق ما يأخذ بجماع القلوب ، ويشعرها التقوى والرهبنة ، ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة .

قال : وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة، ويبالغ في الذكرى التي تُحطَر الخواطر وتقدح الأنفس، وتُحزك العزائم نحو الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورٍ [تُسعر] ^(١) الخليفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغب في عفوه وتوابه؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى، ورغب في التقوى بكتابته .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على آياته التي يفيضها ابتلاء واختباراً، وآياته التي يرسلها تحويفاً وإنذاراً؛ وموهبته في التوقيف بسايع نعمته على طاعته، والتحذير بدافع نقمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أُنقذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعداد أمام سُخطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه؛ فمن استيقظ من سنته، ونظر لعاقبته [ونَهَض] ^(١) إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف الرين عن قلبه، وضاعف أجره؛ ومن أضرب عن موعظته، وتعمى عن تبصيره وتذكيره، أخذته على غرته، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفرع إلى الصلوات، والمسارعة إلى بيوت العبادات؛ والإكثار من التضرع والخشوع، والاستكانة والخنوع، بإذراء سحائب الدموع؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَب الآثام ومُخْتَرع الأوزار، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإجابة بقلوب تقيه، وطويات على الطهارة مطوية؛ وسراير صريحة، ونيات صحيحة؛ يصدقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلاً، وإن كان مما يجب الأهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصِّنف الرابع عشر

(المكاتبُ في التنبيه على شرفِ مواسم العبادَةِ وشريفِ الأزمنةِ)

قال في "موادِّ البيان" : إن الله وَقَّتَ لعباده أوقاتاً عَظُمَ شأنها ، ورفعَ مكانَها ، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لُطْفًا بهم ورأفَةً ، وحنانًا ورحمَةً .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّاله بتنبيه الرعايا عليها ، وتعرّيفهم فضلِ العبادَةِ فيها : ليستقبلوها بالإخباتِ والخُشوعِ ، ويتلقَّوها بالتَضَرُّعِ والخُضوعِ ؛ ويتوسلوا في قبُولِ التَّوْبَاتِ ، وغُفْرَانِ الخَطِيئَاتِ ؛ حِفْظًا لنظامِ الدينِ ، وتفقُّدًا لمصالحِ المسلمين .

قال : وينبغي للكاتب أن يحسن التَّأثُّرَ في هذه الكتبِ ^(١) ويُدكِّرَ النَّاسِيَّ وينبه العَافِلَ اللَّاهِيَّ ، والمُهْمِلَ السَّاهِيَّ ؛ ويحرِّكَ النفوسَ نحو مصالِحِها ، ويبعثها على الأخذِ بفاضلِ الأعمالِ وصَالِحِها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يتقبل فيها قُرْبَهُمُ وأعمالَهُمُ ، ويُخَفِّفُ بالإِنبَاءِ إليه عند حلولها أوزارَهُمُ وأنقالمَهُمُ ؛ فيغفر مُسْتَفْرِهَمُ ، وَيَعْفُو عن مُسِيئَتِهِمُ ؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبِهِمُ . والصلاة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آلِهِ . ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقاتِ ، والإِنبَاءِ عَمَّا فِي قَصْرِهَا على العباداتِ ، والمسابقة إلى الخيراتِ ، من عظيمِ الثوابِ . وَيَسْفَعُ بِبِعْثِ الوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السُّنَنِ ، وتَعَهُّدِ حَقِّ اللهِ تعالى فيها ، والتَّوَسُّعِ في توكيدِ الحُجَّةِ ، ونَقْيِ الشبهة ؛ وإيرادِ المواظِظِ الرادعة ، والزواجر الوازعة ؛ التي تعود بِسِحْذِ البصائرِ ، وصفاءِ الضمائرِ ، والإِتْيَانِ بحقوقِ هذه الأوقاتِ وواجباتِها ،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفوز بما يوفره من جزيل بركاتها ، والتوفّر على حُسن مجاورتها ؛ والتقرب إلى الله تعالى ببذل الصدقات ، والإقبال على الصلوات وزيارة بيوت العبادات ؛ ومداورة أهل الدين ، والسعي في مصالح المسلمين ؛ ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحجّ ، أفتتح بالحمد لله على أن جعل لعباده حرماً آمناً يمحّص ذنوبهم بزيارته ، ويمحو آثامهم بحجّه وفادته ؛ وبلى ذلك ما يليق به من الحثّ على تأدية المناسك ، وتكامل الفرائض والسّنن ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدينية .

الصفحة الخامسة عشر

(المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "موادّ البيان" : جرّت العادة أن يكتب السلطان عمّاله وولّاته بسلامة المواسم الإسلامية كلّها : لأنها تُشاهد لجميع أصناف الرعايا وذوي الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا ؛ وكلّ مُتربّصٍ لفتنةٍ ينتهز فرصتها . فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورةٍ وحدثٍ أحدث منكرةٍ تُفضي إلى الفتن التي لا تُرفع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التحدّثُ بنعمته ، والشكر لمشيئته ؛ وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قبله إلى عمّاله ، لتسكن الكافة إلى ذلك ، ويشركوا في حمد الله تعالى عليه .

وأعلم أن المواسم التي كان يعتاد الخلفاء الركوب فيها والكتابة بالسلامة منها هي : عيد الفطر ، وعيد النحر . وكان الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية يعتادون

مع ذلك الركوب في عُمرَةِ السَّنَةِ ، وفي أول رَمَضان ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشيعة كما سيأتي ذكره . ونحن نُشير إلى ذكر مواكبها موكباً موكباً ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كلِّ موكب منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في عُمرَةِ السنة . وقد تقدم الكلام على صورة الموكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته ، وهي : الحمد لله الذي لم يزل يُولي إحساناً وإنعاماً ، وإذا أبلَى عبيده عاماً أجدهم بفضله عاماً ؛ فقد أمدكم معاشر [الخلفاء] ^(١) كرمًا ومنا ، وآتاكم من جوده أكثر مما يمتنى ؛ ومنحك من عطائه ما يُوفي على ما أردتموه ، ﴿وتخّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كلِّ مآسألتتموه﴾ وقد آستقبلتم هذه السنة السعيدة ، وإذا عمّتم بالطاعة كنتم مستنجزين من نواب الله الأغراض البعيدة .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت الجنة مدخراً لمن عمل بهداه لما سمعه ، ومهيأة لمن آمن به وآتبع النور الذي أنزل معه ؛ وبين بإرشاده ما تجرى أمور السنين عليه في العدد والحساب ، ونسخ ما كانت الجاهلية [تفعله] فيه زيادة في الكفر وضلالاً عن الصواب ؛ وعلى أخيه وأبن عمّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته ، وضاعف الأجر لأهل ولايته ، ومنح شيعته مقبول شفاعته ؛

(١) يياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ؛ والعالمين
في سياسة الكافية بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم
أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ؛ نعمة رفعت الشك
وأزالت اللبس ، ووضّح ضياؤها لأولى الألباب ووضوح الشمس ؛ وأشترك الناس
فتضاعفت الفائدة لديهم ، وأنفعوا بذلك في توارينهم ومعاملاتهم ومالهم وعليهم ؛
وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومُستقبلها ؛
وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام
فلان - ليتساوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركابه إشعاراً
بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأولياته ، ولرعاياه المتفتحين ظلّ لوائه ؛ هو افتتاح السنة
وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مُفتتحها إلى مُحْتَمَمها -
يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع
مددها ؛ وإذا اضطربت نار الكفر والتهمت ، طفت بأنوارهم وخبّت ؛ وقد تلدّت
هنديّة تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظنُّ إذا أصطحبت ؛ والأرض بمرورها عليها
مبهجة موقّعة ، وملائكة الله عزّ وجلّ حافّة به مُحدّقة ؛ فأذن بأن اليوم المذكور هو
غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كداسنة كذا المتقدمة : لتستقيم
أمورهم على أعدل نهوجهم ؛ وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطريهم وحجّهم ؛
وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ؛
ويتمثلوا في معرفته ، ويحمل كلّ منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ؛
ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائه فيه
إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

الثاني — البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كإني خلقه في اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمةً للأمم ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص ولي ، وأشرف وصي ، وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاةً دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال .

وإن من المسرة التي تُتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرداً ، ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلماً بأول الشهر وافتتاحه ، وأن الصيام الأول من فحره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمينة برؤيته قد تساوى فيها الكافه ، وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهره ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابغة على أهل الله ، وتتلوها على أهل عمك ، وتطالع بكائيك في ذلك ، فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

الثالث — الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي :

أفضل مُسَيَّرٍ ذِكْرُهُ ، ووجب حمدُ الله تعالى عليه وشُكْرُهُ ، ما عَادَ على الشريعة بالجمال
 والبهجة ، وأضحى وأصفه صحیح المقالِ صادقِ اللّهجه ؛ فضاغفَ حَسَنَةً ومَحَصَّ
 سَيِّئَةً ، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهَيِّئَةً ؛ وذلك ما يَسِّرُهُ الله تعالى من أَسْتِقْلَالِ
 رِكَابِ سَيِّدِنَا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم
 الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا : مُؤَدِّيَا خُطْبَتِهَا وصلَاتِهَا ، وضامنا لِأُمَّةٍ أُتِمَّتْ به
 خَلَاصُهَا يوم الفزع الأكبر ونجاتِهَا ؛ في وقَارِ النبوة وسكينة الرِّسَالَةِ ، والهَيَبَةِ المُسْتَوْلِيَةِ
 على العِظَمَةِ والجَلَالَةِ ؛ والعساكرِ الجَمَّةِ التي تُفَلِّقُ بمهَابَتِهَا وترعيج ، وتُظَنُّ لكَثْرَتِهَا
 واقِفَةً والرَّكَابِ يَهْمَلِج ؛ ولما أنتهى إليه ، خَطَبَ ووعظَ ففتح أبواب التَّوْبَةِ ،
 وآب إلى الطاعات مَنْ لم يُطَمَعْ منه بالأوْبَةِ ؛ وصلَّى صلاةً تُقبَلُها جَلٌّ وعزٌّ بقبُولِ
 حَسَنٍ ، وقَصَرَ في وَصْفِهَا ذُوو الفِصَاحَةِ واللِّسَنِ ؛ وعاد إلى مُسْتَقَرِّ الخِلافَةِ ، ومثوى
 الرحمة والرافة ؛ وعيَّن اللهُ له مَلاَحِظَةً ، وملائكتَهُ له حَافِظَةً . أُعْلِمَتَ ذلك لُتْدِيَعَهُ
 في أهلِ عَمَلِكَ ، وتطالع بكائِكَ .

الرابع - المكاتبه بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رمضان .

قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المصرية في الدولة الفاطمية ،
 في المقالة الثانية : أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رمضان إلى الجامع
 الأنور ، وهو جامع باب البحر ، الذي عمره الحائِمُ بأمر الله ، وجدده الصَّاحِبُ
 شمس الدين المَقْسِيُّ .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضا ، وهي :

لم يَزَلْ غَايِرُ كَرَمِ الله وَفَضْلِهِ ، يَفُوقُ حَاضِرُهُ ما كان من قَبْلِهِ ؛ فنعمته الله تعالى
 سابغه ، وَمِنْهُ مُتَتَابِعُهُ ، ومَلابِسُها ضَافِيَهُ ، ومَغَارِسُها نَاميَهُ ، ومَحَابِثُها هَامِيَهُ ؛ وهو جَلٌّ

وعزَّ يضاعفها على مَنْ صَلَّى وَصَامَ، ويواليها عند من تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى التي لا انفصال لها ولا انفصام ؛ وتجدد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا : في شَاحِخِ عِرْزِهِ، وبَازِيحِ جَبْهِهِ، وتَوَجُّهِهِ إِلَى الْجَامِعِ الْأَنْوَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ جَدِّهِ ؛ سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتِهِ، وَبَرَكَاتِهِ وَتَحِيَّاتِهِ ؛ وَعَسَاكَرِهِ قَدْ تَجَاوَزَتِ الْحَدَّ، وَكَثُرَتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، فَإِذَا تَأَمَّلَهَا الطَّرْفُ أَتَقَلَّبَ عَنْهَا حَاسِبًا وَأَرْتَدَّ .

ولما وصل إلى الجامع المذكور خَطَبَ فَأُورِدَ مِنَ الْقَوْلِ أَحْسَنَهُ، وَعَظَّ فَأَسْمَعَ مِنَ الْوَعْظِ أَوْصَحَّهُ وَأَيْبَنَهُ ؛ وَصَلَّى صَلَاةً جَهْرًا بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا وَرَتَّلَهَا، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ شَمِلَتْ الْبَرَكَاتُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَوَفَّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَنَجَّى مَنْ آقَدَى بِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَسْتَوَى عَلَى السَّعْدِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ . أَعْلَمْنَاكَ ذَلِكَ لَتَعْرِفَ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ، فَأَشْكُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَقْتَضَاهُ، وَأَعْتَمَدَ تَلَاوَةَ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ؛ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ .

الخامس — المكتبة بالسَّلامَةِ فِي الرُّكُوبِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثالثة منه إلى الجامع العتيق بمصر^(١)، فيخطب فيه ويعود إلى قصره .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصَّيْرِي، وهي :

(١) ما تقدم في (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح في أنه كان يركب في الجمعة الثالثة من رمضان إلى الجامع الأزهر، وأنه لا يركب إلى الجامع العتيق إلا في الجمعة الرابعة، التي أهلها هنا ذكره إليها وحاصل ما تقدم أنه يركب في جمع رمضان ماعدا الأولى .

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه
ومزيده ، والامتنان بتيسير عصبه ، وتعجيل قصيه ، وتقريب بعيده ؛ فهو لا يُخلِّبهم
من نواجمه ، ولا يُفهمهم من هواجمه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشُمول خيراته ؛ أن مولانا
وسيدنا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛
والى فيه بركاته ، وزكى أعمال المؤمنين فى استماع أخطابه والائتمام بصلاته ؛
وفى هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر
ليُسبِّحهم لهذه المدينة من حظى الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجَّله لأهل المعززة
القااهرة . فكانت هيئته يُعجزُ وصفها كلِّ لسان ، وظهر - عليه السلام - فى الردائين :
السَّيفِ والطَّيْلَسَانِ ؛ والجِوشِ قد أنبسطت وأنتشرت ، والنفوسُ قد أبتهجت
وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخلُّيدِ مُلكه وتوفرت . وعند وُصوله
خَطَبَ فأحسن فى الألفاظ والمعاني ، وحدَّر من تأخير التوبة والتَضجيع فيها
والتوانى ؛ وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفأ
عائدا إلى قُصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره
ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمدِ إذاعة ذلك لِيَبالِغَ الكافَّةُ فى الاعتراف بالنعمة فيه ،
ويُواصلُوا شكر الله تعالى عليه ، والمُطالعة بما أعمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسَّلامة فى رُكُوب عيد الفِطْرِ .

وقد تقدَّم فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية فى المقالة الثانية : أن الخليفة

كان يركبُ لصلاة عيد الفِطْرِ صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيسد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلِّي] ^(١) فُيَصَلِّي وَيُحْطَبُ، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارةً مع خُلُوِّ الدَّوْلَةِ عن وزيرٍ، وتارةً مع اشتغالها على وزيرٍ .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُوِّ الدولة عن وزيرٍ، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو :

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، ومعوّض المطيعين من جزائه بلوغ الأوطار، الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار؛ وكف عباده ما يطيقونه ووعده عليه جزيل أجره، وأسبغ من نعمه ما لا يطمع [في القيام] بواجب حمده عليه وشكره؛ وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وبأح، وبين المحظور في الشريعة والمباح؛ وأرشد إلى ما حرّمه الإسلام وحلّله، ومهد سبل الهدى لمن استغوا الشيطان وضلّله؛ وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزّ مائه، وبيّضت وجه الدين الحنيف مواقفه ومقاماته؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفّلوا أمر الأمة نصّاً، وأمتطّوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً؛ فال حاضر منهم يوفى على من كان [من] قبليه، وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله؛ وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشریفاً لا انفصام لإبرامه؛ وأسنى ومجّد، وتابع وجدّد .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي الصيام حقّه، وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه؛ وبعد أن أفطر بحضرة الأولياء من آله وأسرته، والمقدّمون من رؤساء دولته، والمتميزون من أوليائه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وَشِيعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أنَّ أمير المؤمنين لما أرتُقِبَ برُوزُهُ من قُصُورِهِ ،
 وَتَجَلَّى فَاشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِهِ ، توجه إلى المِصْطَلِ قَاضِيًا لِسُنَّةِ العِيدِ ، فكانت نِعْمَةً
 ظهوره بالنَّظَرِ [للحاضِرِ] وبالخَبَرِ للبعيدِ ؛ وأستقلَّ رِكَّابُهُ بالعساكر المنصورة التي أبدتْ
 مَنظَرًا مُفْتِنًا مُعْجِبًا ، وجعلت أديم الأرض بالخيَلِ والرَّجْلِ مُحْتَجِبًا ؛ وذخرت الأنتقامَ
 مِّنْ شَقِّ العَصَا ، وتجاوزت في الكثرة عدد الرَّمْلِ والحِصَا ؛ وزينت الفِضَاءَ بهيئتها ،
 ورَوَّعت الأعداءَ بهيئتها ؛ وجمعت بين الطَّاعَةِ وشِدَّةِ البَاسِ ، وأدْرَعَت من التَّقْوَى
 أَمْعَ جَنَّةٍ وَأَحْصَنَ لِبَاسَ ؛ ولم يزل سائرًا في السَّكِينَةِ والوَقَارِ ، نَاطِرًا لِلدُّنْيَا بَعِينَ
 الإحْتِقَارِ ؛ والثرى بالجِباةِ والشِّفَاهِ مُصَافِحٌ مَلْثُومٌ ، فُهَمَّا مَوْسُومَتَانِ به وهو بهما
 مَوْسُومٌ ؛ إلى أن وصل إلى مقرِّ الصَّلَاةِ ، ومحلِّ المُنَاجَاةِ ؛ فصَلَّى أتمَّ صَلَاةٍ وَأَكَلَهَا ،
 وأداها أَحْسَنَ تَأْدِيَةٍ وَأَفْضَلَهَا ؛ وأخلص في التَّكْبِيرِ والتَّهْلِيلِ إِخْلَاصَ مَنْ لَمْ يَفُتْ
 أَمْرًا وَيَخْشَى الله وَيَتَّقِيهِ وَنَصَحَ في إرشاده ووَعظِهِ ، وأعربَ ببدیع معناه وَفَصِيحَ
 لَفِظِهِ ؛ وعاد إلى مَثْوَى كرامَتِهِ ، وفلك إمامتِهِ بِحُجُودِ المَقَامِ ، مَشْمُولًا بالتوفيقِ
 في النَّقِضِ والإِبْرَامِ . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتُدَيْعَهُ فِيمَنْ قَبْلَكَ ، وتشكروا الله
 على النِّعْمَةِ الشَّامِلَةِ لهم ولك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب
 في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدَّوْلَةُ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى وزير ، عن الحافظ
 لدين الله العلوِيّ خَلِيفَةِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ ، في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وهي :

الحمد لله الذي أعزَّ الإسلامَ وشيَّدَ منارَهُ ، وأيدَّ أوليَاءَهُ ونصرَ أنصارَهُ ؛ وأظهر
 في مَواَئِمِهِ قُوَّتَهُ وَأَسْتَظْهَرَهُ ، وختم الشَّرَائِعَ بِشَرَفِ أَيْدِيِّ فَكان حَظُّهَا منه إِيثارَهُ ،

وَحَظَّ الْإِسْلَامَ أَسْتَبْدَادَهُ بِهِ وَأَسْتِثَارَهُ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ جَدِّنا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَرَّمَهُ بِاصْطِفَائِهِ ،
 وَأَسْعَدَ مِنْ حَافِظٍ عَلَىٰ اتِّبَاعِ نَهْجِهِ وَأَقْتِفَائِهِ ؛ وَبَيَّنَّ بِشَرْعِهِ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَدَعَا
 الْأُمَّةَ بِإِرْسَالِهِ إِلَىٰ دِينٍ قِيمٍ أَعْلَىٰ بِنِائِهِ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَوَعَدَهُمْ عَلَىٰ مَقْرُوضِهِ وَمَسْنُونِهِ جَزِيلَ
 الْأَجْرِ ، وَأَمَرَ فِي أَعْتِقَادِ خِلَافِهِ بِالذَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالزَّجْرِ ؛ وَعَلَىٰ أُخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ أَبِينَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ الْأُمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَالْمُشْتَهَرَةِ فِضَائِلُهُ أَشْتَهَارَا
 لَيْسَ بِهِ مِنْ حَقَاءِ ؛ وَمَنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ وَالْمَنْ الْجَزِيلَ ، وَخَصَّهُ مِنَ الشَّرَفِ
 بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ؛ وَعَلَىٰ الْأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتَيْهِمَا الْقَائِمِينَ بِفَرْضِ اللَّهِ وَالْمُؤَدِّينَ
 لِحُقُوقِهِ ، وَالَّذِينَ كَفَلَتْ أَمَانَتَهُمْ بِأَبْسَاطِ نُورِ الْحَقِّ وَأَنْتِشَارِ لُؤَائِهِ وَخُفُوقِهِ ؛ وَسَلِّمْ
 وَكْرَمٌ ، وَمَجْدٌ وَعَظْمٌ .

وَكِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَىٰ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،
 الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ بِكَرَمِهِ وَفَضَّلَهُ ؛ فَرَفَعَ تَكَالِيفَ
 الصَّوْمِ ، وَأَوْجَبَ الْإِفْطَارَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَسَاوَىٰ فِي ذَلِكَ [بَيْنَ] كُلِّ مُتِمِّهِ وَمُنْجِدِ ،
 وَأَمَرَ بَنِي آدَمَ فِيهِ بِأَخْذِ الزَّيْتِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ؛ وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ أَنَّ الْفَجْرَ لَمَّا طَلَعَ
 مُبَشِّرًا بِالشَّمْسِ ، وَمُؤَدِّنًا بِبَعْثِهَا مِنَ الرَّمْسِ ؛ فَتَابَعَتِ الْجُيُوشُ الْمَوْفُورَةَ ، وَالْعَسَاكِرُ
 الْمَنْصُورَةَ ؛ إِلَىٰ أَبْوَابِ الْقُصُورِ الزَّاهِرَةِ تَوَكُّفًا لِأَنْوَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرَقُّبًا لظَهْوَرِهِ
 قَاضِيًا حَقَّ الدِّينِ ؛ فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وَأَضَاءَ ، وَمَلَأَتْ الْخَلَائِقُ الْفَضَاءَ ؛ تَجَلَّىٰ مِنْ
 أَفْلَاكِ إِمَامَتِهِ ، وَبَرَزَ فَأَغْطَىٰ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِنَبَاتِهِ عَلَىٰ الْمَشَايِعَةِ وَإِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ ظَاهِرًا
 وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بِالْأَنْوَارِ ، وَمُتَمَنِّعًا وَهُوَ مُنْتَهَبٌ بِالْأَبْصَارِ ؛ وَالْكَافَّةُ يُصَاحِبُونَ الْأَرْضَ
 وَيَحْتَرِدُونَ فِي الدَّعَاءِ بِإِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمُؤَيَّدَةُ لَوْ أَنَّهَا عَمَّتِ الْأَرْضَ
 بِنَطْقِهَا ، وَسَاوَتْ بَيْنَ قَرَبِيهَا وَسَحِيقِهَا ؛ وَصَارَتْ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي فِيهَا ، لَكَانَتْ
 قَدْ تَزَلْزَلَتْ وَمَادَتْ بِأَهْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ تَبَائِنِ أَجْنَاسِهَا وَطَوَائِفِهَا مُتَطَافِرَةٌ عَلَىٰ مُعَانِدِي

الدولة ومخالفها، متلامة على الولاء، متمالئة على الأعداء، تتلقت إلى المجاهدة كأنها
 الأسود إقداماً وبأساً، وكأما فصلت جوامد الغدران سلاحاً لها وليأساً، والسيد
 الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت، وذهبت بوزارته الغياهب
 وتجلت، وتهلل بنظره وجه الملة وكان عانسا، وأعاد الدولة معصراً وقد كانت قبله
 عانسا، وحسنت الدنيا بأيامه إذ ليس فيها من يضايه، وانتظمت أمورها على
 الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه، ترتب المواكب بمهاتته، ويستغنى بتوغلها
 في القلوب عن إيمائه وإشارته، وكل طائفة مقبلة على شانها، لازمة لمكانها،
 متصرفة على تهذيبه وتقريره، عاملة بأدابه: فوقوقها بوقوفه ومسيرها بمسيره.

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلى مخفواً بأنوار تجللى ما أنشأته سنابك الخليل، وتمحو
 آية تقع مئارها مقام ظلام الليل، وعليه من وقار الإمامة، وسكينة الخلافة،
 ما خصه الله تعالى به دون البرية وحده، لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وآله وجده،^(١) ولما انتهى إليه قصد [الحراب]^(٢) وأتمه، وأدى الصلاة
 أكمل أداء وأتمه، ثم انتهى إلى المنبر فعلاه، ومجدد الله تعالى وحده على ما أولاه،
 ووعظ وعظاً خوفاً عاقبة المعاصي والذنوب، وحل وكاء العيون ودأوى مرض
 القلوب، وأمر بسلوك سبيل الطاعات وأفعال البر، وحث على التوفى عليها في الجهر
 والسر، وعاد إلى قصوره المكرمه، ومواطنه المقدسه، وقد بذل في نصحه لله ولرسوله
 وللمؤمنين جهده، وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده.

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل، والتصحيح من المقام .

(٣) في الأصل «إلى الحراب فصلاه» ولا معنى لها .

أنبأك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتُدبِّعه قبلك على
الرسم فيما يُجاريه ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر، تارة مع آشتمال الدولة على
وزير، وتارة مع عدم آشتمالها على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أعلّى منار الملّة ، وشرف مَواَسم أهل القبلة ؛ وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كَفَلَه أمر الأنام ، فرأى الناس من حُسن سيرته أيقاظًا
ملايرونه مجازا في المنام ؛ وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافّة ،
وجعل العِصمة مُحيطَةً به حافّة ؛ فأطلع في ظلام الشُّرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمزّد فأتقل الوزرُ ظهّره ؛ وبين
عبادات كرم أجرها وعظّم ثوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحةً
أبوابها ؛ وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبي طالب مُظافره ومُظاهره ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ؛ ولم يزل حاملاً على المحجّة البيضاء جاعلاً ذلك
من قرّبه وذخائره ، قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرّماته وشعائره ؛ وعلى الأئمة
من ذرّيتهما نجوم الأرض وهداة أهلها ، والواجبة طاعتهم على من في وعبرها
وسهلها ؛ والدّائين بالمشرّفة عن حمى الشريعة ، والذين متابعتهم من أوجه ذريعه .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم

أظهر الله فيه قوّة الدولة وأقنذارها ، وأوجب فيه — رغبةً ورهبةً — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قُصوره الزاهرة عند أنفجار الفجر، وحافظت على ما تحرَّره من كريم الثواب وخزير الأجر؛ وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرَمات وأقوى الأذمة؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدفعه؛ وقصد المصلى في كتابه، ومواكب التعظيم مستوحيه؛ وعزرة نبيين في الشائيل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أريج الصفحات؛ قد غدت عددها محكمه؛ وخيولها مطهمة؛ وذوابها إذا ظمئت كانت مقومه، وإذا رويت عادت محطمة؛ تتقلد صفايح متى أنتضيت أنصفت من الحائر الحائف، ومتى أنتضبت عملاً كان اقتضابها مبيضا للصحائف؛ وفي ظلها معاقل للأنذين، ومجددها مصارع للنايذين؛ وهى للدماء هوارق، وللهمات فوالق، ولستغلق البلاد مفايح ولستفتحها مغالق .

ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه، وأستزل رحمة لم تزل بصلاته متماديه؛ وأنهى إلى المنبر فريقيه، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه؛ ووعظ أبلغ وعظ، وأبان عملاً للعامل بوضحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ . وعطف على الأضحى المعدة له فحرها جريا في الطاعات على فعلها المتهادى، وأضحى نتوق التكميل بإنجازه وعيده في الأعدى؛ فالله يقضى بتصديقه، ويمن بخياله وتحقيقه؛ وعاد إلى قُصوره المكرمة مشكورا سعيه، مضمونا نفعه؛ مرضيا فعله، مشمولاً عيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وأعمل به . وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزيره ، من إنشاء ابن قادوس ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ومحوّل الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد اللوعة والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرم ، وعلى أخيه أئمة المؤمنين على بن أبي طالب الذي ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبّر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين ، وحُوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم .

وإن من الأيام التي كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عزّ صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة كذا : وكان من قصصه أن الفجر لما سلّ حسامه ، وأبدى الصباح أبشامه ، نهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفئتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألّفوا صفوفًا تبهر النواظر ، ويحجل تألّفها تألّف زهر الرّوض الناضر ، مستصحين فنونا من الأزياء تروق ، ومستتبعين أصنافًا من الأسلحة يعرض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقه ، والرايات بألسنة النّصر ، على الإخلاص لإمام العصر ، متوافقه ، فأقاموا على تسوّف لظهوره ، وتطلّع للتبرك بلامع نوره .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجليلية، وظهرت طلعتها المعظمة البهية؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيدُ بنو العبيد؛ وأستقل ركاب أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناضل أحزاب الكفار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزارة، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير؛ ويخلص لله جل وعز وإمامه، ويكفكف من الأعداء بيدل الجهد في أعماله لهذمه وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متوافقة على أمثال أمره؛ قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً، وخيلت جنن الجند للناظرين في البرعبابا؛ والحياض المسومة تروج في أعينها، وتختال في مراكبها وأجلتها؛ وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً، وتفيد المتعرض لوضفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً وأشتطاطاً؛ وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تُسمعُ بشائر النصر بترجمة الصليل؛ ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكتيب المهيل.

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصلّى والتوفيق يكتنفه، والسعادة تصرفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاة، ونحا المنبر فشرّفه إذ علاه؛ وأدى الصلاة على أكل الأوضاع وأتمّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعمّها؛ وأنثى اللبدين المعدة فنحر ما حضر تقرّباً بالخالق، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذنوب، وطهر برويته القلوب، وبلغ الأمم من المرشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً ،
 وباطناً وظاهراً ؛ لتذيع نبأه في عمل ولأيتك ، وتُشيع خبره في الرعايا على جارِي
 عادتك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجاس النظر السیدی الأجلی بما أعمدته
 في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكتب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتب قد رُفِصَ وتُركَ استعماله بديوان الإنشاء
 في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبه بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبه من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك .
 ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة
 بذلك إلى ولاة الأعمال ، اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسُرور بوفائه ، الذي يترتب
 عليه الخصب المؤدى إلى العماره وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء
 الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام ؛ وكانت
 عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، وفتح الخليج
 وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة . ولعل فتح الخليج كان يتراخى في زمانهم
 عن يوم الوفاء ، فيفردون كل واحد منهما بكتب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبشارة به في الأيام الفاطمية ،
 من إنشاء ابن قادوس ، وهى :

النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ؛ فأولها بشكر تُشَرُّ
 في الآفاق أعلامه ، وأعتداده مُحْكَمٌ بإدراك الغايات أحكامه ؛ نعمة يشترك في النفع بها

العباد، وتبْدُو بركتها على الناطق والصامت الجماد، وتلك النعمة النيل المِصرى الذى تبرز به الأرض الجُرْز فى أحسن الملابس، وتظهر حُلُّ الرِّياض على القيعان والبسائس؛ وتُرى الكُنوز ظاهرة للعِيان، مُتبرجةً بالجوهر والتُّجِين والعِيان؛ فُسْبُحان من جعله سبباً لإنشار الموات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات، ووفّر به موادّ الأرزاق والأقوات؛ وهذا الأمر صادرٌ إلى الأمير، وقد منّ الله جلّ وعلا بوفاء النيل المبارك، وخُلع على القاضى فلان بن أبى الرِّدادِ فى يوم كذا وكذا، وطاف بالخَلع والتشريفات، والمواهب المُضاعفات؛ بالقاهرة المحروسة ومصر على جارى عادته، وقديم سيرته؛ ونوْدَى على الماء بوقائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وأستبشر بالنعمة بذلك الخلاق، وواصلوا بالشكر مواصلةً لا تستوقفهم عنها العوائق؛ وبدأ من مسرات الأمم وأبتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد، ويُنيلهم المنال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحميد. ومُوصَّل هذا الأمر إليك فلان، فاعتمد عند وُصوله إليك إكرامه وإعزازَه، وإجمال تلقّيه وإفضاله؛ إلى ما جرت به عادة مثله من رجاءٍ وتوْيه وأحتفاء، وإكرام وأعتناء؛ ليعود شاكرًا. فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفى، وهى :

أولى ما تحدّث به ناقله وراويه، وتَجَلَّ المَسرة به حاضره ورأيه، ما كانت الفائدة به شائمةً لا تتعزى، والنعمة به ذائمةً لا يتخصّص أحدٌ بشمولها ولا يميز؛ إذ كان علةً لتكاثر الأقوات، وبها يكون الثمائل فى البقاء والتساوى فى الحيات؛ وذلك ما منّ الله تعالى به من وفاء النيل المبارك : فإنه انتهى فى يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعاً وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وقد سيرنا أيها الأمير فلانا

بهذه البشري إليك ، وخصصناه بالورود بها عليك ؛ فتلقها من الشكر بمستوجبها ،
وأستقبلها من الأبتهاج والاعتباط بما يليق بها ؛ وأجعل الرسوم التي جرت العادة
بتوظيفها لفلان بن أبي الرداد محمولةً من جهتك إلى حضرتنا ، لتولى إليه من جهتنا ؛
فاعمل هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت ، يكتب به
في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالمالك الشامية عند وفاء
النيل ، وتسير به البريديّة ؛ وربما جى للبريدي من المالك شيء بسبب ذلك .
وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجي للبريدي شيء بسبب ذلك .



وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك .

ولا زال يروى عنه وإليه حديث الوفاء والنّدا ، ويورد على سمعه الكريم نبأ
الخصب الذي صفا موردا ؛ ويهني بكلّ نعمة تكفّلت للرعايا بمضاعفة الجود
ومرادفة الجدا ، ويخص بكلّ منة عمّت مواهبها الأنام فلن تنسى أحدا .

صدّرت هذه المكتابة إلى الجناب العالي : ومجرّ كرمها لا يتهى إلى مدى ،
ويشربُ بشرها دائماً أبدا ؛ تهدي إليه سلاماً مؤكدا ، وثناء أضخى به الشكر مرّدا ؛
وتوضّح لعالمه الكريم أن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخير
ما هو المألوف من إراداته ؛ ومنح مزيد النعم التي لم تزل تُعهد من زيادته ؛ فأسدى
معروفة المعروف إلى خلقه ، وأيدهم بما يكون سبباً لمادة عطاءه ورزقه ؛ فبلغهم
تأملهم ، وأجرى نيلهم ؛ وزادهم بسطةً في الأرض ، وملا به الملا وطبق به البلاد
طولها والعرض ؛ ونسّر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل

وجَدَيْهِ ، وبيْنَا هو في القَاصِ إذ بلغ بأذن رَبِّهِ ؛ بفعل من الذَّهَبِ لِبَاسِهِ ، وعَطَّرَ
بالشَّدَا أَنفَاسَهُ ؛ ولم يترك خِلَالَ قُطْرٍ إِلَّا جَاءَهُ بِقَاسِهِ ، ونَصَّ السِّيرَ فسيرَ نَصَّ مجيئه
في الأرض لَمَّا صحَّح بالوفاء قِيَاسَهُ ، وغازلته الشمسُ فكَسَّتْهُ حُمرةٌ أصيلها لما غَدَت
له بمشاهدتها مَاسَهُ ؛ ولم يكن في هذا العام إلا بمقدار ما قيل : أَقبلَ إذ قيلَ : وَفِي ،
ومد في الزيادة بَاعًا وبَسَطَ ذِرَاعًا ، وأطلق بمَوَاهِبِ أَصَابِعِهِ كَفًّا ؛ وعاجل إدراك الهَرَمِ
في آبتداء أمرِهِ مطال شَبَابِهِ ، ومَرَّ على الأرض فَحَلَا في الأفواه لَمَّا سَاغ شُكْرُ سَائِغِ
شَرَابِهِ ، وأَعتمد على نَصِّ الكِتَابِ العَزِيزِ فَكَادَ أَنْ يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ بَابِهِ .

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِبطِ بادرتُ إلى الوفاءِ
شِيمِهِ ، وَأَغْتَتِ أمواجهُ عن مِنةِ الشَّحْبِ فَدُمَّتْ عندها دِيمُهُ ؛ وزار البلادَ منه أَجْلُ
صَيِّفِ فَرَشَتْ له صَفْحَةً خَدَّها للقرى فَعَمَّها كَرَمُهُ ؛ وبلغ من الأذرعِ ستة عشر ذراعًا
ورفع لَوَاعَهُ بالمزيد ونَشَرَ ، وجاء للبشرِ بأنواعِ البُشرِ ؛ فرسمنا بتعليقِ سِترِ مِقْيَاسِهِ ،
وتَحْلِيقِهِ وتَضْوِيعِ أَنفَاسِهِ ؛ وفي صبيحة اليوم المذكور كَسِرَ سَدُّ خَلِيجِهِ على العاده ،
وبلغ الانام أَقصى الإِرادَةِ ؛ وتبشر بذلك العامُ والخاصُ ، وأعلنت الألسنةُ بحمدِ
رَبِّها بالإِخْلَاصِ ؛ وَسَطَّرَها وهو بفضلِ الله ورحمته مُتَتَابِعِ المَزِيدِ ، بَسِيطِ بَحْرِهِ
المديد ، مُتَجَدِّدِ الثَّمَوِيِّ في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الزَّيَادَةِ جَدِيدِ . فالجناب العالى يأخذ من
هذه البُشرى بأَوْفَرِ نَصِيبِ ، ويشكر نِعْمَةَ الله على ما مَنَحَ - إن شاء الله - هذا العامَ
الْحَصِيبِ ؛ وَيُدْبِعُ لها خَبْرًا وَذِكْرًا ، وَيُضَوِّعُ بَطْنًا هَنَأُها نَشْرًا ؛ ويتقدم بأن لا يُجِئِي
عن ذلك بشارَةٌ بِالْجُمْلَةِ الكافية ، لتغدو المِنَّةُ تامةً والمَسْرَةُ وَافِيَةً ؛ وقد جهزنا بهذه
المكتبة فلانا ، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نَوَابِ القِلاَعِ الفلانية [جربا] على
العادة ، فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة هِمَّتِهِ ، فيحيطُ عِلْمُهُ بذلك .

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعائة، وصورتها بعد الصدر :

وَبَشِّرْهُ بِأَخْصَبِ عَامٍ ، وَأَخْصِ مَسَرَّةَ هَنَاؤُهَا لِلوُجُودِ عَامٍ ، وَأَكْمِلِ نِعْمَةَ تَقَابُلِ
العَامِ مِنْ عَيُونِ الْأَرْضِ بِمَزِيدِ الْإِنْعَامِ .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدَى إليه أتمَّ سَلامٍ ، وأعمَّ ثناء تامٍ ؛
وتوضِّح لعليه الكريم : أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على
عوائد أطافه ، ومنح عباده وبلائه من مديد نعمة مزيد إسعافه ؛ وأورد الآمال
من جوده منهلًا غدبا ، وملاها به إقبالا وخصبا ؛ وأحيا به من موات الأرض
فاهترت وربت ، وأنبت كلَّ بهيج وأنجبت ؛ وأينعت الرياض بخرت فيها الروحُ
ودبت ، وأمتلأت الحياض ففاضت بالمياه وأنصبت ؛ وطلع كالبدر في آزياده ،
وتوالى على مديد الأرض بأمداده ؛ إلى أن بلغ حدّه ، ووصل الفرج ومنع الشده ؛
وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط ؛ وفاه الله ستة عشر
ذراعا فاه فيها بالنجح ، وعم ترأه الأرض فأشرق بعد ليل الحدب بالرخاء أضوا صبيح ؛
وفي ذلك اليوم علق ستره ، وخلق مقياسه فاشتهر ذكوه ، وكسر سده ، وتوالى مدّه ،
ونجز من الخصب وعده ؛ وعلا الترغ والجروف ، وقطع الطريق فأمّن من الحدب
الخوف ؛ وأقبل بوجهه الطلق الحيا ، وأسبل على الأرض لباس النفع فبدلها بعد
الظميريا ؛ فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ، ورأينا أن يكون للجناب العالى أوفر
نصيب من هذا الهناء الأعم ؛ وآثرنا إعلامه بذلك : ليكون في شكر هذه النعمة أكبر
مشارك ؛ فالجناب العالى يأخذ حظّه من هذه البُشرى ، ويتحقّق ماله عندنا من

المكانة التي خصّته في كلّ مُهَبَّجَةٍ بِالذِّكْرِ؛ ويتقدّم أمره الكريم بأن لا يُجِبُّ
عن ذلك حقّ بشاره، ولا يتعرّض إلى أحدٍ بخساره؛ وقد جهّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عشر

(فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخطّ اللوق)

عند وفاة النبل في كلّ سنة)

وهو مما يتكرر في كلّ سنة عند ركوب الميدان ، ويكتب به إلى جميع النواب
الأكابر والأصاغر ؛ وتجهّز إلى أكابر النواب خيولٌ مُحَبَّبة المثل الشريف ، ويرسم
لهم بالركوب في ميادين الممالك لِلْعِبِّ الكُرَّة ، تأسّيّاً بالسلطان ؛ فيركبون ويلعبون
الكُرَّة . والعادة في مثل ذلك أن تُنَشَأَ نسخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ،
ويكتب بها إلى جميع النواب ، لا يختاف فيها سوى صدرها ، بحسب ما يقتضيه
حال ذلك النائب .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كُتِبَ به في ذى القعدة سنة ستين
وسبعائة لنايب طرابلس ، وصورته بعد الصدر :

ولا زال يُحْمَلُ إليه أنباء ما يبرد غلته من مضاعفة السرور ، وتبث له أقوال الهناء
بما يجبُّ غلته من النصر الموفور ، وتخصّصه من إقبالنا الشريف بأكل تكريم
وأتمّ حبور .

صدرت هذه المكتبة تُهدى إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتوضّح لعلمه الكريم
أننا نتحقّق مضاء عزائم حرباً وسلاماً ، وأعتلاء هممه التي تُحرّس بها الممالك ونُجِّى ؛

وَأَنْ صَوَّافِنَهُ تُرْتَبُ لِرَكْضٍ ، وَتُحْبَسُ لِنَهْضٍ ؛ فَلذَلِكَ نُعَلِّمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ اسْتِظْهَارِنَا مَا يُبْهِجُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَاطِرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ خَامِسِ سُؤَالَ ، تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمَيْدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرْوَجُهُ ، وَظَهَرَ بِهِ نَيْرَانَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوجِهِ ، وَأَقْرَّ الْعَيُوبَ مِنْبِرُوجِهَا الْمُبَارِكِ وَبَهَّجَهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَلِيٍّ بِمَوْلَاةٍ إِنْغَامَنَا مَشْمُولًا ، وَبِمَنَالَاتٍ إِكْرَامَنَا مَوْصُولًا ؛ وَرَكَضَ الْأَوْلِيَاءُ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْقَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَطَفَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛ وَعَدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلِكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيَّدَ لِعَزْمِنَا الْمَعَانِ مَبْدَأً وَمَعَادًا ؛ وَآتَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمَيْمُونَةِ ، وَالْحَرَكَةَ الَّتِي هِيَ بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنَ السُّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهِنَا ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثالي شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مِيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَنْتَاهِي إِلَى مَدْيِ ، وَكُرَاتُ كِرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ كَنْجَمِ الْهُدَى ؛ وَمُدُورٌ صَوَالِحِهِ كَشَوَاحِرِ الْمُرَّانِ تَحْلُو بِتَأْيِيدِهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَقْدُو مَرِيرَةً لِلْعِدَا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيَّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَيَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَشَاءَ كَنْشِرِ الْأَرْضِ بِالنَّدَى ؛ وَتَوَضَّحَ لِعَلْمِهِ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتَّبِعُ سَنَنَ سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَتُجْرَى الْأُمُورَ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُنِيفِ ؛ وَنَرَى تَمْرِينَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَنُؤَيِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبٍ ؛

فذلك لا نُحِلُّ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إلى المِيدَانِ السَّعِيدِ، والركوبِ إليه في أَسْعَدِ طَالِعِ
يُمْدَى النَّصْرِ وَيُعِيدُ : لِمَا في ذلك من آتِهَاجٍ يَتَجَدَّدُ ، وأسبابِ مَسْرَّةٍ لِكَافَةِ الأَنَامِ
تَتَأَكَّدُ ، ودَعَوَاتِ أَسْتَهْتَهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَبِ الفَرْدِ ، ركبنا إلى المِيدَانِ
السَّعِيدِ في أُمَّمٍ وقتٍ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ ، وأَظْهَرَ في أَفْقِ العِساكَرِ مِنْ وَجْهِهَا
الشَّرِيفِ البَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ؛ وَلَمْ نَبْرَحْ يَوْمَنَا المَذْكَورِ في عَطَاءٍ نُجِيدِهِ ، وَإِنْعَامٍ نُفِيدِهِ ،
وَإِطْلَاقِ نُبْدِهِ وَنُعِيدِهِ ؛ والأولياءِ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ ، وَفِي بَحَارِ كَرَمِنَا المُنِيفِ
يَسْبَحُونَ ، وَفِي مِيدَانِ نَائِيدِنَا المُطِيفِ يَسِيحُونَ ؛ وَالكَرَاتِ كَالشَّمْسِ تَجَحُّ تَارَةً
وَتَغِيبُ ، وَتَحْشَى مِنْ وَقْعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِ مُصَفَّرٍ مُرِيبٍ ؛ ثُمَّ عُدْنَا إِلَى القَلْعَةِ
المَنْصُورَةِ عَلَى أُمَّمٍ حَالٍ ، وَأَسْعَدِ طَالِعِ بَلَّغِ الأَنَامِ الأَمَانَ وَالآمَالَ ؛ وَالعِساكَرِ بِجَدْمَتِنَا
الشَّرِيفَةِ مُحْدِقُونَ ، وَمَمَالِكِنَا بِعُقُودٍ وَلَانِنَا مُطَوَّقُونَ ؛ وَالرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السُّرُورَ أَثُوبًا ،
وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الأَبْتِهَاجِ أَبُوبًا ؛ وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الجَنَابِ بِذَلِكَ لِأَخَذِ حَظِّهِ مِنْ هَذِهِ
المَسْرَّةِ والبُشْرَى ، وَيُسْتَرْتَكُ هُوَ وَالْأَنَامُ فِي هَذِهِ التَّعَمَّةِ الكُبْرَى ؛ وَمَرَسُومُنَا لِلجَنَابِ
أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرُّكُوبِ بَيْنَ عِنْدِهِ مِنَ الأَمْرَاءِ فِي مِيدَانِ طَرَابُلُسَ المَحْرُوسَةِ ، وَيَلْعَبَ
بِالْكُرَّةِ عَلَى جَارِي العَادَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِيَسَاهِمَ أَوْلِيَاءَ دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَسْلُكَ
مِنْ طَرَفِهِمُ الجَمِيلَةَ أَجْمَلَ المَسَالِكِ .

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ المَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الإِنْشَاءِ ،
يُكْتَبُ بِهِ كُلَّمَا رَكِبَ السُّلْطَانُ إِلَى المِيدَانِ الصَّالِحِي بِخَطِّ اللُّوقِ ، إِلَى أَنْ عَطَّلَ جِيدَهُ
مِنَ الرُّكُوبِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بَرُوقِ » وَأَقْتَصَرَ عَلَى لَعِبِ الكُرَّةِ فِي المِيدَانِ
الَّذِي جَرَتْ بِهِ العَادَةُ ؛ فَتَرَكْتَ المَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الإِنْشَاءِ وَرَفِضَ اسْتِعْمَالَهَا .

الصنف الثامن عشر

(المكاتبة بالإشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محلّ الأخطار؛ وموقع الاختلاف وحدث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّاهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات ، وأن من النعمة [أن يمين] الله تعالى بقضاء المناسك ، والوقوف بالمشعر الحرام ، والطواف بالبيت العتيق ، والسعي بين الصفا والمروة ، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج ؛ ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق الكلمة في جميع هذه الأحوال ، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج ، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً ، وحرماً من دخله كان آمناً ؛ الذي اختار دين الإسلام على الأديان ، وأبتعت به صفوته من الإنس والجان ؛ مجداً أكرم نبي معذّب بن عدنان .

يمجده أمير المؤمنين أن أعانه على تادية حقه ، ونصبه لكفالة خلقه ؛ ووفقه للعمل بما يرضيه ويؤدني إليه . ويسأله أن يصلّي على خير من غار وأئجد ، وصدر وورد ؛ وركع وسجد ، ووحّد ومجّد ، وصلّى وعبد ؛ وحلّ وأحرم ، وحجّ الحرم ؛ وأتى المستجار والمكتمّم ، والحطيم وزمزم ، مجد سيد ولد آدم ؛ وعلى أخيه وابن عمّه مصباح الدلالة ، وحجاب الرّسالة ؛ إمام الأمة ، وباب الحكمة ؛ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ،

مُزَّقِ الكُتَّابِ ، وَمُزَّقِ المَوَاقِبِ ، وَمُحَطِّمِ القَوَاضِبِ ، فِي القُلَّالِ وَالْمَنَاقِبِ ، وَعَلَى الأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الهَادِينَ ، صَلَاةً بَاقِيَةً فِي العَالَمِينَ .

وإنَّ أَوْلَى النِّعَمِ بَأَن يُسْتَعَدَّبَ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَعَطَّرَ نَشْرُهَا ، وَتُحَدَّثَ بِهَا الأَلْسِنَةُ ، وَتُعَدَّ فِي مَوَاهِبِ اللهِ الحَسَنَةِ ؛ نِعْمَ اللهُ تَعَالَى فِي التَّوْفِيقِ لِحَجِّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَابَةً لِرِزَائِيهِ ، وَالإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الَّذِي يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ؛ وَالتَّزْوِيلَ بِأَفْنِيَّتِهِ الَّتِي مِنْ يَحْدُمِ بِهَا فَقَدَ أَنْسَلَخَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ؛ وَكُتَابَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ هَذَا إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفْرِ الأَوَّلِ : وَقَدْ قَضَى بِحَمْدِ اللهِ تَفَنُّهُ ، وَوَفَّى نَذْرَهُ ؛ وَتَمَّ حَجَّهُ ، وَكَمَّلَ طَوَافَهُ ؛ وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَهُ ؛ وَوَقَفَ المَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِيًا رَاجِيًا ؛ وَعَرَّفَهُ بِعَرَفَاتٍ إِعْلَامَهُ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلْبِيَّتِهِ ، وَبَلَّغَهُ فِي مَنَى أَمَانِيَّتِهِ مِنْ رَأْفَتِهِ ؛ وَأَرَاهُ مِنْ مَحَابِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَائِلِ المَغْفِرَةِ ؛ مَا تَلَأَّتْ أَنْوَارُهُ ، وَتَوَسَّحَتْ آثَارُهُ ؛ وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ العِبَارَةِ فِي شُمُولِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحَجِّهِ ، وَوَقَفَ مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرِعِيَّتِهِ ؛ وَأَنْعَمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَأَجْتِمَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ؛ وَأَكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الإِخْتِلَافِ وَالمُبَايَنَةِ بَيْنِهِمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يَصْدُرُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ البَيْتِ الحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرَمَعَ الأَنْكَفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعَرَكُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ ، فِي عِزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ؛ وَأَمْتِدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ : لِتَأْخِذِ بِحِظِّكَ مِنَ الأَبْتِهَاجِ وَالجَدَلِ ، وَتُدْيِعَهُ بَيْنَ أَهْلِ العَمَلِ : لِيشَارَكَكَ العَامَّةُ فِي العِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخَالِصُوا اللهُ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المآرب ، وتسهيل المقاصد ، وإدراك الأوطار ، وشمول النعمة في الذهاب والإياب ، وما يجري مجرى ذلك مما يخرب في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإنعام ، والفضل والإكرام ، والمنن العظام ، والأبدي الحسام ، الذي أرعى أمير المؤمنين من حياتنه عينا لا تنام ، وأستخدم لحراسته والمرامة دونه الليالي والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظن والمقام .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَّق به أساليب النقص والإبرام ، ويسأله الصلاة على من آخضه بشرف المقام ، وأبتغته بدين الإسلام ؛ وجلا به حنادس الظلام ، مجد حاتم الأنبياء الكرام ؛ وعلى أخيه وأبن عمه الهمام الضرغام ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب مكسر الأصنام ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُستدرا لأخلافها ، متصببا لقطافها ، ويُفيض في ذكرها ، مُستدعيا للزيادة بشكرها ؛ ويُطلع خُلصاءه على حُسن آثارها لديه : وسُبوح ملائمتها عليه ؛ ليأخذوا بحظ من الغبطة والاستبشار ، ويسرحوا في مسارح المباح والمَسَارِب ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقر ركابُه بناحية كذا ، مبشرا لك بنعمة الله في حياتنه ، وموهبته في سلامته ؛ وما أولاه من انارة (؟) الدليل ، وتسهيل السبيل ؛ وطى الجاهل ، وتقريب المنازل ، وإعذاب المناهل ؛ وإنالة الأوطار ، وتدميث الأوطار ؛ وبركة المتصرف ، وسعادة المنصرف ؛ ووُصوله إلى مقصده

قَرِيرَ الْعَيْنِ ، قَلِيلَ الْإِيْنِ ؛ مَحْفُوظًا سَارِيًّا وَأَثْبًا ، مَكْلُوعًا عَائِدًا وَذَاهِبًا ؛ مُسْرَدَ النَّصَبِ
 مَسْرُورًا ، مَوْفُورَ النَّصِيبِ مَحْبُورًا ؛ فِي أَجْتِمَاعِ مِنْ كَلِمَةِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنُفُوزِ
 بَصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ زَايَتِهِ ؛ وَإِعَانَتِهِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأَسْتِرْعَاهِ مِنْ بِلَادِهِ : لِيَأْخُذَ
 بِالْحِطِّ الْأَجْزَلِ ، مِنْ الْأَبْتِهَاجِ وَالْحَذَلِ ؛ وَيَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ،
 وَيُضِيفُهَا إِلَى سَوَالِفِ نِعَمِهِ التَّالِدَةِ ؛ وَيُذَيِّعُهَا بَيْنَ رَعِيَّتِهِ ، وَأَنْصَارِ دَعْوَتِهِ ؛ لِيَشْتَرِكُوا
 فِي آرْتِسَافِ لُعَائِمِهَا ، وَاللِّتْحَافِ أَنْوَابِهَا ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .
 قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَةِ قَلِيلُ الْوُقُوعِ ، فَإِنْ وَقَعَ مِثْلُهُ
 لِلْكَاتِبِ فِي زَمَانِنَا ، خَرَّجَهُ عَلَى نِسْبَةِ الْأَسْلُوبِ الْمَتَقَدِّمِ .

الصنف التاسع عشر

(الكُتَابَةُ بِالْإِنْعَامِ بِالتَّشَارِيفِ وَالِخَلْعِ)

وهذا الصَّنْفُ مِمَّا أَغْفَلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَلَا يَدُّ مِنْهُ .
 والرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَكْتُبَ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَوْ السُّلْطَانِ إِلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي الطَّاعَةِ ،
 أَوْ ظَهَرَتْ لَهُ آثَارُ كِفَايَةِ : كَفَتْحِ أَوْ كَسْرِ عُدُوٍّ ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ .
 وَهَذِهِ نَسْخَةُ كِتَابِ كَتَبَ بِهِ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّاهِبِيُّ عَنِ الطَّائِعِ لِهَ ، إِلَى صَمَّامِ الدَّوْلَةِ
 ابْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، قَرِينَ خَلْعِيَّةٍ وَفَرَسِيٍّ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ دَهَبٍ وَسَيْفٍ
 وَطَوْقٍ ، وَهِيَ :
 مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْإِمَامِ الطَّائِعِ لِهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى صَمَّامِ الدَّوْلَةِ
 وَشَمْسِ الْمَلَّةِ أَبِي كَالِجَارِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمَلَّةِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن
يُصَلِّيَ على جده محمد عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

أما بعد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المِثْلَةَ العُلَيَّا،
وأنا لك من أُنْتَرْتَهُ الغَايَةَ القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضْدَ الدَّوْلَةِ وتاج المِلَّةِ
- رحمة الله عليه - من القَدْرِ والمَحَلِّ ، والمَوْضِعِ الأَرْفَعِ الأَجَلِّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند
كُلِّ أَثْرِيكُونٍ منك في الخدمه ، ومَقَامِ حَمْدِ تَقْوَمِهِ في حِمَايَةِ البَيْضِ ؛ إنعاماً يُظَاهِرُهُ ،
وإِكْرَاماً يُتَابِعُهُ ؛ ويُوَاتِرُهُ ؛ والله يَزِيدُكَ من توفيقه وتسديده ، ويمدِّدكَ بمَعُوْنَتِهِ وتأييده ؛
ويَجِيْرُ لأمير المؤمنين فيما رَأَيْتَهُ مُسْتَمِرًّا عليه من مَزِيدِكَ وتمكينك ، والإِبْقَاءِ بك
وتعظيمك ؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتَوَكَّلُ وإليه يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من [أمر كردويه] كافر نعمة أمير المؤمنين^(١)
ونعمتِكَ ، وجاحِدَ صَنِيعَتِهِ وصَنِيعَتِكَ ؛ في الوَثْبَةِ التي وثبها ، والكبيرة التي آرتكبها ؛
وتَقْدِيرِهِ أن يَنْتَهَزَ الفُرْصَةَ التي لم يَمِكَّنْهُ اللهُ منها ، بل كان من وراء [ذلك] دَفَعَهُ
ورَدَّهُ عنها ؛ ومعاجَلَتِكَ إِيَّاهِ الحَرْبَ التي أصلاه اللهُ نَارَهَا ، وَقَنَعَهُ عَارَهَا وشَنَارَهَا ؛
حتى أَنهزم والأَوْغَادُ الذين شَرِكُوهُ في إثارة الفِتْنَةِ ، على أقبح أحوال الذَّلَّةِ والقِلَّةِ ؛
بعد القَتْلِ الدَّرِيعِ ؛ والإِثْمَانِ الوجيع . فالحمد لله على هذه النعمة التي جَلَّ مَوْقِعُهَا ،
وبان على الخِصَّةِ والعامة أُنْرُهَا ؛ ولَزِمَ أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نَشْرُهَا
والحديثُ بها ، وهو المسئولُ إقامتها وإدامتها برحمته .

(١) تقدم في هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند ذلك أنرا .

(٢) الذي تقدّم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدّم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
 بِخَلْعِ نَامَةٍ، وَدَابَّتَيْنِ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَرَاكِبِهِ، وَسَيْفٍ وَطَوِيقٍ وَسِوَارٍ مُرْصَعٍ .
 فَتَلَقَّ ذَلِكَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَالْإِعْتِدَادِ بِنِعْمَتِهِ فِيهِ ؛ وَالْبَسِ خَلْعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَتَكْرِمَتَهُ ، وَسِرِّ [مِنْ بَابِهِ] عَلَى حَمَلَاتِهِ ، وَأَظْهَرِ مَا حَبَّكَ بِهِ لِأَهْلِ حَضْرَتِهِ ، لِيُعْزَّزَ
 اللَّهُ بِذَلِكَ وَلِيَّهِ وَوَلِيِّكَ ، وَيُدَلَّ عُدْوَهُ وَعَدُوُّكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ
 وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وَكَتَبَ فَلَانٌ لَثْمَانَ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ نَحْمَسٍ وَسَبْعِينَ
 وَثَلَاثِينَ : أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِكَ ، وَأَدَامَ عِزَّكَ ، وَأَجْزَلَ حِفْظَكَ وَحَيَاطَتَكَ ، وَأَمْتَعَ أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَبِالنَّعْمَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ .

قلتُ : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ على الاستعمال ، متى أُنعم
 السلطانُ على نائبِ سُلْطَنَةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بِخَلْعَةٍ بعث بها إليه وَكُتِبَ
 قَرِينَهَا مِثْلًا شَرِيفًا بِذِكْرِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ أَهْمَلُ فِي ذَلِكَ السَّجْعُ وَالْأَزْدِوَاجُ ، وَأَقْتَصَرَ
 فِيهِ عَلَى الْكَلَامِ الْمَحْلُولِ كَمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ ، إِلَّا فِي النَّادِرِ الْمُعْتَمَدِ بِشَأْنِهِ .

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتَّنْوِيهِ والتلقيب)

قال في "مواد البيان" : جرت عادة الخلفاء بالكاتب بالتلقيب ، لأن اللقب موهبة
 من مواهب الإمام : أمضاها وأجازها ؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نعمة التي يمنحها
 على عبيده ؛ والكنية تَكْرِمَةٌ يَسْتَعْمَلُهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَلَيْسَ حُكْمُهَا حُكْمَ اللَّقَبِ .

(١) بياض بالأصل والصحيح عما تقدم (ج ٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) سماه فيما تقدم « أحمد بن محمد » .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعْمِ السَّابِغَةِ الضَّافِيَةِ ،
 وَمَوَاهِيهِ الزَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وَزِيَادَةً لِلشَّاكِرِينَ ؛
 ونحو هذا مما يليق أن يفتح به هذا الغرض ؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه
 وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بما خوله الله تعالى من نِعْمِهِ ، وبَوَاهٍ من قِسْمِهِ ؛ وَخَصَّهُ
 به من التمكن في أرضه ، والمعونة على القيام بفرضه ، يرى المن على خُصَّائِهِ ،
 وإسبَاحَ النِّعَمِ على أوليائه ؛ وَأَخْصَصَهُم بالنصيب الأوفر من حَبَائِهِ ؛ والإمالة بهم
 إلى المنازل الباذِخَةِ ، والرُّتَبِ الشَّائِخَةِ . وإن أَحَقَّ من وَفَرِ قِسْمُهُ من مواهبه ، وغزُرُ
 سَهْمُهُ من عَطَايَاهُ وَرِعَايَتِهِ ؛ مَنْ تَمَيَّرَ بما تَمَيَّرَتْ به من إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
 وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ؛ وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسَرِيرَةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ؛ ولذلك
 رأى أمير المؤمنين أن ينعتك بكذا لأشتقاقه هذا النعت من سماتك ، وأستنباطه إياه
 من صفاتك ؛ وشرَّفَكَ من ملابسه بكذا ، وطَوَّقَكَ بطوقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفٍ
 من سيوفه ، وَعَقَدَ لَكَ لِيَؤَاءَ من أَلْوِيَّتِهِ ، وَحَمَلَكَ على كَذَا من خَيْلِهِ وَكَذَا من
 مَرَاكِبِهِ . وَبِحُسْنِ الوَصْفِ في كُلِّ نَوْعٍ من هذه الأنواع وَأَشْتِقَاقِ الألفاظ
 من معانيه ، يعرب عن قَدْرِ الموهبة فيه . ثم يقال : إِبَانَةٌ لَكَ عن مكانك من حَضْرَتِهِ ،
 وَإِبَانَةٌ على تَشْمِيرِكَ في حِدْمَتِهِ ؛ فَالْبَسُ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوُّقُ ، وَتَقَلُّدُ مَا قَلَّدَكَ بِهِ ؛ وَأَرْكَبُ
 حَمُولَاتِهِ ، وَأَبْرُزُ لِلخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ في ملابس نَعْمَائِهِ ، وَأَرْفُلُ في حَلْلِ الآئِنَةِ ، وَزَيْنُ
 مَوَكِّبِكَ بِلَوَائِهِ ؛ وَقُلْ ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ وَأَعِنِّي على
 مَا يَسْتَرْهِنُهَا لَدَيَّ ؛ وَخَاطِبُ أمير المؤمنين متلقبا بِسِمَتِكَ ، مُتَنَعِّتًا بِنِعَّتِكَ .

وهذه نسخة مكتوبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي ،
 أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قرَّرَ الحافظ نُعُوته : السَّيِّدُ ، الأَجَلُّ ،

الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين،
وهادى دعاة المؤمنين، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرّد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزلية ؛ وأبدع من برأ
وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ؛ وأصطفى لتديريهم فى أرضه من بعثه برسالته ،
وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته ؛ وصلّى الله على جدنا محمد
رسوله الذى جعل رتبته اخيراً ونبوته أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه
رسولاً ؛ وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ذخره لخلافته ،
وأيدّه بوزارته ؛ مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأيد الوحي الظاهر من غير خفاء ؛
بحيث لا يفتقر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ؛ وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه
فى الأرض من عباده ، وتمثيلاً نصّ - جلّ وعزّ - إلى قصده وأعتاده ؛ لما فيه من
ضمّ النشْر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمن فيها من مَدافع ؛
وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته ، والمتقين له حقّ تقاته ، والكافرين لكلّ
مؤمنٍ بأمانه يوم الفرع الأكبر ونجاته ؛ وسلّم عليهم أجمعين ، سلاماً متصلاً إلى
يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصّه به
من منزلته التى فضّله بها على جميع العالمين ؛ فجعله خليفة فى الأرض ، والشّفيع لمن
شايعه يوم الحساب والعرض ؛ وأجزل له من مننه ما لا يباهضه شكر إلا كان ظالماً ،
ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً ؛ وإن من
أرفعها مكاناً ، وأعظمها شاناً ؛ وأنعمها قدراً ، وأنبهها ذكراً ؛ وأعمّها نفعاً ، وأحسنها
صنعاً ؛ وأغزرها مادّة ، وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردةً نأده ؛ وأعودها فائدة

على الخاص والعام ، وأضمنها للسَّعْدِ المُسَاعِدِ والحِظِّ الوافر التَّامِ - ما كان من المنَّةِ
الشامخة الذرى ، والمنحةِ الشاملة لجميع الورى ؛ والعارفة التي أعترف بها التوحيد
والإسلام ، والموهبة التي [إذا] أنفق كلُّ أحدٍ عمره في وصفها وشكرها فما يُعَدُّ ولا
يُلام ؛ والآية التي أظهرها الله للملَّةِ الحنيفية على قرةٍ من الرُّسل ، والمعجزة التي هدى
أهله لها دون كافة الأمة إلى أعدل السُّبُل ؛ والبرهان الذي خصَّ به أمير المؤمنين
وأظهره في دولته ، والفضيلة التي أبانت مكانه من الله وكريم منزلته ؛ وذلك ما منَّ الله
به على الشريعة الهادية ، والكلمة الباقية ؛ والخلافة النبوية ، والإمامة الحافظية ؛
منك أيها السيد الأجل الأفضل : ولقد طال قدرك في حلال الثناء ، وجلَّ استحقاقك
عن كلِّ عِوضٍ وجرأ ؛ وغدت أوصافك مسألة آجتاج وأتلاف ، فلو كانت مقالة لم
يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمد استيجابك
من متحيه ، أو يتسهل إدراك شأوه على طالبه ومبتغيه ؛ والإيمان لو تجسم لكان
على السعي على شرك أعظم منابر ، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيبا
على المنابر ؛ فأما الشرك فلو أبقيته حيا لتصدى وتعرض ، لكنك أنحيت عليه
وأدلت التوحيد منه فانهت بناؤه بحمد الله وتقوى ؛ فكان لك في حق الله العصب
الذي تقربت به إليه فأرضيته ، والعزم الذي صممت عليه في نصرة الحق فأمضيته ؛
والباطن الذي أطلع عليه منك فنصرك ولم ترق دما ، ولا روعت مساما ؛ ولا أقلقت
أحدا ولا أزعجت ، ولا عدلت عن منهج صواب لما أتهجت ؛ وذلك مما أشرك
الكافة في معرفته ، وتساووا في علم حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المظفرة
صحبة أخيك الأجل الأوحَد : أدام الله به الإمتاع وعضده ، وأحسن عنه الدفاع
وأيدته ؛ مما جرت الحال فيه بحسن سياستك ، وفضل سيادتك ؛ على أفضل ما عودك الله
من بلوغ آمالك ، من غير أذى لِحَقَّ أحدا من رجالك ؛ والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأمين من ضياءِ فَلَاقِ الصَّبَاحِ ؛ وهذا إذا تأمَّله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ؛ وأن يُؤَلِّبَكَ من مَنَّتِهِ ، أقصى ما في استطاعته وقُدْرَتِهِ ؛ ولم يَرَأْ أَحْضَرَ من أن قرَّرَ نُعُوتَكَ «السَّيِّدُ، الأَجَلُّ، الأَفْضَلُ» ، أمير الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضَاةِ المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين ، أبو الفَتْحِ رِضْوَانِ الحَافِظِيَّ » إذ لا أولى منك بكفالة قُضَاةِ دَوْلَتِهِ وإرشادِهِمْ ، وهِدَايَةِ دُعَاتِهَا إلى ما فيه نَجَاةُ المُسْتَجِيبِينَ في مَعَادِهِمْ ؛ وجدد لك ما كان قَدَمَهُ : من تكفيلك أمرَ مَمْلَكَتِهِ ، وإعادةِ القَوْلِ فيما أسلفه من رَدِّهِ إليكَ تَدْبِيرَ ما وراءَ سِرِّيرِ خِلافتِهِ ؛ التِّدَاذًا بِتَكَرُّارِ ذَلِكَ وترديده ، وأَبْتِهَاجًا بِتَطْرِيحِهِ ذِكْرَهُ وَتَجْدِيدِهِ ؛ فَأُمُورُ المِلَّةِ والدَّوْلَةِ مَعْدُوقَةٌ بِتَدْبِيرِكَ ، وأحوالُ الأَدَانِي والأَقَاصِي موكولةٌ إلى تَقْرِيرِكَ ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدامِ الأَقْلَامِ ، وجعلَ السِّيَادَةَ لك على سائرِ القُضَاةِ والدُّعاةِ والحُكَّامِ ؛ وأَسْجَلَ لك بالأَخْتِصَاصِ بالمَعَالِي والأَنْفِرَادِ ، والتَّوْحِيدِ بأنواعِ الرِّيَاسَاتِ والأَسْتِبْدَادِ ؛ ولك الإِبْرَامُ والنَّقْضُ ، والرَّفْعُ والحَفْضُ ؛ والوَلَايَةُ والعَزْلُ ، والتَّقْدِيمُ والتَّأخِيرُ ، والتَّنْوِيهُ والتَّامِيرُ ؛ فالقَدَمُ من قَدَمَتِهِ ، والمحمود من حَمْدَتِهِ ؛ والمؤخَّر من أُنْحَرَتِهِ ، والمذموم من ذَمَّتِهِ ؛ فلا مَخَالَفَةَ لِمَا أَحْبَبْتَهُ ، ولا مَعْدِلَةَ عَمَّا أَرَدْتَهُ ؛ ولا تَجَاوَزَ لِمَا حَدَدْتَهُ ، ولا خُرُوجَ عَمَّا دَبَّرْتَهُ ؛ وأبن ذلك مِمَّا يُضْمِرُهُ لك أمير المؤمنين وَيَتَوَيَّهُ ، ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدهر يُعِيدُهُ وَيُؤَيِّدُهُ ؟ ولو لم يكن من بركاتك على دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، وَيُؤَيِّنُ تَدْبِيرِكَ العائد على الإسلام والمسلمين ، إلا أن أَوَّلَ عَسْكَرِ جَهْرَتِهِ إلى جِهَادِ الكُفْرَةِ المَلَاعِينَ : وكان له النَّصْرُ العَزِيزُ الَّذِي تَبَلَّجَ بَجْرِهِ ، والفَتْحُ المُبِينُ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ وَأَنْتَشَرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالظَّفَرُ المُبِيعُ لِلدِّينِ - العَسْكَرُ المَنْصُورُ (١) على الطائفة الكافرة : قَتَلًا لأَبْطَاطِهَا ، وَأَسْرًا لأَعْنَاقِ رِجَالِهَا ؛ وَأَخْذًا لِغَلَاغِ المَلْسَرَةِ

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فواتها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكفرة" .

منها، وأنه لم يُقَلِّتْ من جماعتها إلا مَنْ يُحْبِرُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تَضَمَّنَه هذا السِّجْلُ لما أَقْتَصَرَ عليه ، إلا أنه عَاجَلَهُ ما يَسُرُّه بِفَاحِرٍ لَكَ^(١) بما هو مُسْتَقَرٌّ لَدَيْهِ ؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يُجِدُّكَ السُّعُودَ ، وَيُحْصِكَ مِنْ مَوَاهِبِهِ بما يتجاوز المعهود ؛ وَيَمُدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتَّأْيِيدِ ، وَيَقْضِي لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ كَمَا يَلَازِمُ مَوْضِعَ فِيهِ لِلزَّيْدِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الكُتُبِ السَّلْطَانِيَّةِ قَدْ رُفِضَ وَتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ فِي زَمَانِنَا فَلَا مَعْوَلَ عَلَيْهِ أَصْلًا .

الصنف الحادى والعشرون

(المكاتبَةُ بالإِحَادِ والإِذْمَامِ)

قال في "مواد البيان" : السَلْطَانُ مَحْتَاجٌ إِلَى مَكَاتِبَةٍ مَنْ يَقِفُ مِنْهُ عَلَى طَاعَةِ وَأَجْتِهَادِ ، وَمُنَاصِحَةٍ وَإِحْلَاصِ ، بِالشُّكْرِ والإِحَادِ ، وَالبَعْثِ عَلَى الأَزْدِيَادِ مِنَ المَخَالِصَةِ وَحُسْنِ السَّعْيِ فِي الخِدْمَةِ وَغَيْرِهَا ؛ بما يَرْتَبِطُ بِهِ النِّعْمَةُ ، وَيَسْتَوْجِبُ مَعَهُ حِفْظَ الرِّتْبَةِ . وَمَكَاتِبَةٍ مَنْ يَعْتَرُ مِنْهُ عَلَى تَقْصِيرِ وَتَضَجِّعِ ، وَتَفْرِيطِ وَتَضْيِيعِ ؛ بِالدَّمِّ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّنَائِبِ : لِأَنَّهُ لَا يَجْلُو أَعْوَانُ السَّلْطَانِ مِنْ كُفَاةِ يَسْتَدِيمِ كِفَايَتِهِمْ بِتَصْوِيبِ مَرَامِيهِمْ ، وَاسْتِحْسَانِ مَسَاعِيهِمْ ؛ وَإِحْمَادِهِمْ عَلَى تَشْمِيرِهِمْ ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ بِسَيْطِ آمَالِهِمْ ؛ وَالعِدَّةِ بَرَفِ مَنَازِلِهِمْ وَمِحَالِّهِمْ ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَلَى نَظَائِرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ ؛ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِيخِ وَتَقْدِيمِ الأَعْذَارِ ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ المَرَاتِبِ ، وَوُقُوعِ المَصَابِرِ وَالعَوَاقِبِ .

(١) فِي الأَصْلِ "وَشَاهِدٌ" .

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعاني الناجعة في الغرضين ، ويتوسط فيهما سبباً التوسط الذي يقتضيه الحال المقاض فيها : لأن في ذلك تقريراً للمُحسِن على إحسانه ، ونقلاً للمُسيء عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثاب على نَهْضَتِهِ ، وألوانِي أنه مُعاقَبٌ على وَبَيْتِهِ ؛ أجتهد هذا في الاستظهار بِخِدْمَتِهِ بما يزيد في رُتْبَتِهِ ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتغيُّر حالته . ثم قال : والرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، ونشعب بِنَشْعَبِ معانيها ؛ والأمر في ذلك موكولٌ إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلِّ شَيْءٍ في موضعه ، وترتيبه إياه في مرتبته .

فأما المكتبة بالإحمد ، فكما كُتِبَ عن صَمَّامِ الدولة بن عَضِدِ الدَّوْلَةِ بن بُوَيْه ، إلى حاجب الحُجَّابِ أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على مُحارَبَةِ باد الكردى .

كاتبنا ، ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا ، تذكُّر فيه ماجرى عليه أمرُك في الخِدْمَةِ التي نِيَطَتْ بِكِفَايَتِكَ وَغَنَائِكَ ، وُوكِلْتَ إلى تديرك ووفائك : من رد باد الكردى عن الأعمال التي تطرقها ، وحدث نفسه بالتغلب عليها ؛ وتصرَّفك في ذلك على موجبات الأوقات ، والتردد بين أحنينا وعدتنا أبي حرب : زياد بن شهر الكويه وبينك من المكاتبات ؛ وحسن بلائِك في تحيفه ، ومقاماتك في حص جناحه ، وآثارك في الانقضاض على فريق بعد فريق من أصحابه ؛ وأضطارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي أستمعتها ، والسياسات التي سُست أمره بها ؛ إلى أن نزل عن وُورَةِ المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع عن السوم إلى الاقتصاد ، وعن السرف إلى الاقتصاد ؛ وعن الإباء إلى الانقياد ،

وعن الأعتياص إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقر على أن قيلت منه الإنابة، وبذلت له فيما طلب الاستجابة؛ وأستعبد إلى الطاعة، وأستضيف إلى الجماعه؛ وتصرف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمه الجملة؛ وأخذت عليه بذلك العهود المستحكه، والأيمان المغلظه؛ وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وضربت عليها حدوده، وفهمناه .

(١) وقد كانت كتبُ أختينا وعدتنا أبي حرب [زيد بن شهر الكويه] مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا؛ مشتملة على كُتُبِك إليه، ومطالعاتك إياه؛ فنعرف من ذلك حسن أثرِك [وحزم رأيك] (١) وسداد قولك، وصواب اعتمادك؛ ووقوع مضارِبِك في مقاصِلِها، وإصابة مرَامِك أغراضها؛ وماعدوت في مذاهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها؛ المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا؛ ولا حلت كتبُ أختينا وعدتنا أبي حربٍ من شكرٍ لسعيك، وإحمادٍ لأثرِك؛ وثناءٍ جميلٍ عليك، وتلويحٍ وإفصاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك، والمؤالاة اللازمة لك؛ والوفاء الذي لا يستغرب من مثلك، ولا يستكثر من حلٍّ في المعرفة محلِّك؛ ولئن كنت قصدت في كل نهجٍ استمرت عليه، ومعدلٍ عدلت إليه؛ مكافئةً هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته؛ والتماس الظهور عليه في جميع ما تراجعتماه من قول، وتنازعتاه من حد؛ فقد أجمع لك إلى إحمادنا إياك، وأرضائنا ما كان منك؛ المنةً عليه إذ سكنت جاشه، وأزلت استيحاشه؛ وأسألته من دنس لباس الخالفه، وكسوته حسن شعار الطاعة؛ وأطلت يده بالولاية، وبسطت لسانه بالحجّه؛ وأوقيت به على مراتب نظرائه، ومنازل قُرَّانِه؛ حتى هابوه هيبة الولاه، وأرتفع بينهم عن مطارح العصاه .

(١) الزيادة عن رسائل الصابي المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا، وعند أخينا وعدتنا أبي حربٍ مشكورا؛ وعلى هذا الرجل مانا، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثنابا ماجورا؛ وإياه نسأل أن يُجِرَى علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا، ونصرة أوليائنا؛ والحكم لنا على أعدائنا، وإنزالهم على إرادتنا؛ طوعا أو كرها، وسائما أو حربا؛ فلا يخلوا أحدا منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربة أسرا، أو مينة عفو؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير، وعليه قدير.

ويجب أن تُنفذ إلى خضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردى إن كنت لم تُفذهها إلى أوانٍ ووصول هذا الكتاب : لتكون في خزائنا محفوظة، وفي دواويننا منسوخة؛ وأن نتصرف في أمر رُسُلِهِ وفي بَقِيَّةِ - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حربٍ، فرأيك في العمل على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك؛ وما يُحتاج إلى علمه من جهتك، موقفا إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوّم فيه والمدموم بسببه. فمن ذلك الدم على [ترك] الطاعة وشقّ العصا.

كما كتب عمارة يصف شخصا بأنه لما ارتفع مكانه، وعلا قدره؛ بَطَرَ معيشتَه، ونُحِرَ عن طاعة الخليفة؛ وأن فلانا كان ممن عُرفَت حاله : في غموض أمره، ونحوّل ذكره؛ وضيق معيشتَه، وقلة عدده وناهضته؛ ولا تُجاوز حياته ما يقوله، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه؛ ولا يمينه نفسه، ولا يدفع يد لأمس عنه بقوة تنوء بملا، ولا عز يلبأ إليه. فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه، وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا تُرجى له؛ وبسط له من الدنيا، وآتاه من غَضَارَتِهَا ونِعْمَتِهَا، وعزّها وسلطانها، ما لم يُؤت أحدا من أهل زمانه. فلما مكّن الله

له في الدنيا طغى وتَجَبَّرَ، وَعَلَا وَتَكَبَّرَ؛ وَظَنَّ أَنَّ الَّذِي كَانَ فِيهِ شَيْءٌ قَادَهُ إِلَى نَفْسِهِ
بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ : تَهْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَسْتَدْرَاجًا مِنْهُ لَهُ .

وَمَا كَتَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي مِثْلِهِ :

أَمَا بَعْدَ ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ أَمْرٌ لَمْ يَحْتَمِلْهُ لَكَ ، إِلَّا مَا أَحَبَّ مِنْ رَبِّ
صَنِيعَتِهِ قَبْلَكَ ، وَأَسْتِثْمَامَ مَعْرُوفِهِ إِلَيْكَ ؛ وَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا فَسَدَ
مِنْكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ عُدْتَ لِمِثْلِ مَقَالَاتِكَ ، وَمَا بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ؛ رَأَى فِي مُعَاجَلَتِكَ
رَأْيَهُ ؛ فَإِنَّ النَّعْمَةَ إِذَا طَالَتْ بِالْعَبْدِ مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْهُ : فَأَسَاءَ حَمَلُ الْكِرَامَةِ ، وَأَسْتَنْقَلَ
الْعَافِيَةَ ؛ وَنَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ نَبْتِهِ وَرَهْطِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ
الْغَيْرُ ، وَأَنْكَشَفَتْ عَمَائَةَ الْعَشِيِّ عَنْهُ ؛ ذَلِكَ مُنْقَادًا ، وَنِدْمَ حَسِيرًا ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ :
قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَقَاهِرًا لَهُ . وَلَوْ أَرَادَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ ، وَمُعَاجَلَةَ
إِفْسَادِكَ ، جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ شَهِدَ قِلَاتِ خَطِّكَ وَعَظِيمَ زَلَّتِكَ ؛ وَلِعَمْرَى لَوْ حَاوَلَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ فِي مَجْلِسِكَ ، وَبِحُجُودِكَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، لَرَدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ
عَلَيْهِ ، وَلَكُنْتَ مُسْتَحَقًّا .

وَفِي مِثْلِهِ :

إِنَّ صَاحِبَ الْبَرِيدِ كَتَبَ إِلَيَّ عَنْ أَصْحَابِكَ بِكَذَا ، فَقُلْتُ : لِيَهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيَّ
مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى عَجْمُوكَ ، فَعَرَفُوا خَوَرَ عُوْدِكَ ، وَضَعْفَ مَكْبِرِكَ ، وَمَهَانَةَ
نَفْسِكَ ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَ عِنْدَكَ وَلَا نَكِيرَ .

وَمِنْ ذَلِكَ الذَّمُّ عَلَى الْخَطِّ ، كَمَا كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ :

كَأَنَّ الْبُخْلَ وَالشُّؤْمَ صَارَا مَعًا فِي سَهْمِهِ ، وَكَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِهِ ؛ فَخَازِمَا
بِالْوَرَاثَةِ ، وَأَسْتَحَقَّ مَا أَسْتَمَلَ مِنْهُمَا بِالشَّفْعَةِ ؛ وَأَشْهَدُ عَلَى حِيَازَتِهِمَا أَهْلَ الدِّينِ

والأمانة حتى خلاصه من كل ممانع، وسأله من تبعه كل منازع؛ فهو لا يُصيبُ إلا مُحطًا، ولا يُحسِنُ إلا ناسياً؛ ولا يُنفِقُ إلا كارهًا، ولا يُنصفُ إلا صاغراً .
قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات . فإن عرَّضَ له موجبٌ، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يُكتب مع الإنعام لتُؤاب السلطنة بالخليل والجوارح)

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يُكتب مع الإنعام بالخليل، فقد جرت العادة أن السلطان يُنعم بالخليل على تواب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك منالآت شريفة إليهم . وربما أنعم بالخليل وكتب بها في غير ذلك .

وهذه نسخة منال شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نعمة الجنب وخصه من النعم بما لا تُحصى له آثار، ولا يتعلق له بغيره؛ ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار .

صدرت هذه المكاتب إلى الجنب العالی بكل سلام لا تُدرک لسوابقه غايه ، ولا تُحصى له نهايه ؛ ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آيه ، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان رايه . وتوضح علمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ماجرت به عادته من الحصن التي لا يدعى البرق أنه لها نظير ، ولا تجارى الرياح من سوابقها ما يطير؛ كم لها في ميدان بحال ، وكم لها في رؤية دويّة أرجال ؛

وكم دُعِيَ الوغى بها على كُلِّ ضَامٍ فَأَتَتْ رَجَالًا تَقْدَحُ سَنَابِكُهَا نَارًا، وَتَفِيضُ جَوَائِبَهَا
 مِنَ الرَّكِيضِ عَقَارًا، وَيَتَكَفَّلُ بِدَيْعِهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطِي مَا فِي يَدَيْهَا لِأَنَّهَا مِنَ الْكِرَامِ؛
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نِعْمِنَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَاللُّجْمِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَمَّلَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجَمَلَتِهِ الْمُفَصَّلَةَ؛ وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْفُصُ فِي أَعْنَتِهَا زَهْوًا، وَتَتْرُكُ بِطِيبِ
 صَهِيلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوُضُهُ إِلَى الْمَنَائِمِ رَهْوًا، وَتُوَجَّهُ بِهَا فُلَانٌ كَالْعُرَائِسِ الْمَجْلُوتَةِ فِي حُلَاهَا،
 وَالتُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حَلِيٍّ عَطَلِهَا؛ وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ الرِّيَّاحَ
 فِي تَقْلُّهَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا ، وَلِيَتَسَلَّمَ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا ؛ وَلِيَحْمَدَ اللَّهَ مِنْ تَفَقُّدَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرْسٍ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ ؛ وَيَعْتَمِدُهَا لِارْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ ؛ وَيَعِيدُ الْوَاصِلَ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



آخِرُ : وَلَا زَالَ إِقْبَالُنَا يُمِدُّهُ مِنَ الصَّافِيَاتِ الْجِيَادِ بِمَا يُبَارِي الرِّيَّاحَ ، وَيَتِمَنَّ
 بِغُرْبِهَا الصَّبَاحَ ، وَيَطْلُقُ أَعْنَتَهَا فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ فَتَسْبِقُ بِرَكْبِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ ؛
 وَلَا يَرْجُحُ إِنْعَامُنَا يُخَفِّفُهُ بِكُلِّ طَرْفٍ يَبْهَجُ الطَّرْفَ ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا اسْتَمَدَّ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَلَاخَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيُقَرِّدُهُ بِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْإِيْمَنِ :
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَنْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطِيبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ ، وَتَنَاءُ يَعْزُبُ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ وَسُمُوذِ كَرَمِهِ فَيُشْرِقُ سَنَأُوهُ وَيُضَاعَفُ تَنَأُوهُ ؛ وَتَوْصَحُّ لِعَلْمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَصِلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْخَيْولِ الْبَرِّقِيَّةِ فِي كُلِّ عَامٍ ،

وما نُحِصُه منها بـكُلِّ ميمونِ الغرةِ مُبارِكِ الطَّلعةِ هنيءِ السَّيرِ على الإِنعامِ ؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سَهْمَه ، وأضفنا إلى ذلك ما اسْتَصْلَحناه من الخيلِ العَرَبِيَّةِ الغريبه والعِتاقِ العَجِيبَةِ العَرَبِيَّةِ (؟) مما الخَيْرُ معقودُ بنواصِيها ، فترهُقُ على صَهَوَاتِها نفوسَ الأعداءِ وتَسْتَتِرُها من صَياصِيها ؛ فيأخذ الجَنابُ العالِي ما يُحِصُه من ذلك ، ويفرِّقُ الباقِي على من رَسَمنا له به يَمِينُ رَأْيِهِ المُبارِكِ الذي لا يُسَاهِمُه فيه أَحَدٌ ولا يُشَارِكُ ؛ ويجهزُ الخيلَ المَخْصُوصَةَ بفلانِ إليه ، والله تعالى يضاعفُ عِزَّ ظُهُورِها عندَ أمتطائها لديه .

وأما ما يكتب مع الإِنعامِ بالحوارح [فما يُكْتَبُ] ^(١) مع إرسالِ سُنُقُر .

وقد بعثنا إليه بسُنُقُرٍ كأنه مَلِكٌ مُتَوَجِّجٌ ، وِرْزُقٌ مُرَوِّجٌ ؛ تَجَزَّأَ على سَفِكِ الدَّماءِ ، وأبى أن يَطْلُبَ رِزْقَه إلا من السماء ؛ يودُّ الكُرْكِيَّ لو خَلَصَ من مَحَالِيهِه ، ويخافُ أن يَسْلَمَ من خِطِّ الشَّبَكَةِ ^(٢) ويقع في كَلالِيهِه ؛ يَدْرِكُ الصَّيْدَ ولا يُوجِّله ، ويرفَعُ صَدْرَه ثم يُومِي إليه برأسه كأنه يستعجله ؛ قد جَمَعَ من المحاسنِ كُلِّ الصُّنُوفِ ، وكُنِيتَ عليه أسْطُرٌ تُقْرَأُ بما تُقْرَأُ به الصُّيُوفُ .

ومما يكتب مع إرسالِ صَقْر .

وقد وجَّهنا إليه بصَقْرٍ لا تُؤسَى له من الصَّيْدِ جِراحِ ، ولا يدَعُ من وَحْشٍ يَسْرَحُ ولا طائرٍ يطيرُ بِجِناحِ ؛ أيما تَوَجَّهَ لآياتِ إلا بِحَيْرِ ، وحيثما أُطْلِقَ كان حَتْفُ الوَحْشِ والطَّيرِ ؛ يدَعُ أَقْطارَ الفَلادَةِ مجزَرَه ، أو رَوْضَةَ الدماءِ مُزْهِرَه ؛ يَجِدُّ إلى الطيرِ في عَنقِه ، ويحَلِّقُ إلى السماءِ فيرجعُ وطائرُه في عُنقِه ؛ تَحافُه العُقْرُ على نفوسِها ، وتَحْضَعُ له ولأمثاله فما تخرجُ إلا والطَّيرُ على رُعُوسِها ؛ يزيدُ خبرُه في مَطانِّ الصَّيْدِ على الخَبَرِ ،

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا في الأصل و"التعريف" .

وتخرج الطَّبَّاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَلَأَةٍ مِنَ الْعَجَاجِ مَخِيطَةٌ مِنْ قَرُونِهَا بِالْإِبْرَةِ؛
شَدِيدِ الْأَيْدِ ، قَدِ بَنَى عَلَى الْكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ ؛ يَحْمَدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْعُزْرَ ؛ وَيَقُولُ
لَهُ إِذَا تَلَفَّتْ إِلَى الصَّيْدِ : إِنْ جَلَبْتَ ضَبْعًا فَأَنْتَ حَرْبٌ ، لَا يَصْحَبُ مُسْتَصْحِبَهُ مَعَهُ
إِلَّا مَرَّادَهُ ، وَأَيْمًا سَارَ حَامِلُهُ - وَهُوَ مَعَهُ - كَانَ مَعَهُ زَادَهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إِلَيْهِ بِشَاهِينَ إِذَا حَاقَّ وَرَاءَ الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ ، وَشَاهَدَتْ الْأَمَالَ
بِهِ مَا تَرْجُوهُ ؛ قَدْ أَصْبَحَ كُلُّ مُحَلَّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ ؛ لَا يُتَعَبُّهُ حَلْفُ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى ، وَلَا يَرُدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى ؛ رَبِيَّةٌ عَامٌ لَمْ يُتَمَّعْ بِطُولِ مَادَهْرِ ، وَمَمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْمَانَ غَدُوها
شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهية .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوَيْهِيَّةً ، هِيَ بِالْمَحَاسِنِ حَرِيَّةٌ ، وَلِكثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةٌ ؛ يَكِلُّ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرَ مَطْبَخِهِ ، وَيَمْدُهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُصْرِحِهِ ؛ لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ ،
وَلَا تُرَى أَطْرَافُهَا إِلَّا مُثْمَرَةً بَعْنَابٍ ^(١) أَوْ مُخَضَّبَةً بَعْنَدَمٍ ؛ قَدْ أَخَلَّتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ ،
وَلَيْسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَتَكَتْ بِكُلِّ سَائِحٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسَقَاوَةٍ ، مَحَالِيهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدُّ قَسَاوَةً ؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَدَانِبِ ^(٢) ، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاشِ الْحُبَّارِيِّ وَفِرَاءٍ مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ ؛

(١) كذا في "التعريف" (ص ٢٢٥) وفي الأصل «مسمر» .

(٢) في الأصل «قد أخلت من كل شائع» والتصحيح عن "التعريف" .

(٣) كذا في "التعريف" وفي الأصل «كالدايب» .

وجعلت في قبضة الكف ما كانت العين عليه تدور ، وتكفلت بكفاية المطبخ
وملأت القدور .

ومما يكتب مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بيان مهمما لقي لقف ، ومهما خطا لديه خطف ، كأما خط
جوهره بقلم ، أوريش عليه من الصباح والظلم ، قد أعد للطوارق ، وأدرا بمثل
الطوارق ، قد دحض مجج الجمل ، وكسرها حتى أبان عليها حمرة النجل ، لا يسأل
في الصيد عما نهب ، ولا تعرف له قيمة إلا أن له عينا من الذهب .

ومما يكتب مع الفهد .

وقد أنعمنا عليه بفهد أهرت الشدق ، ظاهر الحدق ، بادي العبوس ، مدتر
الملبوس ، شئن البرائن ، ذى أنياب كالمدي ومخالب كالحاجن ، قد أخذ من الفلق والغسق
إهابا ، وتمصص من نجل الحدق جلبابا ، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به
وبشبهه ، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزاة لا تطلع من الوجع على وجهه ، يسبق
إلى الصيد مرامي طرفه ، ويفوت لحظ مرسله إليه فلا يستكمل النظر إلا وهو
في كفه ، وتتقدمه الصواري إلى الوحش فإذا وثب له تعثرت من خلفه .^(١)

وأما ما يكتب مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سيفا تلمع مخايل النضر من غمده ، وتشرق جواهر
الفتح في فرنده ، وإذا سابق الأجل إلى قبض النفوس ، عرف الأجل قدره فوقف
عند حده ، ومتى جرد على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم ، وعجز جناح جيشه

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَهَضَّ بِهِ قَوَادِمُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُفِنَا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الْأَعْرَبِ] نَجَادُهُ وَفِي يَدِ
جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ .

الصنف الثالث والعشرون

(المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولده رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته، ويشير إلى تخصيص الخلافة
بمصريها إليه دون سائر البرية ، وأنتقلها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كآبائه
عن كآبائه، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين
التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولداً، ويذكر
اسمه وكنيته ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بحلفائه الراشدين ، ومظهر الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي
جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ؛ وأقام منهم الحاضر المتبع ، والمرجو
المتوقع ؛ وأطلع منهم في سماء الهداية شهبا لا يحبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب ،
وفتح بهم للإرشاد أبوابا لا يربح منها باب حتى يفتح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آباءه ، ووقفه (؟) بانتقال ماورثه من آباءه
إلى أبنائه ؛ ويسأله أن يصلى على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة
سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيده وعدله ، وعلى أخيه وابن عمه على بن
أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

وإن أولى النعم بأن يُفَاضَ في سُكْرِها، وتُعَطَّرَ الحَافِلُ بِنَشْرِها ؛ نِعْمَةٌ حَاطَتْ
دَعَائِمَ الدِّينِ، وَأَمَرَتْ حِجْلَ المُسَلِمِينَ ؛ وَتَسَاوَى فِي [تَنَاقُلِ] ^(١) قِطَافِها الكَافِة، وَأَذْنَتْ
بُشُوعَ الرَّحْمَةِ والرَّافِة؛ وَأَضَحَّتْ بِها النُّبُوَّةَ مُشْرِقةَ الأَنوارِ، والإِمامَةَ عَاليةَ المَنارِ؛
وَإِخْلَافَةَ مُحَمَّالَةَ المِيزِ والسَّرِيرِ، رَافِلةً في حُلَلِ الأَبْتِهاجِ والسُّرُورِ .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رضيًا، سماه
فلانا، وكناه أبا فلان، بخلا بنهار غرته الدامس، وأقتر بمقدمه العائس، وأخضر
بمين [نقيبته] ^(١) اليايس؛ ووثقت الآمال بسعادة مقدمه، وتطلعت الأعناق إلى جوده
وكرمه؛ مبشرا لك بهذه النعمى الحسنة الأثر، القليلة الخطر؛ علما بمكانك من ولائه
ومخالصته، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته : لتأخذ من المسرة
والجدل بحظ المولى الخالص، والعبد المتخصص؛ ولتشيح مضمون كتابه فيمن قبلك
من الأولياء، أيشاركونا في الشكر والثناء؛ فاعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى .

[قلت] ^(١) وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في الإشارة عن السلطان
إذا حدث له ولد، فيكتب بالإشارة به إلى تواب السلطنة وأهل المملكة .

الصف الرابع والعشرون

(ما يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ بِالْبِشَارَةِ بِعَافِيَتِهِ مِنْ مَرِيضٍ)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض، إلى
صاحب مآردين، وهو :

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكَرِيمِ مُتَوَاتِرَةً ، وَالْمَسَارُّ إِلَى مَقَامِ مُلْكِهِ سَائِرَةٌ ؛
 وَالتَّهَانِي ، بِبُلُوغِ الْأَمَانِي ، مِنْ كَمَالِ شَفَائِنَا تَجْعَلُ ثُغُورَ الثُّغُورِ بِاسْمَةِ وَجْهِهِ الدُّهُورِ
 نَاصِرَةً ؛ وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكَ الْإِسْلَامِ بِاقتِفَادِهِ ،
 وَأَبْقَى لِلدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِ وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوهٌ
 فِي الْأَفْوَاهِ ، وَالسِّنْتُنَا شَاكِرَةٌ لِنِعْمِ اللَّهِ ؛ وَعَافَيْتُنَا مُجَدِّدُ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصَحَّحْنَا قَدْ بَلَغْتَ
 مِنَ الْمَزِيدِ مَا تُرِيدُ ؛ وَقَدْ أَلْبَسْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيبًا ، وَنَصَرْنَا نَصْرًا عَزِيزًا
 وَفَتَحْنَا لَنَا فَتْحًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَأَرْجِحُ بِهِ أَرْجَاءَ مُلْكِهِ ، وَتُنَازِعُ الْأَنْبِيَاءَ
 فِي سُلُوكِهِ ؛ وَتُوضِّحُ لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
 وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان في الجواب)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَارِدِ بِهَا الْكِتَابُ إِلَيْهِ يُسْتَقَّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبُ مَا يُعْتَنَى
 بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهَدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُلْطَانِيٍّ عَنْ وَصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفِ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجَحْفَلِ ،
 وَجَمَالٍ فِي الْمَحْفَلِ ؛ وَأَجْرَدَ إِذَا أُمَّ غَايَةَ لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسَوِّمٌ يَلْتَرَمُ
 جَلَالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسِدَّتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَا وَالْعِطْرُ
 يَضُوعٌ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمَسْكُ يُفُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَثَارُ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَانِهَا .

آخر في المعنى : ولا زال مُحَنَفًا بِالْحِيَادِ وَإِرْسَالَهَا ، وَمُهْدِيًا لِرِكَابِ الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ الَّتِي إِذَا لَمْ يَسَابِقْهَا شَيْءٌ مِنْ أَلْيَوَانِ تَجَلَّتْ فِي مُسَابَقَةِ ظِلَالِهَا ، وَيَتَّقَى لِمَوَاقِبِهَا
الْحَيُولَ الَّتِي إِذَا أَصْبَحَتْ فِي مَدَى أَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَتَعَلَّقُ بِأَذْيَالِهَا . أَصْدَرْنَاهَا .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي إِلَيْنَا مِنَ الْحِيَادِ بَحْرًا ، وَيَقُودُ مِنَ الْعَرَابِ مَاتَمَلًا
غُرَّتُهُ الْمَوَاكِبَ بِشْرًا ، وَإِذَا طَلَعَ فِي الْكَتِيبَةِ يَزِيدُهَا عِزًّا وَنَصْرًا ، مِنْ كُلِّ طَرَفٍ
تَأْصَلُ حُسْنًا وَحَسَنًا إِهَابًا وَجَلَّ قَدْرًا .

آخر في مثله : وأعلى له على صهوات العتاق مرتقى ، وخصه بكل جواد وهو منتقى
إليه منتقى ، وأطلع عليه نواصي الصوائف التي عقد الخير بها عقداً مؤثقا . أَصْدَرْنَاهَا
وَنُورُ التَّحَايَا مِنْ أَرْجَائِهَا يُنِيرُ ، وَمَفَانِحُهَا تَشْرَفُ بِهَا كُلُّ مَنِيرٍ وَسَرِيرٍ ، وَرِكَابُ أَثْنَيْتِهَا
تَسِيرُ إِلَى مَقَامِهِ فَتَطِيبُ رَاحِلَةً فِي ذَلِكَ الْمَسِيرِ .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي مِنَ الْحِيَادِ الْمُسَوِّمَةَ أَصَائِلَهَا ، وَيُحْفُفُ مِمَّا يَحْيِيهِ عِنْدَ
الرِّفَادَةِ عَلَيْهِ صَاهِلَهَا ، وَيَقَابِلُ أَكْرَمَ غُرَّةِ الْخَيْرِ مَعْقُودَ بِنَاصِيَتِهَا وَالْيَمْنَ يَقَابِلُهَا ، وَيَمْتَعُ
بِأَعْزِ جَوَادِ حَلِيَّةِ الشَّفَقِ دُونَ إِهَابِهِ إِذْ يَمَاطِلُهَا ، وَسُرْعَةُ الْبَرَقِ خِفَّتُهُ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب)

(بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من
الأبواب السلطانية ، يأمرهم ^(١) كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشِّرًا بِذَلِكَ ؛ وَيُجْهَزُ إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ مَعَ الْمَثَالِ الْوَارِدِ إِلَى كُلِّ نَائِبٍ مِنْ تَوَابِ السُّلْطَانِ مَعْنَى الْمَثَالِ الْوَارِدِ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ حَاجِبًا لِصُورَةِ الْمَثَالِ الْوَارِدِ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مُبْتَدَأُهُ ؛ وَيَشْتَمِلُ ذَلِكَ عَلَى عِدَّةِ أُمُورٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَى تَحْتِ الْمَلِكِ ، فَيُخْبِرُ نَائِبُ الشَّامِ فِي الْكُتَابِ الصَّادِرِ عَنْهُ إِلَى بَعْضِ التَّوَابِ بِأَنَّ الْمَثَالَ الشَّرِيفَ وَرَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ وَرَدَ كِتَابٌ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِجَهْزِهِ إِلَيْهِ .

[وَهَذِهِ نَسْخَةٌ كِتَابٍ مِنْ ذَلِكَ] كَتَبَ بِهِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى بَعْضِ تَوَابِ السُّلْطَانَةِ ، بِالْبِشَارَةِ بِسُلْطَانَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، وَقَدْ وَرَدَ عَلَى يَدِ بَعْضِ الْمُجَابِّبِ . مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَهِيَ بَعْدَ الصَّدْرِ :

أَمْتَعَهُ [اللَّهُ] مِنَ الْبَشَائِرِ بِمَا يَتَوَضَّعُ عَلَى جَبِينِ الصَّبَاحِ بِشْرُهُ ، وَبِمَا يَتَرَجَّحُ عَلَى مِيزَانِ الْكَوَاكِبِ قَدْرُهُ ؛ وَبِمَا يَنْفَسُحُ مِنْ أَوْقَاتِ أَمْنٍ لَا يَخْتَصِمُ فِي ظِلِّهَا زَيْدٌ وَعَمْرُو حَتَّى يَقَالَ : وَلَا زَيْدٌ النَّحْوِ وَعَمْرُو . وَيُنْهَى بَعْدَ دَعَاءِ يَتَبَلَّجُ فِي اللَّيْلِ فَجْرَهُ ، وَشَاءَ يَتَّارِحُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ نَشْرُهُ ، وَوَلَاءَ يَتَسَاوَى فِي دَرَجَاتِ الصَّفَاءِ سِرُّهُ وَجَهْرُهُ . أَنَّ خَيْرَ الْبَشَائِرِ مَا خَصَّ أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةَ وَعَمَّ الرِّعَايَا ، وَسَمَّا إِلَى نُغُورِ الْإِسْلَامِ خَبْرَهُ الْحَلِيَّ فَقَالَ : «أَنَا ابْنُ جَلَاوِطَّلَاعِ الثَّنَائِيَا» وَقِسِمَتْ مَسْرَّتُهُ عَلَى كَافِلِي الْمَمَالِكِ فَقَالَتْ مَمْلُوكَةٌ مَوْلَانَا : «لَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفْقَايَا» وَسَلَكَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِسْرَاعِ بِإِسَاعَتِهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ ، وَجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ الَّذِي سَبَقَ طَائِرُ يَمْنِهِ وَلَكِنَّهُ جَاءَ فِي خِدْمَتِهِ حَاجِبٌ ؛ وَهِيَ الْبَشْرَى الْوَارِدَةُ فِي الْأَمْثَلَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَالِكِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ ، الصَّالِحِيَّةِ الْعَمَادِيَّةِ ؛ الْعَرِيقَةُ فِي نَسَبِ النَّصْرِ بِالْأَنْسَابِ النَّاصِرِيَّةِ الْمَنْصُورَةِ ، أَعْلَى اللَّهِ

تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأئمة لما سرّ وصرّفها عمادها،
 يجلوسه على كرسيّ الملكة الذي هو آية سعده الكبرى، وتحت السلطنة الذي عينه
 ملك الجود والعلم فقال: السّلام عليك بحراً، وإجماع الأمة على أنه صالح المؤمنين،
 وكفاة الحلّ والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين، وأركان البيت الناصريّ
 على أنه عماده، وعلى أنه سنده المكلّم وإذا انقضّ بيت سناده؛ فياله جلوساً قامت
 فيه كواكب السعد مشدودة المناطق، وياله إجماعاً آتفق فيه - حتى من تصميم
 السيوف وتعبير الأقلام - كل صاميت وناطق؛ وياله بيت ملك أبي الله إلا أن يقيم
 وزنه أفضل الأفاعيل، وياله ملكاً قال الدهر الطويل أنتظاره: ﴿الحمد لله الذي
 وهب لي على الكبير إسماعيل﴾. وياله أمراً بلغ خبره وخبره الأوطار والأوطان،
 ونفذت برده المصرية على حين فترة تالية له السعود: ﴿فأنفذوا لاتفتنون إلا سلطان﴾
 وحشر الناس صحنى ليوم الزينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كل من
 في المدينة؛ وضربت البشائر ويا عجباً! أنها تضرب ومكاتها من القلوب مكيته.
 حتى إذا أخذت مضرب حظها من الهناء فسمت على الأمصار، وأضاء بأرق نثرها
 من كل وجه فسمت بالشامات غرة الابصار؛ وركض بريد الخير بمبارك باب البريد،
 ووصل نيل النيل إلى أنهار دمشق فبردى على الشكر نابت ويزيد؛ وبشر الإسلام
 من وجه الخلف الصالح بأكرم من بر، وأستفاض الأسم الشريف: فلو كلف مشتاق
 فوق وسعه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سرّ البيت الشريف الناصريّ يجمع شمله، وعلى أن أتى الملك
 العقيم الصالح من أهله؛ وقد جهز المملوك المثل الشريف المختص بمولانا: ومولانا
 أولى من أنتظمت لديه درر هذه الأخبار الثمينه، وعظمت بناحيته شعائر هذه الدولة
 المكيته، وكل خير حماه خير قرينه؛ والله تعالى يعز الإسلام بعزمه، ويمضي الآجال

والأرزاق على يدي حربه وسلمه ؛ ويُحزُّ لرأيه ورأيته النصر قبل أن يطوف الأولياء بعلمه ، وقبل أن يحيط الأذكاء بعلمه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ؛ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كل سرى يسره ، وكل سبي يقره أمام ناظره الكريم ويقره ، وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل : لله دره ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل ، وبكل جلي جليل ، وبكل خير تصح الدنيا بصحته فليس بها غير النسيم عليل ؛ تقبيلاً يزاحم عقود الثغور ، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الأبتسام للسرور ؛ وينهى بعد رفع اليد بدعائه ، وضم الجوانح على ولائه ؛ وجزم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شرفاً ، وزاد فضل سلطانه على العباد شرفاً ؛ ورد بالبخشارة العظمى ، والنعماء التي ماضتها الأيام قبل بنعمي ؛ والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاماً ، ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جمياً ؛ بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض ، وشفائه الذي في عيون الأعداء منه شفاً تطعن وفي قلوبهم مرض ؛ وأن مادة الأعداء بحمد الله قد انحسرت ، والواردة من الأفتقاد بالأجر والعافية قد آبتسمت ؛ وأن ظنون الإشفاق قد أضمحلّت ، وسمات الروض قد فدت الحسم الشريف فأعتلت ، وأخبار الهناء يعينها كل بريد تشوان من الفرج [ينشد] أسألها أي المواطن حلت ؛ فيالها بشارة خصت الإسلام وعمت بنيه ، وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتهيه ؛ وشملت البلاد وعبادها ، والسلطنة وقد حجب الله عمادها عمادها ، والملك السليمانى وقد ثبت الله

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها؛ والطير وقد حملت ورقه أوراق السورور، والوحش وقد قالت مهاة : على عيني أنحمل ذلك السقام أودك الفتور؛
 ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا ﴾ والألطف الرأحم بها المؤمنين من خلقه
 ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان ، فيآله من وأرد لمشاريع الأمن
 أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف
 المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوعة في كل ضرب من
 التهانى ، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي العواني ؛ فيأخذ حظه
 من هذه البشري ، ونصيبه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بشرًا ، وشطره من الهناء
 المخصوص الذى تعجل منه المملوك شطرًا ؛ والله تعالى يسره بكل خير شرق زواهره ،
 وتعبق في كرائم الدروج أزاهره ، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح
 تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك ، كتب نائب الشام عن نفسه إلى
 نائب حلب وغيره ، من تواب السلطنة بالممالك الشامية ، بورود المثال الشريف عليه
 بذلك ، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان : من السجع ، وإيراده مورد البشارة ،
 وإظهار الفرح والسورور بذلك ، لا يكاد يخافه إلا فى كونه وأردًا مورد الحكاية لمثال
 السلطان ، ومثال السلطان محير بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين
 ابن نباتة ، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهى بعد الصدر :

لا زالت مبشرة بكل مبهجة ، مغطرة الأرجاء بكل سائرة أرجه ؛ مبسرة الأوقات بمقدمتي سماع وعيان : كلاهما للسائر منتهجه ، مستحضرة في معالي الكرم كل دقيقة تشهد بسطة النيل أنها أرفع منه درجة ؛ وينهى بعد دعاء مالروض أعطر من شذاه ، ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جداه ؛ أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً ، ورد بوفاء النيل المبارك وحبذا هو من وفي موافى ، ومغير الجبري وعيش البلاد به العيش الصافي ، وحسن الزيارة والرحيل ماضاهته الغيوت في ولافي ؛ ووارد من معبد بعيد ، وحميل لا جرم أن مده ثابت^(١) وزيد ؛ وجائد إذا نتاج حيث تياره يقد بره ودره من الأرض وساكنها كل جيد ، وإذا ذكر الخصب لمكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد ؛ وذلك في يوم كذا ، وأن البلاد جرت بكسر خليجه ، واستقامت أحوالها بتفريجه : وأثنت عليه بالآله ، ووسمت لونه الأصب على رغم الصهباء بأحسن أسمائه ؛ وخلق فلات الدنيا بسائر مخلقه ، وعاق ستره المصري التبري فزكا على معلقه ، وخلق مسير ترأعه على القرى فبات على النداء صيف مخلقه ؛ وحدث عن البحر ولا حرج ، وأنخرج على البقاع يلوى معصمه فله أوقات ذلك اللوى والمنعرج ؛ وأستقرت الرعايا آمين آملين ، وقطع دابر الحدب بسعود هذه الدولة القاهرة ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ ورسم أن لا يجي حق بشارة ، ولا تعب يد التنقيص منها ليزداد الخبر نوراً على نور ، ويكون في إثارة وحسنه الخبر الحسن الماثور ؛ ووصل بهذا الخبر فلان وعلى يده مثال شريف يختص بمولانا وقد جهز به ؛ فيأخذ مولانا حظه من هذه البشرية ، ويوضح بها على كل الوجوه

(١) في الاصل "لا جرم أن يده".

بُشْرًا؛ والله تعالى يملأ له بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا؛ ويسرهم في أيامه بكلِّ وارِدٍ يقول الإحسان لمُتَحَمِّله : (لَوْ شِئْتَ لَأَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
 إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض التواب، من إنشاء الشيخ جمال الدين
 ابن نباتة أيضا، وهي بعد الصدر :

وضاعف مواد نعمة ونعمائه ، ومسرتِه وهنائه ؛ وحفظ عليه ما وهبه من المناقب
 التي يروى النيل عن كرمه ووفائه ، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيفول
 لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّد الخِدْمَةَ بِنَفْحَاتِ سَلَامِهِ وَتَنَائِهِ ، وَيَصِفُ وِلَاءَهُ لَوْ تَجَسَّم لَأَسْتَمَدَّتْ
 عَيْنُ الشَّمْسِ مِنْ سَنَائِهِ ؛ وَيُنْبِئُ أَنْ المَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللهُ تَعَالَى شَرْفًا ، وَرَدَّ
 مُبَشِّرًا بِوَفَاءِ النَّيْلِ المَبَارِكِ فِي يَوْمِ كَذَا ؛ فَيَالَهُ رَبِيعًا جَاءَ فِي رَبِيعٍ ، وَحَامِلًا فِي مُقَرَّدِهِ
 الفَضْلَ الجَمِيعَ ؛ وَدَاعِيًا بِالنَّحْبِ يَنْشُدُ كُلَّ تَانِيَةِ آثِنِينَ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ ،
 وَمَتَغْنِيًا عَلَى مَنَصَّةِ المِقْيَاسِ عَرَسَهُ يُحَلِّي عَلَيْهِ مِنْ شِبَاهِ كِهَا السِّتْرِ الرَّفِيعِ ؛ وَأَنَّهُ أَقْبَلَ
 وَالبِلَادُ أَشْهَى مَا تَكُونُ لِلْقِيَاءِ ، وَأَشَوْقُ مَا تَرَى لِمَبَاشَرَةِ رَبِّهِ وَرِيَّاهُ ؛ وَقَدْ أَمْتَدَّتْ أَيْدِي
 الجُسُورِ لِقَمِهِ ، وَأَسْتَعَدَّتْ شِفَاهُ الجُرُوفِ اللُّعْسَ لِلثَّمَةِ ؛ فَكُرِّمَ عَلَيْهَا زَائِرُهُ ، وَصَحَّبَهَا
 بِالنَّجْحِ سَارِيهِ وَسَائِرِهِ ، وَدَارَتْ عَلَى الجَدْبِ مِنْ خَطُوطِ الأَمْوَاجِ دَوَائِرُهُ ؛ وَعَمَّتْ
 المَنَافِعُ ، وَتَلَقَّتْ عِيُونَ الفِلا نَاهِلَةً بِالأَصَابِعِ ؛ وَفَاضَ البَحْرُ بِرَبِّهِ ، وَنَشَرَ رِدَائَهُ عَلَى
 الأَرْضِ وَسَيَضُوعُ رَوْضُهَا بِبَشْرِهِ ؛ وَخَلَقَ المِقْيَاسَ فَيَا لَكَ مِنْ قِيَاسِ بُشْرَى غَيْرِ مَمْنُوعِ ،
 وَكَسَرَ الخَلِيجُ فَيَالَهُ غُصْنَ قَلَمٍ عَلَى النَّيْلِ وَطَائِرٌ سَجَعَهُ عَلَى الفَرَاتِ مَسْمُوعِ ؛ وَرَسِمَ أَنْ

لا يُجِبُّ حَقُّ بِنَايِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّنْقِيصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْغِيصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرَ فَلَانَ وَقَدْ جُهِّزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفَعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ بِمِنْهَ أَيْدِي الصُّرُوفِ ؛ وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ النَّوَابِ وَالْإِتْبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مَهِيَعَاتٌ)

المهيعة الأولى

(في الأجوبة عن الكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَقَدِّمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ : هَلِ الْكُتُبُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتْبَةٍ ^(١)] فِي الْإِثْبَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرَا جَمْعٌ مِنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ نَذَكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجْوَبَةِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَتَقَدِّمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكُتَابَ إِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا التَّعْزِيَةَ فِي سَلْفِهِ ، وَالْهَيْئَةَ بِمُتَجَدِّدِ النَّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، فَارْتَمَى فِيهَا يُكَاتَبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْأَسْتِشَارِ بِالنَّعْمَةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم في (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعته ؛ وأنفساح الآمال في دولته ، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته ؛ وتعزيبته عن أبيه ، بما يوجب محل المحنة ويقتضيه ؛ يعني إن كان الخليفة الميت أباه ، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله ، ويعينه على ما كفّله ؛ ويقرن ملكه بالحدّ السعيد ، والخلود والتأييد ؛ وإدالة الأولياء ، وإدالة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يجاريه .

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ، ومن في معناه ممن يواليه في المحبة ، فإن الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة ، وأستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يصرح بدمّ الذهاب قبله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تحت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يفرق بينهما ، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين ، فإنما يتكلمها كتاب محالفي الملّة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال في "مواد البيان" : إلا أنه لاغنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها ، لتتقدم عندهم المعرفة بما يجيب به المخالفون ، يأخذوا عليهم بأطراف الحجّة إذا كاتبهم ابتداء أو جواباً .

قال : ولا تخلو أجوبة هذه الكتب من أربعة معانٍ :

أحدها — إجابة الدعاء إلى الدين ، وقبول الإرشاد والهدى ، والنزوع عن الغي ، والإقبال على التبصرة والتذكرة ، بعقائد خالصة ، ونيات صريحة .

والثاني — الإصرار على ما هم متمسكون به ، وتمحل الشبهة في نصرته ، وأدعاء الحق فيما يعتقدونه ، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دعوا إليه .

والثالث — بَدَلُ الحِزْبِيَّةِ والمُصَالِحِ، والجُنُوحِ إلى السَّلْمِ والمُؤَادَعَةِ .

والرابع — إظهار الحِمِيَّةِ ، والقيامُ في دفاعِ مَنْ يَرُومُ اقْتِسَارَهُمْ على مفارقةِ شرائعهم وأديانهم ، وبَدَلُ الأَنْفُسِ في مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردةِ بالْحَثِّ على الجِهَادِ، فقد ذكر في "موادِّ البيان" أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجابةُ الصَّرِيحِ، والمُبَادَرَةُ إلى التَّشْمِيرِ في الجِهَادِ ، والقيامُ في مَعُونَةِ الأولياءِ، على كِفَاحِ الأعداءِ .

والثاني — الأَعْتِذارُ والتَّعَلُّلُ والتَّنَاقُلُ .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إلى القُوَّادِ والمُقَدِّمِينَ . أما إذا كانت مقصورةً على الاستنفارِ، فلا جوابَ لها إلا التَّفُورُ أو الإِمساكُ . قال في "موادِّ البيان" :
والطريق إلى إقامة العُدْرِ لِيُصْرَخَ في التأخر عن مُسْتَصْرِخِهِ متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ على الكاتبِ، ولا سِيَّما إذا كانت الأَعذارُ مُتَكَلِّفةً غيرَ صحيحةٍ .

قال : وينبغي أن يتأثى لذلك ويُحَسِّنَ التَّلَطُّفَ فيه ، ولا يَعْتَلَّ بكذبِ صُرَاحٍ ينكشفُ لِعُتْدَرِ إليه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردةِ بالْحَثِّ على لُزُومِ الطاعةِ ، إذا وردت على التَّوَابِ والوَلَاةِ وأَمْرٍ أو بقرائتها في أعمالهم على الرِّعَايَا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرِّعَايَا إلى مادُّعُوا إليه ، أو استدامتهم لمركبِ التَّفَاقِ ، وأَسْتِدْعَاءِ مادَّةٍ لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكُتُبِ إلى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ من المُعَاهِدِينَ ، فقد ذكر في "موادِّ البيان" أنها لا تخلو من أحد أربعة معانٍ .

أولها — الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصبح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني — المغالطة والمراوغه، وأستعمال المدهنة والمخادعة .

والثالث — التجليح والمكاشفة .

والرابع — إيجاب المحبة على المحبوب (؟) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة .

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلع الطاعة ، فقد قال في ”مواد البيان“ :
إنها تحمل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ، وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لا تفتق به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا ، عرّف سبيل التخصّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاةه، فينبغي أن يُبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو، والجدل بمتجدد الفتح؛ وأن ذلك إما تهيأ بسعادته، وعلوّ رأيه وأنبساط هيئته؛ وما عودته من إظهار أوليائه، وخذلان أعدائه؛ وأنهم قد أشاعوا هذا النبا في الخاصة والعامة من رعاياه فابتهجوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان، فينبغي أن يكون ما يبيحهم به مبنيا على حمد الله تعالى على عوارفه، والرغبة في مضاعفة لطائفه؛ وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملّة والدولة ونحو هذا . ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف عنائهم، ويقوى شوكتهم؛ وتقرّظ وإلى الحرب ووصفه بما يشهد بصيرته في الخدمة، والثناء على

الأجناد ، ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء ، إلى غير هذا مما يقتضيه الحال ، ويؤجبه تدبير الأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأعتذار عن السلطان عند ما يحصل له زلُّ في التدبير أو [في] الظفر قبض الأعداء على جيش من جيوشه ، فإنما تقع الإجابة عنها إذا نُفِّدَتْ إلى أحد العُمال خصوصاً . قال في "مواد البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجواب عنها مبنياً على تقوية نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة ، وأن ماناله لا يتوجه كثيراً على ذوى الحرم ، إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا مما يُجاريه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكتبة في ذلك إلى الكافة ، مُهددة لعذر السلطان ، قاطعة قالة الرعية عنه ، فإنه لاجواب عنها : لأنها إذا لم توجه إلى واحد بعينه لاستدعي خطاباً .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين ، إذا صدرت إلى العُمال ، وأمرُوا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم ، فإنه ينبغي الأمر فيها على امتثال الأمر ، والمطالعة بآرتسام القوم ما رسم لهم فيها . أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليُصروا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لاجواب عنها ، لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأئمة رعاً بهم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنواهي ، فقد ذكر في "مواد البيان" أن الكتاب الوارد في ذلك : إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر ، وضيَّق على التابيع في إيثاره سبيل المراجعة فيه ، فإن الجواب عنه سهل : لأنه إنما يجب بجواب جامع ، وهو وقوفه على ما أمر به وإنفاذه له . وإن كان الوارد أمراً محتملاً للمراجعة ، من حيث إن في إمضائه إذا أمضى إفساداً للعمل ، وإخلالاً بأسباب

المُلكِ والسلطان، فالجواب عنه شاقٌّ صعبٌ: لأنه ينبغي أن يُبنى على تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِذَ على وجهه من قَتِيٍّ وَخَلَلٍ ؛ وموردُ المراجعة في ألفاظه لا يتبين فيه إزراء على رأيِ الرئيس ولا طَعْنٌ في تدييره: بأن تكون نَاطِقَةً بأنَّ رأيه الأعلى، وتدييره الأصوب؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا على الصواب، وظاهره تَصْوِيبا وتقريظا: لأن كثيرا من الرؤساء والملوك يُعْجِبُونَ بآرائهم، ويترأون أنفسهم بحُكْمِ الرياسة في منزلة من لا يرَاجعُ ولا يُعَارِضُ فيما يأمر به .

قال: وقد أتى من كُتُبِ الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بِشَرْحِ حالٍ وأقتصاصِ أمور . ثم قال: وأجوبة هذه الكُتُبِ يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنى المُشْرِحِ، مُسْتَوَلِيَةً على حَوَاشِيهِ، غير مُخِلَّةٍ بشيءٍ مما يحتاج إلى تَعَرُّفِهِ منه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية، وهي مشتملة على مَوَاعِظٍ وَمَرَاشِدٍ تَحْوُلُ بها الأئمة رِعَايَاهُمْ؛ فإذا صدرت إلى العُمَّالِ وأمرُوا بقراءتها على الرِعَايَا، فأجوبتها إنما تُبنى على أمثال الأمر والمطالعة بآرتسام القوم ما رُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لِقُرْأَةٍ على العامة لِيَتَبَصَّرُوا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيهِ على مواسم العبادة، فإنه يصدر عمن وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شُهودِ ذلك المَوْسِمِ، والأَنْفِصَالِ عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في "موادِّ البيان": وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذِكْرِ ما منَّ الله تعالى به من قَضَاءِ الفريضة على حَالِ الأتِّلافِ والأَتِّفاقِ، وشُمُولِ الأَمْنِ والهُدَى والسُّكُونِ، وسُبُوغِ النِّعمَةِ على الكَافَّةِ؛ وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بِدَوْلَتِهِ وبرِعِيَّتِهِ، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وغرة رمضان ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعيدي الفطر والأضحى ، وفتح الخليج بعد وفاء النيل ، فقد قال في "مواد البيان" : إنه إن كان الكتاب عن السلامة في صلاة العيدين أو جمع رمضان ، فينبغي أن يكون مبنياً على ورود كُتبه متضمنة ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تأدية فريضته ، والجمع في صلاة عيد كذا برعيتيه ؛ وما ألبسه الله تعالى من الهدى والوقار ، وأفاضه عليه من البهاء والأنوار ؛ وبروزه في خاصته وعامته إلى مصلاه ، وسماع خطبته وعوده إلى قصره الزاهر ، وعليه تاللاً القبول لصلاته ودُعائه ، مما أجراه الله تعالى فيه على عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحاد ، والاعتراف والاعتداد ، وأفضضه على رءوس الأشهاد ؛ فأغرقوا في شكر الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين ، ورغبوا إليه في إطالة بقائه مرآياً عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا مما يجاريه .

ثم قال : فإذا نُفِدت هذه الكتب من العمل إلى أمير المؤمنين مُبَشِّرةً بآجتاع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم سالمين ، فينبغي أن يكون الجواب عنها : «وصل كتابك متضمناً ما لا يزال الله تعالى يُوليه لأمر المؤمنين في رعيتيه ، وخاصته وعامته : من اتفاق كلمتهم ، وأئتلاف أفئدتهم وسلامة كآفتهم ؛ وما من الله به عليه وعليهم من آجتاعهم لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم ؛ على السَّلامَة من ضائرهم ، والظَّهارة من سرائرهم ؛ فحمد أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله من يدهم منه ، وتوفيقهم لما يرضيه عنهم ؛ وشكر مسعاك في سياستهم ، وأمتداد يدك في إيالتهم ؛ وهو يأمرك أن تجرى على عادتك ، وتسير فيهم بحمل سيرتك» وما يليق بهذا .

ثم نبى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغى أن يُستَبَطَّ من نَفْسِ كُلِّ كِتَابٍ منها المعنى الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُبَشِّرًا بسلامته من سفره؛ فينبغى أن يُبْنَى جوابه على ما صورته: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّاه الله تعالى له من السلامة ويمن الوجهه، مع تقريب الشقه؛ وإنالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأمثل المرسوم في إطلاع الأولياء على ما نص فيه من هذه البشرى؛ فعظمت المنحة لديهم، وجلت النعمة عندهم؛ وأنشرحت صدورهم، وأنفسحت آماهم، ووقفوا بضع الله تعالى لهم؛ وأرتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة في حياة أمير المؤمنين قاطنًا وظاعنًا، وحسن صحابته حالًا وراحلا؛ وجميل الخلافه على من خلفه من حامته وعمته، وأهل دعوته وخاصة دولته؛ والله تعالى يجيب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء، ويمدّه بطول البقاء» وما ينظم فى سلك هذا الكلام ويضاهيه .

قلت : وقد تقدم فى الكلام على المكاتبه السلطانيه الابتدائية : أن المكاتبه باليشارة بالسلامة فى ركوب العيدين وما فى معناها من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء فى زماننا . فإن قدر مثله فى هذه الأيام، أجزاه الكاتب على نحو ما تقدم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان فى المكاتبات السلطانية .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما فى معنى ذلك، فينبغى أن يكون مبنيًا على تعظيم المنه، والاعتراف بجزالة المنحه؛ وجميل العطيه، وزائد الفضل؛ وأن ما أسدى إليه من ذلك تفضل عليه، وتطول من غير استحقاق لذلك؛ بل فائض فضل، وجزيل امتنان؛ وأنه عاجز عن شكر هذه النعمه والقيام بواجبها، لا يستطيع

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتنويه والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذي ذكره في "مواد البيان" أن المنوه به يُجيبُ عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشكر ، ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كتبت بالتنويه والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماذ والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماذ والتقريظ ، بجوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماذ موقعه من المحمود ، ومطالبتة لنفسه بالخروج من حقه باستفراغ الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه ، كان الجواب بالتنصل والمقابلة بما يرى ساحتها ، ويدل على سلامة ناحيته ؛ وأن يورد ذلك بصيغة تُزيل عن النفس ما سبق إليها ، وتبعث على الرضا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التنصل والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المنية ، والاعتراف [بجزالة المنحة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد واد ، فإنه يكون بإظهار السرور والأغباط ، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم قريبا في الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيَادَة المَدَد؛ والرَّغْبَة إلى الله تعالى في أن يُوَالِيَ هذا المَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ الله تعالى وشُكْرُهُ على ما مَنَّ اللهُ تعالى به من العافية ، وَتَفَضُّلُ به من إزاحة المَرَضِ ، ووقاية المَكْرُوه ، وإظهارُ الفَرَحِ والسُرورِ بذلك . وما يخطر في هذا السِّلْكِ .

(١)
وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالتعزية بولدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيه الغمُّ والحُزْنُ والكَآبَة ، وحمدُ الله تعالى على سلامة نَفْسِهِ ، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في الخَلْفِ عليه ، إن كان المَيِّتُ وُلْدًا ، مع الدعاء بِطُولِ البَقَاءِ وَخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرى . وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مما يكثر وقوعه ، ويتعدد تكراره ، يَسْتَضِيءُ بها الكاتب في كتابة الأجوبة ، وَيَنْسُجُ على مَنَواهِلِها .



نسخة جواب عن كِتَابٍ وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ به إلى أمير الأُمراء ، قَرِينِ خَلْعَةِ وَسَيْفِ وَتَاجِ وَسِوَارِيْنِ ، من إنشاء أبي الحسين بن سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنَا أمير المؤمنين ، بما أعلم من فَضْلِ مُرَاعَاتِهِ لأُمُورِ الدِّينِ ، وَصِدْقِ عِيَانَتِهِ بمصالح المسلمين ، وَأُفِيضَ له (؟) من مَوَاهِبِ الله عندهم ، وَصُنُوفِ نِعَمِهِ عليهم ، فبما هداه من طُرُقِ الرِّشَادِ ، وَبَصَرَهُ إِيَّاهِ من مَبَاهِجِ الصَّوَابِ ، وَقَرَنَهُ به من التَّوْفِيقِ في عَزَائِمِهِ ، وَالْجِدِّ في مَرَّاسِمِهِ ، وَتَوَعَّدَهُ فيه بالخيرات التَّامَّةِ ، وَالْكِفَايَةِ العامَّةِ ؛ في كُلِّ

(١) في الاصل "التنعم" ولم نثر عليه في كتب اللغة .

أَمْرٍ يُمِضِيهِ ، وَرَأْيٍ يَزَيِّنِيهِ ؛ أَعْتَادًا لَهُ بِحُسْنِ الْمَعُونَةِ عَلَى مَا اسْتَرَعَاهُ ، وَوَصْلِهِ بِالزَّرِيدِ
فِي خَوْلِهِ وَأَعْطَاهُ ؛ وَحِرَاسَةِ مَسَاقِهِ إِلَيْهِ مِنْ إِرْثِ النَّبُوَّةِ ، وَحَمَلَهُ إِيَّاهُ مِنْ ثِقَلِ الْإِمَامَةِ ؛
لَمَّا عَرَفَهُ مِنْ نُهُوضِهِ بِالْعَبَاءِ ، وَقِيَامِهِ بِالْحَقِّ فِيمَا نَاطَهُ وَأَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ؛ وَتَأَمُّلِهِ مَا تَأَمَّلَهُ
مِنْ حَالِ عِبْدِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِبَطَاعَتِهِ مُعْتَقِدًا ، وَبِعِصْمَةِ وِلَايَتِهِ مُعْتَصِدًا ؛ وَلَوْ قِيَّتْ
يُسَلِّغُهُ مَنزِلَةَ الْإِحْمَادِ ، وَيُحْمِزُهُ عَائِدَةَ الْأَجْتِهَادِ ، فِيمَا أَرْضَاهُ مُرْتَضِدًا ؛ وَلَسَعِيهِ وَنَيْبَتِهِ ،
وَظَاهِرِهِ وَطَوَيْتِهِ ، مُعْتَمِدًا ؛ وَوُجُودِهِ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي سَيْرِ مَا أَمْتَحَنَ بِهِ بِلَاءَهُ ، وَعَرَفَ
فِيهِ غَنَاءَهُ ؛ مَوْضِعًا لِلصَّبِيغَةِ ، مُحْتَمِلًا لِلْعَارِفَةِ ؛ مُقْرَأًا بِحَقِّ النِّعْمَةِ ، عَارِفًا بِقَدْرِ الْمَوْجِبَةِ ؛
وَتَرْقِيهِ فُرْصَةً يَنْتَهِزُهَا فِي إِبْدَاءِ عَزْمِهِ ، وَإِمضَاءِ رَأْيِهِ ؛ وَأَنَّهُ [وَأَتَقُّ] بِالْإِسْتِظْهَارِ بِمَكَانِهِ ،
وَالْإِسْهَامِ لَهُ فِي عِزِّ سُلْطَانِهِ ؛ حَتَّى أَسْفَرَتْ رَوِيَّتُهُ ، وَأَسْتَقَرَّتْ عِزِّيَّتُهُ ؛ فَأَخْتَصَّ
عَبْدَهُ بِجَيْمِلِ الْأَثَرِ ، وَأَصْطَفَاهُ بِلَطِيفِ الْحُطُوبَةِ ، وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الْأُمَرَاءِ ،
مُوفِيًا بِهِ عَلَى رُتْبَةِ النَّظَرَاءِ ، وَكَاسِيًا لَهُ حُلَّةَ الْمَجْدِ وَالسَّنَاءِ ؛ وَرَدَّ إِلَيْهِ تَدْيِيرَ الرِّجَالِ ،
وَتَقْدِيرَ أُمُورِ الْعُمَالِ ؛ وَشَفَعَ ذَلِكَ بِالتَّكْنِيَةِ وَالتَّلْقِيْبِ فِي مَشَاهِدِ حَفَاتِهِ ، وَمَجَالِسِ
خَلْوَتِهِ ؛ وَأَكْمَلَ الصَّنْعَ عِنْدَهُ بِالْحَاقِ عِبْدَهُ فِيمَا قَسَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ شَرِيفِ
حِبَائِهِ ، وَسَنَى عَطَائِهِ ؛ وَتَجَاوَزَ فِي التَّكْرِمَةِ لَهُ إِلَى أَعْلَى الْأَحْوَالِ ، وَأَرْزَعَ الرُّتْبِ وَالْمَحَالِّ ؛
فِيمَا أَمَرَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرَهُ - بِحَمَلِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخَلْعَةِ الَّتِي يَبْقَى شَرَفُ لِبَاسِهَا [عَلَى] الْأَيَّامِ ،
وَيُحَلِّدُ ذِكْرَهَا عَلَى الدَّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَالسَّيْفِ الَّذِي تَفَاعَلُ لِعَبْدِهِ فِيهِ بِمَا يَرْجُو مِنْ
مَوْلَاهُ وَسَعَادَةِ حَمْدِهِ : أَنْ يُحَقِّقَهُ اللَّهُ فِي الْأَعْتَادِ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَعَمْدِهِ فِي نُحُورِ مُشَاقِقِهِ
وَعَامِصِي نَعْمَائِهِ ؛ وَالتَّاجِ الْمُرْصَعِ الَّذِي نَظَّمَ لَهُ جَوَامِعَ الْفَخْرِ ، وَالْوَشَاحِ الْمَوْشَى الَّذِي
وَشَّحَّهُ حَلِيَّةَ الْجَمَالِ مَدَى الدَّهْرِ ؛ وَالطُّوقِ الَّذِي طَوَّقَهُ فَلَانِدُ الْمَجْدِ ، وَالسَّوَارِيْنَ اللَّذِينَ
أَذْنَاهُ بِقُوَّةِ الْعَضْدِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ ؛ وَاللَّوَاءِ الْمَعْقُودِ بِهِ مَفَاتِحُ الْعِزِّ فِي طَاعَتِهِ ، الْمَرْفُوعِ بِهِ
مَعَالِمُ النَّصْرِ عَلَى شَانِي دَوْلَتِهِ ؛ وَوَصَلَ إِلَى وَفَهْمَتِهِ .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافته ؛ وأتمنه من الحكم على
 برته ؛ ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ؛ وإحياء السير الرضية ،
 والشنن الحميده ؛ وإماطة الأحكام الجائرة ، والمظالم الظاهرة ؛ وتقويم أود المملكة
 بعد تزعزع أركانها ، وتصدع بُنيانها ؛ وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن أشتمت
 [الذلة ^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ؛ وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
 أطعائها ؛ وتفاعل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظره : من الحلية بحقائقه ، والتوكيد
 بما لم تزل الخبايل فيه لآئحه ، والأمارات منه واضحة ؛ والشواهد به صادقه ،
 والدلائل عليه ناطقه ؛ حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتفت
 آثاره ؛ ودرست رسومه ، وغارت مجومه ؛ وأنحى الشيطان بجرانه ، وأشرأب لتبديله
 بعدوانه ؛ وأتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواسي
 الجبال ؛ وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشكوك ؛ وبأج
 لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما ينتظم عليه رحيب ؛ وصدر يتسع لمعضلات
 الأمور ، ويشرق في مدهجات الحوادث ؛ فشرد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
 الاعتزاز ، ونطاولت بهم مدة الإصرار ؛ ومدد رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
 وأحصد أسبابه ؛ وقطع أطاع الملحدين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفَتَّ في أعضاء
 المنايدين ؛ فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ؛ واتفقت الأهواء المتفرقة ،
 وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدهماء المضطربة ، وقرت القلوب المترجحة ؛
 وصدقت خواطر الصدور المثجحة ؛ وظهر الحق ورسخ عموده ، وبهر جماله ونصر
 عوده ؛ ونشرت أعلامه وطلعت سعوته ، وعز أولياؤه ونصرت جنوده ؛ وساخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) في الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وَأَنْقَطَعَتْ وَصَائِلُهُ وَعِصْمُهُ ؛ وَأَنْبَتَتْ حِبَالُهُ وَرُمُهُ ، وَأَخْلَتْ أَسْبَابَهُ
 وَذِمَّهُ - حَقِيقٌ بِمَا بَانَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَسْتَفَاضَ فِي الْأُمَّةِ مِنْ عَدْلِهِ ، وَعَمَّ كَافَّةَ الرَّعِيَّةِ
 مِنْ طَوْلِهِ ؛ وَوَصَلَتْ إِلَى الْمَلِيِّ وَالذَّمِيِّ وَالِدَانِيِّ وَالْقَاصِيِ عَائِدَةُ الْخَيْرِ فِي أَيَّامِهِ ، وَفَائِدَةُ
 الْأَمْنِ بِمَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ؛ وَمَأْمُولٌ لِأَفْضَلِ مَا بَدَأَ لِعَبْدِهِ مِنْ ثَمَرَةِ أَجْتِبَائِهِ وَأَصْطِفَائِهِ ،
 وَمَا تَعَمَّدَهُ بِهِ مِنَ النَّعْمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَسِيمَةِ ؛ وَأَسْبَغَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَوَارِفِ
 السَّنِيَّةِ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ ؛ الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا هِمُّ ذَوِي الْأَقْدَارِ ، وَتَقْفُ دُونَهَا
 آمَالُ أَوْلِي الْأَخْطَارِ ؛ مُقَدِّمًا لَهُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنْ أَنْصَارِ دَوْلَتِهِ ، وَأَشْيَاعِ دَعْوَتِهِ .

فلو ترادفت ألسنُ العباد - أيد الله أمير المؤمنين - على اختلاف لغاتهم ، وتباين
 طبقاتهم ، وتفاوت حالاتهم ؛ في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها ، وتأدية
 حقوقه التي أعيأ المجتهدين قضاؤها ؛ لكانت - حيث انتهت ، وأنى تصرفت ؛
 على استفراغ القدرة وأستنفاد الطاعة - غير مُقَارِبَةٍ حَدًّا مِنْ حُدُودِهَا ، وَلَا مُؤَدِّيَةٍ
 فَرَضًا مِنْ فُرُوضِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ - أَيْدَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي قُوَّةِ
 الْإِحْسَانِ مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، وَإِيْفَائِهِ عَلَى مَبَالِغِ الْوُسْعِ ؛ فَقَصْدُ عَيْدِهِ فِي جَبْرِ النَّقِيصَةِ ،
 وَسَدِّ الْخَلَّةِ ؛ الْأَزْدِيَادِ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْإِحْلَاصِ فِي الْمَوَالَاةِ وَالْمُشَايَعَةِ ؛ وَإِدَامَةُ الْأَبْتِهَالِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَفْعُ الرَّغْبَةِ فِي مَعُونَةِ عَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَجَافَاةِ بَلَائِهِ ، وَالتَّنْفَرْدِ
 بِجَزَائِهِ ، وَتَجْدِيدِ الْمَسْأَلَةِ فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ ؛ فِي عِزِّ لَاتَبَلِيٍّ جَدَّتُهُ ، وَسُلْطَانٍ لَاتَنْتَهِيٍّ مُدَّتُهُ ؛
 وَمَوَادِّ مِنْ مَنَاسِجِهِ وَمَوَائِدِهِ ، وَرَوَادِفٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ؛ مُتَّظَاهِرَةً لَا يَنْقَطِعُ مِنْهَا أَوَّلٌ
 حَتَّى يَلْحَقَ تَالِيَهُ ، وَلَا يَنْصَرِمُ سَالِفُهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ آتِيَهُ ؛ وَيَكُونُ الْمَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ
 شُرُوطِ الْأَمَلِ ، وَتَقَضَى حُدُودِ الْمَهَلِ ؛ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فِي جِوَارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ .

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معرفه عنده ؛ بدؤه إياه بما يمتحن به خفة نهضته ، وسرعة حركته ؛ وفعوده لأمره بجد حديد ، وبعيش عبيد ؛ وصمده لما يحظيه لذلك مولاه ، ويجوز له حمده ورضاه ؛ بصدق بصيره ، وخلوص سريره ؛ وأستسهال لكل خطه ، وتجشم لكل مشقه ؛ دنّت المسافة أم شسعت ، قربت الطية أم نزحت ؛ وسيدنا أهل لأستتمام يد ابتدائها ، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة ابتدائها ؛ باستعمال عبده بأمره ونهيه ، وأعتاده لمهمات بحضرتة وفي أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .



قلت : وهذه نسخة كتاب أشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبي الفضل العباس خليفة العصر ، عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ، وأستبداده بالأمر دون سلطان معه ، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مفتتحا له «يقبل الأرض» التي يكتب بها الملوك . وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة ، وهو :

يُقبَلُ الأَرْضَ وَيُنْبِئُ وَرُودَ المِثَالِ الأَشْرَفِ المِيمُونِ طَائِرُهُ ، المَرْقُومِ عَلَى صَفْحَاتِ الأَفلاكِ تَهَانِيهِ المَحْمُولِ عَلَى مَتَنِ السَّحابِ بَشَائِرِهِ ، الشَّاهِدِ بِالفَتْحِ المُبِينِ أوَائِلُهُ وَبِالنَّصْرِ العَزِيزِ أوَائِرُهُ ؛ مُتَضَمَّنًا ما مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّنْعِ الَّذِي وَكَّفَتْ بِالخَيْرِ سَخَائِبُهُ ، وَخَفِيَ اللُّطْفِ الَّذِي بَهَرَّتِ العُقُولَ عَجَائِبُهُ ؛ بِما مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مَوْلانا أمير المؤمنين مدد الله تعالى على الإسلام وأرف ظلّه ، وَأَنَا مِ الأَنامِ بَمَدِّ رِواقِ

الإمامة المعظمة في مهَادِ عَدْلِهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَّنَ لِآبَائِهِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ قَبْلِهِ : مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى سُدَّةِ الْخِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وُصِّلَ مُنْقَطِعُ حَدِيثِهَا بِإِسْنَادِهِ ، وَحَازَ مِنْهَا بِأَشْرَفِ مَقْعَدٍ تَرَاثَ آبَائِهِ الْكِرَامِ وَأَجْدَادِهِ ؛ وَأَبْتَسَمَ تَغَرُّرَ الْخِلَافَةِ بِعِبَاسِهِ ، وَتَأَسَّسَ مِنْهَا جَانِبَ الدِّينِ بَعْدَ الْأَسْتِيحَاشِ بِإِيْنَانِهِ ؛ فَقَبَّلَ الْمَمْلُوكُ لَهُ الْأَرْضَ خَاصِعًا ، وَوَلَّى أَوَامِرَ الشَّرِيفَةِ ضَارِعًا ، وَأَجَابَ دَاعِيَهُ بِالْإِمْتِثَالِ سَامِعًا طَائِعًا ؛ وَسَجَدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لِذَلِكَ فَعَرِيفَ بَسِيْمَاهُ ، وَأَنْتَسَبَ إِلَى الْوَلَاءِ الشَّرِيفِ الْإِمَامِيِّ أَنْتَسَابًا شَامِلًا لِأَسْمِهِ وَمَعْنَاهُ ؛ وَأَعْلَمَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ بِذَلِكَ فَقَابَلُوهُ بِالْأَسْتِشَارِ طُرًّا ، وَتَلَقَّوْهَا تَلَقًّا يَلِيْقُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ كَانَ لَا مِثْلَ لِهَذِهِ الْبُشْرَى ؛ وَقُرِئَتْ الْمُطْلَقَاتُ الشَّرِيفَةُ عَلَى الْمَنَابِرِ فَسَكَنَتِ الدِّهْمَاءُ وَقَرَّتْ ، وَسَرَّتْ أَلْفَاطُهَا إِلَى الْأَسْمَاعِ الشَّيْقَةِ فَسُرَّتْ ، وَكُرِّرَتْ أَلْفَاطُهَا الْعَدْبَةُ مَرَارًا فَخَلَّتْ لَدَى النُّفُوسِ إِذْ مَرَّتْ ؛ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْإِدْعَاءِ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَوَامًا لَا يَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرٌ خِلَافَهُ ، فَحَقِيقٌ ظُهُورٌ مُعْجِزَةٌ أَكْرَمَ مُرْسَلٍ بَعْدَ الثَّمَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ لَعَمْرُ الْعَبَّاسِ : « أَلَا أُبَشِّرُكُمْ بِأَنَّكُمْ بَخْتِمِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكُمْ تُخْتَمُ الْخِلَافَةُ » .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مِثَالِ شَرِيفٍ وَرَدَ بِوَفَاةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ » وَأَسْتِقْرَارِ وَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « أَبِي بَكْرٍ » مَكَانَهُ فِي الْمَلِكِ بَعْدَهُ مِنْ أَبِيهِ . مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ الْبَارْبَنْبَارِيِّ ، بَعْدَ التَّعْزِيَةِ بِأَبِيهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهَى وَرُودَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ أَمْرَ الْمَصَابِ الَّذِي كَادَتْ لَوْقُوعِهِ الْأَرْضُ تَتَزَلُّ بِأَهْلِهَا ، وَالْعُقُولُ تَتَرَيُّلُ عَنْ مَحَلِّهَا ، وَبَلَّغَتْ الْقُلُوبُ

الحنَّاحِر، وَأَسْتَوْحَشَتِ الْقُصُورُ وَأَسْتَأْنَسَتِ الْمَقَارِبُ، وَتَصَدَّعَتْ لَهُ صُدُورُ السِّيُوفِ
وَرُءُوسُ الْمَنَارِبِ؛ وَقَصَمَ الظُّهُورَ، وَشَيَّبَ السُّودَ مِنَ الشُّعُورِ؛ وَجَرَعَ كُؤُوسَهُ،
وَصَدَّعَ الْحَوَازَةَ الْمَحْرُوسَةَ؛ وَذَلِكَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أُنْتِقَالِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ السَّعِيدِ،
الشَّهِيدِ؛ وَالْمَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ: فَأَجْرَى الْمَمْلُوكُ
عِوَضَ الدَّمُوعِ دَمًا، وَأَقَامَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ مَأْمِنًا، وَتَغَيَّرَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ لِقَفْدِهِ
فَأَمْسَى مُظْلِمًا؛ وَنَدَبَهُ الْإِسْلَامُ فِي سَائِرِ مَحَارِبِهِ وَمُصَلَّاهُ، وَأَسْفَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ الْحَرَامُ
وَرُكَّاهُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةً حَسَنَةً﴾.

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَشْرَقَ مِنْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَوْمَ
قُبِضَ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ يَوْمَ
وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانَ الشَّهِيدِ - قَدَسَ
اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مُنْشَرَفًا بِأَسْمِ نَبِيِّهِ، وَمُتَبَرِّكًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ بِذِكْرِ سَمِيهِ؛
وَلَوْ ذَابَتِ الْمُهْجُ أَسْفًا عَلَيْهِ لَمَّا أَنْصَفَتْ، وَقَدْ أَسْفَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّمُ بِأَسْرِهَا وَحَقِّ لَهَا
أَنْ أَسْفَتْ؛ نَبَتَتْ لِحُومِنَا مِنْ صَدَقَاتِهِ، وَعَمَّرَتْ الْمَمْلُوكَ وَالْمَمَالِكَ مَجْزَلَاتُ هِبَاتِهِ؛
وَمَا نُقِلَ مِنْ قَصْرِهِ إِلَّا إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَمَا فَارَقَ مُلْكَهُ إِلَّا وَبَاتَ فِي جِوَارِ
اللَّهِ الْكَرِيمِ؛ وَكَانَ سُلْطَانًا وَهُوَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ سُلْطَانًا، فَسُقِيَ اللَّهُ عَهْدَهُ صُوبَ
الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

وَبِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ جَبُرَتِ الْقُلُوبُ الْمُنْصَدَعَةُ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ -
عَلَى تَحْتِ السَّلْطَنَةِ الْمَعْظَمَةِ وَاللَّهُ مَعَهُ، وَمَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَّا أَهْلُهُ، وَلَا قَامَ
بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ عِلْمَ فَضْلُهُ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَارِثُ الْمَلِكِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِ

حقاً ، والقائمُ بِسَانِ السلطنةِ غَرباً وشرقاً ؛ وَخُلَاصَةُ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ نَصْرًا ، وَأَدَامَ مُلْكَهُ دَوَامًا مُسْتَمِرًّا ؛ وَالْعُيُونُ الْبَاكِيةُ قَدِ قَرَّتِ الْآنَ بِهَذِهِ الْبُشْرَى ، وَالْقُلُوبُ النَّالِكَةُ قَدِ مَلَّتْ هَهْجَةً : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وَأَسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ بَعْدَ قَلْقِهِ ، وَنَامَ عَلَى جَفْنِهِ بَعْدَ أَرْقِهِ ؛ وَأَسْتَقْبَلَتِ الْأُمَّةُ عَامًا جَدِيدًا ، وَسُلْطَانًا مَنصُورًا سَعِيدًا ؛ وَأَسْتَبَشَرَتِ الْقِبْلَتَانِ ، وَتَنَاجَى بِالْمَسْرَةِ الثَّقَلَانِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَمْسَوْا خَائِبِينَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَحْمَقُوا فَرِحِينَ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ نَنْصُرُهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُوَ الْعَرِيقُ فِي سُلْطَنَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالْإِمَامُ الْأَعْظَمُ ابْنُ الْإِمَامِ ؛ فَخَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ ، وَأَحْسَنَ عَزَاءَهُ فِي خَيْرِ سُلْطَانِ الْأَنَامِ ؛ وَأَبْتَهَلَتِ الْأُسْنَةُ بِالْتَّرَحُّمِ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - بِدُمُوعِ سَائِلِهِ ، وَقُلُوبِ مَوْجُوعَةِ بِجَرَاحَاتِ النَّيَّاحَاتِ ثُمَّ عَوَّضُوا بِالْمَسْرَاتِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالدُّعَاءُ مَرْفُوعٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - بَرًّا وَبِحَجْرًا ، وَالْبِلَادُ مُطْمَئِنَّةٌ وَالْعَسَاكِرُ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالتَّشْرِيفِ بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَوَارِثِ سُلْطَانِهِمْ ؛ وَكَانَ الْمَمْلُوكُ يُوَدُّ لَوْ شَهِدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - عَلَى ذَلِكَ السَّرِيرِ وَالْمِنْبَرِ ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَوَاقِفِ الْمُعْظَمَةِ وَالْمَقَامِ الْأَكْبَرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جَوَابٍ عَنْ وَرُودِ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ بِرُكُوبِ السُّلْطَانِ بِالْمِيدَانِ ، وَالْإِذْنِ لِلنُّوَابِ فِي لِعْبِ الْكُرَّةِ ، وَهِيَ :

وَيُنَبِّئُ وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ الصَّدَقَةَ الَّتِي أَجْرَتْ أَوْلِيَاءَهَا عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ مِنَ الْأَحْتِفَالِ ، وَالْمَرَاحِمِ الشَّامِلَةِ الَّتِي وَسَّعَتْ لَهَا كَرَمَهَا سَافِرَةً عَنْ أَوْجُهِ الْإِقْبَالِ ، وَالْبُشْرَى الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسْرَاتِ مَا بَلَغَتْهُ

الآمال ؛ وهو أنَّ الرَّكَّابَ الشَّرِيفَ اسْتَقَلَّ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ نَهَارَ السَّبْتِ فِي كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا : فِي أَسْعَدِ طَالِعٍ ، وَأَيْمَنِ وَقْتِ مُطَاوِعٍ ؛ وَفِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ - كَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ كَيْمِيٍّ مُقَنَّعٍ ، قَدْ لَبَسَ مِنَ الطَّاعَةِ بُرْدًا وَبِالْإِخْلَاصِ تَدَرَّعَ ؛ وَأَمْتَطَى مِنْ فَائِضِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ صَهْوَةً سَابِقِي قَدْ شَمَّرَ لِلسَّبْقِ ذَيْلًا ، وَفَزَّ كَبْرِيٍّ لَمَعَ لَيْلًا .

وَأَنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - طَلَعَ عَلَيْهِمْ طُلُوعَ الْبَدْرِ عِنْدَ الْكَمَالِ ، وَحَوْلَهُ الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ كَالْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُسَبَّهُ بِمِثَالٍ ؛ وَالْحِيَادُ لَا يُرَى لَهَا أَثَرٌ مِنَ الرَّكْضِ ، وَالْكُرَّةُ تَنْشَرَفُ بِالصُّوْبِ لِحَانٍ كَمَا تَنْشَرَفُ بِالتَّقْيِيلِ الْأَرْضُ ؛ وَعَادَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا وَعَظَمَهُ - إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، إِلَى مَحَلِّ الْمَمْلُوكَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَفِي دَسْتِ السُّلْطَانَةِ الْمُعْظَمَةِ ؛ مُحْفُوفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلُطْفِهِ ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ .

وَمَا أَقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْمَرَاحِمُ الْمُطِيفَةُ ؛ وَآثَرَتْ بِهِ إِعْلَامَ الْمَمْلُوكِ بِذَلِكَ ، وَالْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَمَهُ - أَنْ يَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالتَّزْوِيلِ إِلَى مِيدَانِ فُلَانَةَ الْمَحْرُوسَةِ ، وَمَعَهُ مَمَالِكُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَالْأُمَرَاءُ ؛ فَقَابَلَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ؛ وَجَمَعُوا بَيْنَ الْكُرَّةِ وَالصُّوْبِ لِحَانٍ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسْرَاتِ مَا لَا يَحْصُرُهُ بَيَانٌ ؛ وَأَنْبَسَطَتْ نَفُوسُهُمْ إِذْ أَصْبَحُوا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ ، وَابْتَهَلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَوَعَّتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ ؛ وَصَجُّوا بِالْأُدْعِيَةِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الَّتِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ وَفَاقَ بِمَكَارِمِهِ الْمَبَاضِينَ ، وَأَرْبَى عَلَى سَلْفِهِ الشَّرِيفِ بِالْعَطَاءِ وَالتَّمْكِينِ ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طنرابلس، وهي :

وَيْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ - شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ
تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمُومِ الرَّعَايَا
بَتَوَاتُرِ عَمِيمِ النَّعْمَةِ؛ وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَنْفِي
بِعَهْدِهِ، وَيَسْلُ سَيْفَ الْخَضْبِ مِنْ غَمِّهِ، وَيَقْتُلُ الْحَلَّ بِجُمْرَةِ مَنَّتِهِ وَجَوْهَرِ حُدِّهِ؛
مُهَنِّئًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً
بِمَا مِنْ اللَّهِ بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النَّعْمَاءِ؛ وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ
- شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بَادِرَ الْمَمْلُوكِ إِلَى آمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ
وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلَّ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيَهَا بَرًّا وَبِحَجْرًا؛
وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَيْنَ بَرَكَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا؛ وَقَدْ عَادَ
فَلَانُ الْبَرِيدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ
إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ عُلُومًا وَشَرَفًا، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا؛
يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ، وَإِبْدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ؛
فَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ،
وَعَمُومِ الرَّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمُومِ النَّعْمَةِ؛ إِذْ جَاءَ مُحْيَاهُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا، وَسَلَّكَ فِي عَوَائِدِ
الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طُرُقًا؛ وَأَذِنَ بِلُغِ الْمَرَامِ وَالْمُرَادِ، وَكَسَّرَ سَدَّ خَلِيجِهِ جَبْرًا لِلْعِبَادِ

والبلاد؛ حيث ملأ الأرض ريباً، وأهدى من ففحات الأمن والمن ريباً؛ والمرسوم الشريف - شرفه الله وعظمه - بأن لا يُجْبَى على ذلك حق بشاره، ولا يُعْرَض إلى أحدٍ بجساره؛ فقابل المملوك المشال الشريف والمرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعَة، وبأدْر المملوك إلى إِذَاعَة هذه البُشْرَى، التي عمّت تَهَانِيهَا بَرّاً وَبَحْرًا؛ وجعلت أمور هذه الأمة يُبَيِّن بَرَكَة هذه الأيام الشريفة بعد عُسْر يُسْرًا؛ وأستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدَّوْلَة القاهره، وَجَلَا وَتَلَا صُورَ الهَنَاءِ وَسُورَ الآلَاءِ بهذه النعمه الوافية والمنة الوافره؛ وسأل الله تعالى أن يُحَلِّد مُلْكَ مولانا السلطان، ويؤالي أُنْبَاءَ البشائر في أيامه الشريفة مرويةً بالأسانيد الحسان؛ وقد عاد فلان البريدى بالأبواب الشريفة - شرفها الله تعالى وعظمها - بهذا الجواب الشريف، وقد عاين آتتهال أهل هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارة بهذه البشائر بخلوها من الكلف والخسارة، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جوابٍ عن مشال شريف بوصول فرس إناعام، كُتِبَ به عن نائب طرابلس، وهي :

يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي وَرُودَ المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه، يتضمن ما اقتضته الآراء الشريفة من الخَيْرِ التَّامِّ، والإناعام العام، والصدقة الوافية الوافرة الأقسام؛ التي ما برحت ممالك هذه الدَّوْلَة الشريفة في إناعامها العميم تتقلب، والخيَلُ السَّوَابِقُ بسعادتها الأبدية مُجْلِبٌ وَبُجْبٌ وَتُرْكَبُ : من تجهيز الحصان البرقي بسرجه ولجامه وعدته الكامله، وشمول المملوك بالصدقات التي ما برحت مترادفة متواصله، ولعبد هذا البيت الشريف شامله؛ وقبل المملوك الأرض وقبل حوافره، وأخذ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة؛ وأعدّه ليومئ تجلّ وجهه، ولقاء عدوّه وطراد؛ والله تعالى يخلّد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والبعيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة جواب عن وصول خيل من الإنعام السلطاني، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي.

ويُنهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وتتخذ صواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصياها.

فمن أشهب غطاءه النهار بجلته، وأوطاه الليل على أهله؛ يمدوح أديمه رياً، ويتأرجح رياً، ويقول من أستقبله في حلّ لجأه: هذا الفجر قد طلع بالثريا؛ إن أنفلت في المضايق أنساب أنسياب الأيم، وإن أنفرت المسالك مر مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعه، وكم عين [طرف] السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته؛ لا يستن داحس في مضاره، ولا تطمع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره؛ تسابق يده مرامي طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً من [عطفه].

ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلّة غانية وسالفة ريم؛ قد ألهسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده؛ يظن من نظر إلى سواد طرفه، وبياض مجوله

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأذخرت».

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «التفت المضايق» وهي أوضح.

(٣) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩).

وُغْرَتِهِ ؛ أَنَّهُ تَوَهَّم النَّهَارَ نَهْرًا خَافِضَهُ ، وَأَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُقْطَةً مِّنْ رَّشَاشِ تِلْكَ الْمَخَاضَةِ ؛
لَيْنِ الْأَعْطَافِ ، سَرِيعِ الْأَنْعَاطِ ؛ يُقْبِلُ كَاللَّيْلِ ، وَيَمْرُجُ كَالْمُهْوَدِ [صَحْرِيٍّ ^(١)] حَطَّهُ السَّيْلُ ؛
يَكَادُ يَسْبِقُ ظِلَّهُ ، وَمَتَى جَارَى السَّمَمِ إِلَى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبْلَهُ .

وَمِنْ أَشَقَرٍ : وَشَاهُ الْبَرْقِ بِلَهِيهِ ، وَغَشَاهُ الْأَصِيلُ بَدْهِيهِ ؛ يَتَوَجَّسُ مَالِدِيَهُ بِدَقِيقَتَيْنِ ،
وَيَنْفِضُ وَفَرْتِيَهُ عَنْ عَقِيقَتَيْنِ ، وَيَنْزِلُ عِدَارُ لِحَامِهِ مِنْ سَالِفَتِيهِ عَلَى شَقِيقَتَيْنِ ؛ لَهُ مِنْ
الرَّيَاحِ لَوْنُهَا ، وَمِنْ الرِّيَاحِ لِينُهَا ؛ إِنْ جَرَى فَبَرْقٌ خَفَقَ ، وَإِنْ أَسْرَعَ فَهَيْلَالٌ عَلَى شَفَقٍ ؛
لَوْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ لَمْ يَكُنْ لِلْوَجِيهِ وَجَاهَهُ ، وَلَا لِلنَّعَامَةِ نَبَاهَهُ ، وَلَكَانَ
تَرَكُ إِغَارَةً [سَكَابِ لَوْمًا وَتَحْرِيمِ بِنَعِيهَا سَفَاهَهُ] يَرْكُضُ مَا وَجَدَ أَرْضًا ، وَإِذَا أَعْتَرَضَ
بِهِ رَاكِبُهُ بِحَرًّا وَثَبَ عَرْضًا .

وَمِنْ مُكَيْتٍ نَهْدٍ ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ ؛ عِنْدِمِي الْإِهَابِ ، شِمَالِي الذَّهَابِ ؛ يَزِلُّ
[الْغَلَامِ] ^(٤) الْخِلْفَ عَنْ صَهْوَاتِهِ ، وَكَأَنَّ نَعْمَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدٍ فِي لَهَوَاتِهِ ؛ قَصِيرِ الْمَطَا ،
فَسِيحِ الْخُطَا ؛ إِنْ رُكِبَ لَصِيدٍ قَيْدَ الْأَوَايدِ ، وَأَعْجَلَ عَنِ الْوُثُوبِ الْوَحْشِ اللَّوَايدِ ؛
وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بَلْبَانِهِ ، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ ،
وَلَمْ يُرَدِّدْ بُلُوغَ الْغَايَةِ وَهِيَ ظَفَرُ رَاكِبِهِ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ أَخْتَالَ
بِصَاحِيهِ كَالثَّمَلِ ، وَإِنْ أَصْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عِقَابِهِ كَالْعُقَابِ وَأَنْحَطَّ فِي مَجَارِيهِ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل «سريع» والتصحيح عن " » » .

كَالْوَعِلِ ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ ، وَمَتَى أَرَادَ الْبُرْقُ مَجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوُقُوفُ
عِنْدَ قَدْرِهِ : مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَمَهَّلَ .

(١) وَمِنْ حَبَشِيٍّ أَصْفَرَ يَرُوقُ الْعَيْنُ ، وَيُسْوِقُ الْقَلْبَ بِمِشَابَهَةِ الْعَيْنِ ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ
أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَسْعَتِهَا جِلَالًا ، وَكَأَنَّهُ نَفَرَ مِنَ الدُّجَى فَأَعْتَقَ مِنْهُ عُرْفًا وَأَعْتَقَ أَحْجَالَ ؛
ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرَجَهُ ، وَذَيْلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرَجَهُ ؛ قَدْ أَطْلَعَنَّهُ الرِّيَاضَةَ
عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ ، وَأَغْنَاهُ نَضَارَ لُونِهِ وَنَضَارَتَهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ ؛
لَهُ مِنَ الْبُرْقِ خِفَّةٌ وَطَيْبَةٌ وَخَطْفَةٌ ، وَمِنَ النَّسِيمِ لِينٌ مُرْوَرٌ وَلُطْفَةٌ ، وَمِنَ الرَّيْحِ هَرَمِيْزُهَا
إِذَا مَا جَرَى شَاوِيْنٍ وَأَبْتَلَّ عِطْفُهُ ؛ يَطِيرُ بِالْغَمَزِ ، وَيُدْرِكُ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْزِ ،
وَيَعْدُو كَأَلْفِ الْوَصْلِ فِي اسْتِغْنَاءِ مِثْلِهَا عَنِ الْهَمَزِ .

وَمِنْ أَخْضَرَ حَكَاهُ مِنَ الرُّوضِ تَقْوِيْفُهُ ، وَمِنَ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيْفُهُ ؛ قَدْ كَسَاهُ
النَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُلَّتِيَّ وَقَارِيَّ وَسَنَاءَ ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا
حَسَنًا ؛ وَمِنَحَهُ الْبَازِي حُلَّةً وَشِيْهَ ، وَنَحَلَّتَهُ الرِّيَّاحُ وَهَمَّاتُهَا قُوَّةَ رَكْبِهِ وَخِفَّةَ مَشِيْهِ ؛
يُعْطِيكَ أَفَانِيْنَ الْجُرَى قَبْلَ سُؤَالِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُسَاقِمْهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَلِيلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ
بِمَسَاقِمَةِ حَيَالِهِ ؛ كَأَنَّهُ [تَفَارِيْقُ] ^(٢) شَيْبٍ فِي سَوَادِ عِدَارٍ ، أَوْ طَلَائِعُ بَجْرٍ خَالِطٍ بِيَاضِهِ
الدُّجَى ، فَمَا سَبَّحِي ، وَمَا زَجَ ظَلَامُهُ النَّهَارَ ، فَمَا أَنْارَ ؛ يَخْتَالُ لِمَشَارِكَةِ أَسْمِ الْجُرَى بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي السَّيْرِ كَالسَّيْلِ ، وَيُدُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُشْتَرِكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ وَاللَّوَامِعِ

(١) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْن » وَالتَّصْحِيْحُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ « طَرُوقُهُ » وَالتَّصْحِيْحُ عَنْ « » « » .

(٣) الزِّيَادَةُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

وبين البرقية من الخيل ؛ ويكذب [المأنوية^(١)] لتولد أين فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل .

ومن أبلق ظهره حرم ، وجريه صرم ؛ إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وإن صرّف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكف والتدم ؛ قد طابق الحسن البديع بين ضدى لونه ، ودلت على اجتماع التقيضين علة كونه ؛ وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار ، وأخذ وصف حلى الدجى في حالى الإبدار والسرار ؛ لا تكلم منا كبه ، ولا يضل في سجات الجيوش رآ كبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كوا كبه ؛ ولا يجارىه الخيال فضلاً عن الخيل ، ولا يمل الشرى إلا إذا مله مشبهاه : النهار والليل ؛ ولا تمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ؛ فهو الأبلق الفرد ، والجواد الذى يجارىه العكس وله الطرد ؛ قد أعتته شهرة نوعه فى جنسه عن الأوصاف ، وعدل بالرياح عن مبراته لسلو كها له فى الاعتراف جادة الإنصاف .

فترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها ، وأعدّها خطبة الحنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها ؛ وكلف برؤيها فكلما أكله عاد ، وكلما أملة شرة إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ؛ ورأى من آدابها مادد على أنها من أكرم الأصائل ، وعلم أنها ليومى سنجيه وحره جنة الصائيد وجنة الصائل ؛ وقابل إحسان مهديها بثنائيه ودعائه ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .
 (٢) كذا فى "حسن التوسل" ، وفى الأصل «زبد البحر والخيل» .
 (٣) كذا فى "حسن التوسل" ، وفى الاصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .
 (٤) فى الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ بِهِ الَّذِي أُوْفِرَدَهُ فِي النَّدَى بِمَدَاهِيهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ] ^(١).

المهييع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ نَوَابِ السُّلْطَانَ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى السُّلْطَانَ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي مِثْلِهِ .
فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وِلَايَتِهِ .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان يُخَبِّرُهُ بِذَلِكَ وَبِمَا الْمَمْلُوكَةُ عَلَيْهِ .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَلَبَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْبِئِي أَنَّ الْمَمْلُوكَ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا الْمَأْنُوسَةَ، الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكِفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِيَالَتِهَا؛ رَافِلاً فِي حُلِّ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ، مُتَفِيئاً ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ؛ صُحْبَةَ فُلَانٍ مُسْفِرِهِ، وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا لِأَسْبَابِ تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ، مَا شَيْئاً لِمَحَلِّ الْكِرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ؛ [بِحَضُورٍ مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ] ^(٢) مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْحُجَّابِ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ؛ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠).

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط النسخ.

القَوَاعِدِ؛ وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِيَابِ الْقَاعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدَخَلَ دَارَ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ وَقَطُوفَ الْأَمَانِيِّ لَهُ مَهْضُورَهُ؛ وَقُرِئَ بِهَا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ تَقْلِيدُهُ، وَعَظَّمَ الْمَرَاسِمَ الشَّرِيفَةَ تَأْيِيدُهُ؛ وَتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْهُ لَهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَتَنْفِيذِ كُلِّ مِهِمٍّ شَرِيفٍ وَمَرْسُومٍ؛ وَتَصَفِّحَ أحوالِ الْمَمْلُوكَةِ، وَسَلَكَ كُلَّ أَحَدٍ مَسْلَكَهَ؛ وَأَسْتَجَلَبَتِ الْأَدْعِيَةَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ، وَاجْتَهَدَ فِي حَيَاةِ الْبِلَادِ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِ شَيْطَانُ الْمُفْسِدِينَ بِأَشْطَانٍ؛ وَأَنْتَظَمَ لَهُ أَمْرَ الْمَمْلُوكَةِ بِالْمَهَابَةِ الشَّرِيفَةَ أَحْسَنَ أَنْتَظَامٍ، وَبَلَغَ بِهِ كُلَّ وَلِيٍّ مِنْ قَهْرِ الْعُدُوِّ غَايَةَ الْمَرَامِ؛ وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكُ فَلَانًا مُسَفَّرَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ مُزَاحَ الْأَعْدَارِ، مُبَلِّغَ الْأَوْطَارِ؛ عَلَى الْعَادَةِ - طَالِعَ بِذَلِكَ - وَلَا زَالَ مِنْهُ مَزِيدُ الشَّرَفِ وَالْعُلُوِّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي:

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ مَعْمُورًا بِالصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ، وَالْإِنْعَامَاتِ الْمُطِيفَةِ؛ صُحْبَةَ مَمْلُوكِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ، وَأُلَيْسَ تَشْرِيفَهُ الشَّرِيفِ، وَقُرِئَ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفِ بَدَارَ الْعَدْلِ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ مِرَارًا عَلَى الْعَادَةِ. وَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْحَافِيفِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّسْخَةِ الْمُجَهَّزَةِ صُحْبَةَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَظَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِحُضُورٍ مِنْ جَرَتِ الْعَادَةِ بِحُضُورِهِ: مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ، وَكَتَبَ خَطَّهُ عَلَيْهَا؛ وَأَنْتَصَبَ الْمَمْلُوكَ لِحَلَاصِ الْحَقُوقِ، وَإِزَالَةِ الْمَظَالِمِ؛ وَتَشْرِيفِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ، لِيَنْتَصِفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ، وَيَنْزَجِرَ الْقَوِيُّ عَنِ الضَّعِيفِ؛ وَأَتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْقَضَايَا، وَأَسْتَجَلَبَ الْأَدْعِيَةَ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةَ مِنَ الرِّعَايَا؛ وَرَتَّبَ أُمُورَ الْآزَاكِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَكْمَلِ عَادَةٍ وَأَجْمَلِ

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظّمها، لِيُنْهِى بَيْنَ يَدَى الْأَيْدَى الْمُعْظَمَةِ مَا عَابَتْهُ مِنَ الْمَمْلُوكِ مِنْ إِخْلَاصِهِ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَمُعَالَاتِهِ . طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة ، فقد قال في ”موادّ البيان“ : من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء ، إيجاباً لهم وتعظيماً . إلا أننا رأينا ذوى الأخطار من القداماء قد شافهوهم بالعزاء مسلين ، وبالهناء داعين ؛ وربما دُفِعَ الكاتبُ إلى صُحْبَةِ رَيْسٍ يَقْتَضِي مَحَلَّهُ أَنْ يَهْنِئَ الْخَلِيفَةَ بِمُتَجَدِّدِ النِّعَمِ لَدَيْهِ ، وَيُعْزِيهِ لِمُتَطَرِّقِ النُّوَابِ إِلَيْهِ ؛ فَحَتِيحٌ إِلَى أَنْ يُرْسَمَ فِي هِنَاءِ الْخُلَفَاءِ وَعِزَائِهِمْ مَا يُحْتَدَى عَلَيْهِ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى اسْتِعْمَالِ مِثْلِهِ .

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة ، أوردتها في ”موادّ البيان“ وهي :

أُولَى النَّعْمِ - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - بِأَنْ تَنْطِقَ بِهَا أَلْسُنُ الدَّاكِرِينَ يَضُوعُ عَطْرُهَا ، وَتَتَنَاقَلُهَا أَفْوَاهُ الشَّاكِرِينَ يَفُوحُ نَشْرُهَا - نِعْمَةٌ إِيْلَانُهُ فِي خِلَافَتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا ذُنْحَرًا لِلْأَنَامِ ، وَعِصْمَةً لِلْإِسْلَامِ ، وَحَاجِرًا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ؛ وَقِيَامًا لِلاتِّتْلَافِ وَالِاتِّفَاقِ ، وَزِمَامًا عَنِ الْاِخْتِلَافِ وَالِافْتِرَاقِ ؛ وَنِظَامًا لِصَلَاحِ الْخِلَاصَةِ وَالْعَامَةِ ، وَسَبِيلًا إِلَى اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَسُكُونِ الْأُمَمِ ؛ وَسَبَبًا لِحَقِّقِ الدِّمَاءِ ، وَدَعَةِ الدِّهْمَاءِ ، وَجَاهِدَةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَوَاتِ ؛ وَالْعَمَلِ بِالْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ ، وَحَسْمِ الْبِدْعِ وَالْفِتَنِ ؛ وَعَدَقِهَا بِالْأَخْيَارِ وَرَثَةِ نَبِيِّهِ وَعِثْرَتِهِ ، وَالْأَبْرَارِ الطَّهْرَةِ مِنْ أَرْوَمَةِ رَسُولِهِ وَشَجَرَتِهِ ؛ الَّذِينَ نَصَبَهُمْ دُعَاةً إِلَى طَاعَتِهِ ، وَهُدَاةً لِبَرِيَّتِهِ ، وَأَعْلَامًا لَشَرِيعَتِهِ ؛ يَا مَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَأْتَمُرُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَنْتَهُونَ ، وَيَقْضُونَ

بالحقِّ وبه يعدُّون ؛ وكلِّما لحقَّ منهم سلفٌ بمقرِّ أوليِّته ، أقام خلفاً يختصُّه بانتخابه
وتكرِّمته .

والحمد لله الذى قصرَ خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى
كانت مفوضةً إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ؛ وأنجز لهم ما وعدَّهم من إبقاء الإمامه ،
فى عقبيهم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها فى عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ،
المرامى عن حوزتها ؛ المعزِّ لكلماتها ، الرافع لراتبها ؛ المحدِّد لحدودها ، الحافظ لعقودها ؛
وسلم قوساً منه إلى باريها ، وناطها بكفئتها وكافئها ؛ وأفضى إليه بشرف الولادة
والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوَّة ؛ وألف به بين القلوب الآبية ، وجمع عليه النفوس
النائية ، وأنفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديتها ؛
وأستدَّت ثلثة الدين بعد أنغارها ، وأطمأنت الدهماء بعد نفاها ، حمداً يكون لنعمته
كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تنزع الهمم إليها ، ولا تتطَّلع الأمانى عليها :
لاختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير
المؤمنين يتعاطم عن تهنئته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنأ
بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبد
يسأل الله تعالى ضارِعاً إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمَّله وكنَّه ، وتوفيقه فيما
كفَّله وأستخلفه ؛ وأن يُمكن له فى الأرض ، ويُعلي يده بالسطِّ والقبض ؛ ويمدَّه بعزِّ
السلطان ، وعلوِّ الشان ؛ وظهور الأولياء ، وشُور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وأبتزاز
الملحدِّين ؛ وتقوية يده فى نصره الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من بين
دولته ، وسعادة ولايته ؛ ما يجمعهم على الطاعة والمواقفة ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

وَيُوقِّعُهُم مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي مَوَالِيهِ، لَمَّا يُوفِّرُ حَظَّهُمْ مِنْ مَرْضَاتِهِ؛ وَيَجْعَلُ وِلَايَتَهُ هَذِهِ مَقْرُونَةً بِإِنْفِصَاحِ الْمُدَّةِ وَالْأَجَلِ، وَبُلُوغِ الْمُنَى وَالْأَمَلِ، وَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَيُبَلِّغُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَدَوْلَتِهِ أَفْضَلَ مَا بَلَّغَهُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِهِ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ .

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قُطِرَ من الأقطار وحصل الفتح على يديه أن يكتب إلى السلطان مبشراً بذلك الفتح، مُنَوِّهاً بِقُدْرِهِ، معظماً لأمره؛ وما كان فيه: من عزيز النصر وقوة الظفر .

(١)

[فن مكتوبة في البشارة بفتح حصن المرقب، وهي:]

قد أسفر عن الفتح المين صباحه، والتأييد وقد طار به مُحَلَّقُ النباشير
نَحَفَقَ فِي الْخَافِقِينَ جَنَاحُهُ؛ وَالْإِسْلَامَ وَقَدْ وَطِئَ هَامَةَ الْكُفْرِ بِمَقْدَمِهِ، وَاللَّيْنِ وَقَدْ
عَزَّ بِفَتَكَاتِ سَيْفِهِ الْمَنْصُورِ فَنَفَّ أَنْ يَكُونَ الشَّرْكَ مِنْ خَدْمِهِ؛ وَالْأَفْلَاكَ وَقَدْ
عَلِمَتْ أَنَّهُ لِهَذَا الْفَتْحِ الْقَرِيبِ كَانَ أَجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهَا، وَالْأَمْلاكَ وَقَدْ نَزَلَتْ لِتَشْهَدَ
أَحْمَدَ النَّصْرَةَ الْبَدْرِيَّةَ فِي صُفُوفِهَا وَمَوَاكِبِهَا؛ وَحِصْنِ الْمَرْقَبِ وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَيْهِ الْمِلَّةَ
الْإِسْلَامِيَّةَ أَشْعَةَ سَعْدِهَا، وَأُنْجِزَتْ لَهُ الْأَيَّامُ مِنَ الشَّرَفِ بِهَا أَمَالُهُ بَعْدَ مَا طَالَ أَنْتَظَارُهُ
لَوْعِدِهَا، وَأُمَّتَهُ الْأَقْدَارُ الَّتِي ذَلَّلَتْهُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ تَطَّوَلَ إِلَيْهِ الْحَوَادِثُ مِنْ بَعْدِهَا؛
وَقَدْ أَحَاطَتْ الْعُلُومُ بِأَنَّ هَذَا الْحِصْنَ طَالَمَا شَحَّتِ الْأَحْلَامُ، أَنْ يُخَيَّلَ فَتَحَهُ لِمَنْ
سَلَفَ مِنَ الْأَنْبَاءِ؛ فَمَا حَدَّثَتْ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهَا بِقَصْدِهِ إِلَّا وَثَّأَهَا النَّجَلُ، وَلا خَطْبَتَهُ بِيَدِ

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكتوبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام .
وقد بحثنا عن هذه المكتوبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي
قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفَاسُ وَالنُّفُوسُ إِلَّا وَكَانَتْ مِنَ الْحَرَمَانِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنْ مُعَاجَلَةِ الْأَجَلِ وَقَتَهُ عَلَى وَجَلٍ ؛
 وَحَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ كُلِّ شَاخِجٍ تَهَيَّبُ عِقَابُ الْجَوِّ قَطْعَ عِقَابِهِ ، وَتَقِفُ الرِّيحُ خَدَمًا
 دُونَ التَّوْقِلِ فِي هِضَابِهِ ؛ [وَحَوْلَهُ مِنْ] الْأَوْدِيَةِ خَنَادِقٌ لَا تُعْلَمُ مِنْهَا الشُّهُورُ إِلَّا بِأَنْصَافِهَا ،
 وَلَا تُعْرَفُ فِيهَا الْأَهْلَةُ إِلَّا بِأَوْصَافِهَا ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّرَ بِالنُّجُومِ ، وَتَقَرَّرَقَ
 بِالْيُومِ ، وَسَمَّا قَرَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَرَسَا أَصْلُهُ فِي النَّخُومِ ؛ نُحَالُ الشَّمْسُ إِذَا عَلَتْ أَنَّهَا
 تَنْتَقِلُ فِي أَبْرَاجِهِ ، وَيُظَنُّ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى السَّمَاءِ أَنَّهُ ذُبَالَةٌ فِي سِرَاجِهِ ؛ فَكَمْ مِنْ ذِي جِيُوشٍ
 قَدْ مَاتَ بِعِصَّةٍ ، وَذِي سَطَوَاتٍ أَعْمَلُ الْحَيْلَ فَلَمْ يَفْزَ مِنْ نَظَرِهِ عَلَى الْبُعْدِ بِفُرْصَةٍ ؛
 لَا يَعْلُوهُ مِنْ مُسَمًّى الطَّيْرِ سِوَى نَسْرِ الْفَلَكَ وَمِرْزَمِهِ ، وَلَا يَرْمِقُ مَتَبَرِّجَاتِ أَبْرَاجِهِ غَيْرَ
 عَيْنِ شَمْسِهِ وَالْمَقَلِ الَّتِي تَطْرِفُ مِنْ أَنْجُمِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ نُصِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَانِقِ مَا سَهَمَهُ
 أَنْفَذَ مِنْ سِهَامِ الْجَفُونِ ، وَخَطَرَاتُهُ أَسْرَعُ مِنْ لِحَظَاتِ الْعُيُونِ ؛ لَا يَحْتَاطَبُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ
 رُسُلِهِ بِضَمِيرِ الطَّلَابِ ، وَلَا يُرَى لِسَانُ سَهْمِهِ إِلَّا كَمَا تُرَى خَطَفَاتُ الْبَرَقِ إِذَا تَأَلَّقَ
 فِي عُلُوِّ السَّحَابِ ؛ فَتَرَلَّتْ عَلَيْهِ الْجِيُوشُ نُزُولَ الْقَضَاءِ ، وَصَدَمَتْهُ بِهِمَمِهَا الَّتِي تَسْتَعِيرُ
 مِنْهَا الصَّوَارِمُ سُرْعَةَ الْمَضَاءِ وَرُوعَةَ الْأَنْتِضَاءِ ؛ فَنَظَرَتْ مِنْهُ حِصْنًا قَدْ زَرَّرَ عَلَيْهِ الْجَوُّ
 جَيْبَ غَمَامِهِ ، وَأَفْتَرَّتْ نَفْرَهُ كَمَا جَدَّبَ عَنْهُ الْبَرَقُ فَاضِلَ لِسَامِهِ ؛ فَتَدَلَّلَتْ صِعَابُهُ ،
 وَسَهَلَتْ عِقَابُهُ ؛ وَرُكِرَتْ لِلْجُنُوبَاتِ (؟) فِي سَفْحِهِ وَطَالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أَدْنَاهُ فَلَمْ تَقْوَعْ عَلَيْهِ
 النَّوَادِمَ ، وَكَمْ هَمَّتِ الْعَوَاصِفُ بِتَسْمِ رُبَاهُ فَأَصْبَحَتْ مُحَلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الْغَائِمَ ؛ فَضْرِبَ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِصْنِ بَسُورَ بَاطِنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَدَابُ ، وَنُصِبَتْ فَوْقَهُ
 مِنَ الْأَسِنَّةِ تُغَوِّرُ بَرَاقَةَ الثَّنَائِيَا وَلِكِنِّهَا غَيْرَ عَدَابٍ ؛ فَعَادَ ذَلِكَ السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصِفَاحِهَا ،

(١) في الأصل «فنى الأودية» والتصحيح من «حسن التوسل» .

(١) مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةِ رِمَاحِهَا؛ فَأُرْسِلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبَى عَلَى الْعَمَائِمِ، وَزَادَ فِي نَفْسِهِ عَلَى التَّمَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جِثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ!

وَنُصِبَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جُنْسِهَا؛ وَسَطَّتْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَ عُنْدَهَا فِي التَّحَامِلِ أَبْعَدَ مِنْ أُمْسِهَا، وَأَسْتَنْصَحْتُمَا الْعِدَا فَأَعْلَمْتُمُهَا أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ عَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا؛ وَبَسَطَتْ أَنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا؛ إِمَّا إِجَابَةً أَنْ تَدُلَّ لِلشَّهْدِ وَإِمَّا إِنَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ؛ نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْأَسْتَظْهَارِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ حُقُولٌ لَا تَنْبِتُ لَهَا الْإِنَابَةُ الَّتِي عَمِرْتِ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ نَاسْتَعَانُوا عَلَيْهِنَ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْجِدَارِ؛ فَمِنْدَ ذَلِكَ عَدَّتْ تَكُنُّ كُمُونَ الْأَسَاوِدِ وَتَثِبُ وَتُوبُّبُ الْأَسُودِ، وَتُبَارِي بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءَ فَكُلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بِكُوا كِبَاهَا النَّيِّرَةَ قَدَفَ هَذَا بِكُوا كِبَاهُ السُّودِ؛ وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنْجَنِيْقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا آخَرَ بِمَكَانِهِ، وَلَا فُطِعَتْ لِأَحَدٍ إِصْبَعٌ إِلَّا وَوَصَلَ الْآخِرُ بِنَانِهِ؛ فَظَلَّتْ تَتَحَارَبُ مِثْلَ الْكِبَاهِ، وَتَتَحَامَلُ تَحَامِلَ الرَّمَاهِ؛ حَتَّى لَقِحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرِّضَا مَجَالًا، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالتُّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبَ السَّقَامِ، وَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ كَمَا تَمَشِّي فِي مَفَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ؛ وَحَشَتْ أَضَالِعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى: مُتَحَرِّقُ الْأَحْشَاءِ وَلَا يَبْدُو لَهَا ضِرَامٌ؛ قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى عَجَلٍ، وَأَيَقِنَنَّ الْحِصْنَ بِالْإِتِّتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْحَدَلِ؛ وَزَادَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَلَعَلَهُ فِي نَفْسِهِ .

شَوْقُهُ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَابِغَةً لَوْ سَمَّهَا وَأَسَمَّهَا مُشْتَاقٌ لِكُنْهَمْ أَظْهَرُوا الْجِلْدَ ، وَأَخْفَوْا
ضِرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَخْفَى وَقَدْ وَقَدَ ؛ وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجِيُوشُ فَلَآتُ الْأَفُقِ ،
وَأَحَاطَتْ بِهِمْ إِحَاطَةُ الطُّوقِ بِالْعُنُقِ ؛ وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِيهَا ،
مُسْتَعِدَّةً لِاتِّزَاعِ أَرْوَاحِ الْعِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِهَا ؛ فَانْقَطَعَتْ بِهِمُ الطُّنُونُ ،
وَدَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَى الْمُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِيقُ أَجْمَارَهَا (فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقَبَانُ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ الْعَائِرَ وَالْأَعْمَارَ ،
وَأَجْرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنْهَارَ الدَّمَاءِ فَهَآكُوا بِالسَّيْفِ وَالنَّبِيلِ وَالنَّارِ ، وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
فِي أَهْلِ التَّثَلُّثِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَحَايِلِ حِصْنِهِمْ .

وَمَا رَكِبَ الْأَوَّلُ لِلزَّخْفِ فِي جُيُوشِهِ الَّتِي كَثُرَتْ الْبَحْرَ بِأَمَاجِهُ ، تَنْزِيلَ الْحِصْنِ
لِشِدَّةِ رَكْبِهِ ، وَتَضَعُوعٍ مِنْ خَوْفِ عِصْيَانِهِ فَلِحَقَّتْ سَمَاوُهُ بِأَرْضِهِ ، وَتَحَلَّتْ قَوَاعِدُ
مَا شِيدَ مِنْ أَرْكَانِهِ فَانْحَلَّتْ ، وَأَلْقَتِ الْأَرْضُ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ ؛ وَمَشَتْ النَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ بِلِ فِي السُّورِ إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ؛ وَمَا كَانَ
إِلَّا أَنْ قَابَلَتِ الْعَسَاكِرُ ذَلِكَ الْبُرْجَ حَتَّى أَهْوَى يَلِيمُ التُّرَابِ ، وَتَادَبَ بِأَدَابِ الطَّاعَةِ
فَفَخَّرَا كَعَا وَأَنَابَ ؛ فَهَاجَمَتْهُمُ الْجِيُوشُ مُهَاجِمَةً الْخَوْفِ ، وَأَسْرَعَتِ الْمَضَاءُ وَالِانْتِضَاءُ
فَلَمْ تَدْرِ الْعِدَا : أَهُمْ أَمْ الَّذِينَ فِي أَيْمَانِهِمُ السُّيُوفُ الَّتِي تَسْبِقُ الْعَدَلَ . وَثَبَّتَ مِنْهُمْ
مَنْ لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهُ مَجَالًا فَلَجَّجُوا إِلَى الْأَمَانِ ، وَتَمَسَّكَ دَنِيءٌ كُفْرَهُمْ بِعِزَّةِ الْإِيمَانِ ،
وَتَسَبَّحُوا بِسَاحِلِ الْعَفْوِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛
وَسَأَلُونَا أَنْ يَكُونُوا لَنَا مِنْ جُمَلَةِ الصَّنَائِعِ ، وَتَضَرَّعُوا فِي أَنْ تَجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ لِسُيُوفِنَا
مِنْ جُمَلَةِ الْوَدَائِعِ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ كَرَمًا ، وَظَلُّوا عَلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

يَرُونَ الْمَمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلْمًا وَأَطْلَقْتَهُمُ الْيَدَ الَّتِي لَا يَجِبُ لَدَيْهَا الْآمَلُ ، وَأَعْتَقْتَهُمُ
 الْيُمْنَى الَّتِي فَجَّاحُ الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهَا : فَمَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنْامِلُ ؛ وَخَرَجُوا بِنُفُوسٍ
 قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمَقِيلٌ طَلَّقَتْ الْكِرَا خَوْفًا مِنَ الصَّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
 عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ؛ وَسُطَّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَنَّمُ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّهَا مِنْ لِبَاسِ
 الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ؛ وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
 قَدْ بَدَلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبِيَهُ قِبْلَةً وَكَانَتْ شَرْقًا ؛ فَأَصْبَحَ يَرْفُلُ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ ،
 وَأُذْعَنَ بِالطَّاعَةِ فَأَخْرَسَ جَرَسَ الْجَرَسِ بِهَ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة ، أنه كما ينبغي أن لا يهنا الخليفة
 بالخلافة إعظاما ، فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه . إلا أنه ربما دعت ضرورة
 الكاتب إلى ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلى الخليفة .
 ولا ينبغي أن الحال في ذلك تختلف باختلاف المعزى : من والدٍ أو ولدٍ أو غيرها .

(١) وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك [ذكرها في "مواد البيان" وهي :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل خلافته خلقه قواما ، ولبريته نظاما ؛ وجعل له
 خلفاء يدنرهم لمراثها ، ويحتشمهم بترأثها ؛ فإذا آنقضت مدة ماضيهم : لما يريد الله
 من أستدناؤه إلى مقر خصاصه ، نقلها إلى نوره بأصطناه وأصطفائه .

والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم زعيمهم
 الماضي الذي كانت بيديه موارثها ، والآتي الذي صار إليه [ترأثها] .

والحمد لله الذى ختم لأمير المؤمنين المتَّقِل إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمته ،
وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة ؛ وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته ،
وحياطة شريعته ؛ وحماية بلاده ، وسياسة عبادته ؛ ولوراثته تراث آبائه وأجداده ؛
وجعل الماضى منهم مرضياً عنه ، والآتى مرضياً به ؛ وأعتدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرهما في خليفته ، وصبرها في رزيته ؛ وهو المسئول أن يُلهمه
على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً ، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التى
لا كفاء لها شكراً ؛ بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .



[وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضاً ^(١)] وهى :

إنَّ الله خصَّ أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافته ، وعظَّم محله بما نصَّبه له
من إمامة بريته ؛ وجعله عماداً لأهل الإسلام يجتمع عليه أهواؤهم ، وتسكن إليه
أملاؤهم ؛ ويصلح به دينهم ودنياهم ، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم ؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه ، وظاهر موهبة من مواهبه لديه ؛ شركوه فيها ، ونهضوا معه
على الشكر عليها ؛ وإذا ابتلاه ببليته ، وأمتحن صبره برزيه ؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث ، والحظَّ الجسيم من الكارث ؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاءً من الأجر عليها .

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من ولده فلان - رضى الله عنه - عاريةً
من عواريه ، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه ؛ ثم استرجعها ليثقل بها
ميزانه ، ويضاعف إحسانه ؛ ويجعلها له ذخراً ، ونوراً يسعى بين يديه وأجراً ؛ فعظَّم

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون القلوب، وتفتح الخطوب، واستقرار قواعد الخلافه، وشمول الرحمة والرافه؛ وقد حصل أمير المؤمنين على نعم كثيرة من موهبته وتوايه في استعادته، وحصل كافة خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده؛ وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد، ونقاف كل مباد، ومهبط كل رحمه، وطريق كل نعمه؛ وهو خليق بأن يظهر من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره؛ ما يبعث على التأسى به، والتأديب بأديه؛ والله تعالى يحسن لأمر المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف؛ ويوفر حظهم من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب؛ ويريه في أوليائه وأحبابه، أعظم محابه وغاية آراه؛ وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والأحتفاء، بأفاضل الأجداد والآباء؛ بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى .



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس)

(١)

قاعدة بلاد الأرمن وأتراعها من أيديهم، وهي :

يُقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى أَنْ لَيْلَةَ الأَنْتِظَارِ أَطْلَعَتْ صَبَاحَهَا، وَمَوَاعِدَ الأَمَالِ بَعَثَتْ عَلَى يَدِ الإِقْبَالِ نَجَاحَهَا؛ وَالْعَسَاكِرَ الْمَنْصُورَةَ جَرَدَتْ رَابِعَ رَبِيعِ الأَوَّلِ بِمَدِينَةِ آيَاسَ صِفَاحَهَا، وَأُورِدَتْ إِلَى الصُّدُورِ رِمَاحَهَا؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلا كَهَجَ البَصْرِ، وَلِسَانُ صِدْقِ القِتَالِ قَائِلٌ: بَأَنَّ الجَيْشَ النَّاصِرِيَّ قَدْ أَتْتَصَرَ؛ وَأَنْقَضَى ذَلِكَ النَّهَارَ، بِإِيقَادِ نارِ حَرْبِ الحِصَارِ؛ عَلَى أَرْبَاجِ وَأَسْوَارِ، أُدِيرَتْ عَلَى المِينَا كَمَا أُدِيرُ المِعْصَمُ عَلَى السَّوَارِ؛ فَمَا أَشْرَقَ

(١) كان الأولى ذكر هذه المكتابة مع المكاتبات التي ذكرت في البشارة بالفتح، إذ لامناسبة في ذكرها

صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَوَلَّاحُ ، إِلَّا وَالْأَعْلَامِ النَّاصِرِيَّةِ عَلَى قَلْعَةِ الْقَلْعَةِ مَائِسَةُ الْأَعْطَافِ مِنْ
الْأَرْتِيَّاحِ ؛ مُعَلِّمَةٌ أَلَسَّتْهَا بِحَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ وَحَى عَلَى النَّجَاحِ ، وَعِزُّ الْإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الْكُفْرِ : بِهَذَا النَّصْرُ وَهَذَا الْإِفْتِاحُ ، وَجَمْعُ الْأَرْمَنِ الْمَلَّا تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتْلِ وَأَسِيرٍ
وَأَنْتِرَاحٍ ؛ وَلَعِبَتْ أَيْدِي النَّيْرَانِ فِي الْقَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الْأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَّاكِبِهَا ، وَنَطَقَ بِالْأَقْدَارِ لِسَانُ النَّارِ : هُدَى مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثم أنتقلت المحاصرة إلى قلعة البحر، وضم الأرمين الملا إليها سيف القدرة والقهر؛
وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقه، لم يسبق لأحد من الملوك الأوائل إلى
خطبتها سابقه؛ قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها؛ وتاهت على وامقها، وغصت عين
رامقها؛ فهي في عقاب لوج الحو كالطائر، وسورها البحر والخجر فلا يكاد يصل
إلى وكرها الناظر؛ وقد أوثقت بحلقات الحديد، وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاذ
إلى يوم الوعيد؛ فأرسل عليها المنجنيق عقابه، وأعلق بها ظفره ونابه؛ فكشف
من شرفاتها شنب نعرها، وسقاها بأكف أسهمه كئوس حجارة فتمايلت من شدة
سكرها؛ وفص من أبراجها الصناديق المقله، وفصل من أسوارها الأعضاء
المتصلة؛ فترززل عمدتها، وزيل عن مكانه جملدها؛ وعلت الأيدي المرامية بها،
وغلت الأيدي المحامية عنها؛ وأشد مرضها من حرارة وهج الحصار، وضعفت قوتها
عن مقاومة تلك الأحجار؛ ولم يبق على سورها من يفتح له جفنا، وشن المنجنيق
عليها غارته إلى أن صارت سنا؛ فأرسل إليها من سماء غضبه رجوما، وإلى ذلك
عليها سبع ليل وثمانية أيام حسوما؛ فبادرت إلى الطاعة وأستسلمت، وكررت نحوها
رؤوعه فسجدت؛ وركبت الجيوش المنصورة عوض الصافات الحج، وسمحت
في سبيل الله عز وجل بالمهج؛ فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الهرب،

وكان نَحْرَابُ قَلْعَةِ الْمِينَا هَذِي نَحْرَابٍ قَلَعْتَهُمْ مِنَ الْجَرْبِ ، وَأَحْرَقُوا كَيْدَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ
 بِنَارِ الْعَضْبِ ، وَأَتْرَحُوا مِنْهَا لَيْلًا ، وَجَرُوا مِنَ الْهَزِيمَةِ ذِيلاً ، وَتَسَلَّمَهَا الْمَسَامُونَ ،
 وَتَحَسَّرَ عَلَيْهَا الْحَسْرَةَ الْكُبْرَى الْكَافِرُونَ ، وَهُدِمَتْ حَجْرًا حَجْرًا ، وَصَاحَتْ بِجَبْهَتِهَا وَجْهَ
 الثَّرَى ، وَأَعْدِمَتْ مِنَ الْوُجُودِ عَيْنًا وَأَثْرًا ، فَمَا أُعْجِبَ هَذَا الْفَتْوحَ وَأَغْرَبَ ! ،
 وَمَا أَحْلَى ذِكْرَهُ فِي الْأَفْوَاهِ وَمَا أَعْدَبَ ! ! ، وَمَا أَلَدَّ حَدِيثَهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَمَا أَطْرَبَ ! ! ،
 وَمَا أَسْعَدَ هَذَا الْجَيْشَ النَّاصِرِيَّ وَمَا أُعْجِبَ ! ! ! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفْرُ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَنْتَظِرُ!
 فَتَحَ مَبِينٌ وَنَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُهُ * سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلَاكُ وَالْبُشْرُ!
 عَجَابٌ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَةٌ * لَمْ تَأْتِ أَمْثَالَهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ!
 لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ نَزَلَتْ * فِي وَصْفِ وَقَعَتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ!
 هَذِي أَيَّاسُ الَّتِي قَدْ عَزَّ جَانِبُهَا * وَعَزَّ حَاطِبُهَا حَتَّى أَتَى الْقَدْرُ!
 جَاءَتْ إِلَيْهَا جِيُوشٌ كَمْ بِهَا أَسَدٌ * بِيضُ الصَّفَاحِ لَهَا الْإِنْيَابُ وَالظُّفْرُ!
 جَيْشٌ لَهَا مِ كَبْحَرٍ زَاخِرٍ لَجِبٍ * إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ!
 يَسِيرُ بِالنَّصْرِ الَّتِي سَارَ مُتَّجِهَاً * مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّائِيدُ وَالظَّفْرُ!
 جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ نَاصِرَةٌ ، * مَلِيكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُتَّصِرُ!
 يَوْمَ الْخَمِيسِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً * عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أُكْرُ،
 وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ * فَعَنَّ يَسِيرٍ فَأَصْحَتْ لِلرُّورَى عِبْرُ!
 كَانَتْ بِأَفْقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بِأَسْقَاتٍ نَحْرَتْهَا خَطْرُ!

فَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَاذِلَةً * أَرْوَاحَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَدَحَّرُ،
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ * يَا أُوِيَّ مَقْرًا إِلَى أَنْ مَدَّتِ الْجَسْرُ!
وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوْفِي لَهُ النَّذْرُ
يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً * وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

فهرس

الجزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- المقصد الثالث - في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي : من العرب
 ٥ والسودان، وفيه ثلاث جمل ٥
 الجملة الأولى - في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ... ٥
 » الثانية - » » مسامى ملوك السودان ٦
 » الثالثة - » » ملوك المسامين بالحبشة ١١
 المقصد الرابع - » » أهل الجانب الشمالى ، وفيه ثلاثة
 أطراف ١٢
 الطرف الأول - في المكتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
 الآن ببلاد الدروب ١٢
 » الثانى - في المكتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر ٢٥
 » الثالث - » إلى من وراء بحر القرم، ويشتمل على
 أربعة مقاصد ٢٦
 المقصد الأول - في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ... ٢٧
 » الثانى - » » » المغرب من
 جزيرة الأندلس وما والاها... .. ٣٣
 » الثالث - في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي ... ٣٩
 » الرابع - » » » الشمالى من
 الروم والقرنجة على اختلاف أجناسهم ٤٢
 الفصل الخامس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب
 الواردة على الأبواب السلطانية من أهل المملكة
 وغيرها، وفيه نوعان ٥٤

صفحة

- النوع الأول - المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول - في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان ٥٤
- القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية ، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول - في الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف
 الطرف الأول - الكتب الواردة عن القنوات العظام من بني
 جنكروخان ٦٣
- « الثاني - في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- « الثالث - في رسم المكتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- « الرابع - في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثاني - في المكتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل
 الجملة الأولى - في المكتبة الواردة عن صاحب تونس ٧٩
- « الثانية - في المكتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بني عبد الواد ٨٤
- « الثالثة - في المكتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- « الرابعة - في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتب الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١١٥
- الطرف الأول - في المكاتب إلى صاحب مالى ١١٥
- « الثانى - » الصادرة عن صاحب البرنو ١١٦
- « الثالث - » عن ملك الكانم ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتب الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتب الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين
 « الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايغ
 المبيع الأول - فى صدور الابتداءات ١٢٧
- « الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ١٣٩
- « الثالث - فى خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح ١٤١
- « الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ١٤٤

- صفحة
- المقصد الثاني — في رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ... ١٤٨
- الجملة الأولى — في مفتحات المكاتب على أصطلاحهم ، وفيها مهيعان ١٤٨
- المهيع الأول — في آبتداء المكاتب ١٥٤
- » الثاني — في الأجوبة ١٥٨
- الجملة الثانية — في خواتم المكاتب على أصطلاحهم ١٥٩
- المقصد الثالث — في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
- ثلاثة مصطلحات ١٦٠
- المصطلح الأول — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية ... وفيه
- ثلاثة مهايح ١٦٠
- المهيع الأول — في الصدور ١٦٠
- » الثاني — في خواتم الكتب ١٦٦
- » الثالث — في عنوانات الكتب ١٦٦
- المصطلح الثاني — من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
- في الدولة الأيوبية ١٦٧
- » الثالث — من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات
- ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية ، وفيه مهيعان ١٦٨
- المهيع الأول — في رتب المكاتب المصطلح عليها ... وهي
- على قسمين ١٦٨
- القسم الأول — الابتداءات ١٧١
- » الثاني — من المكاتب الإخوانيات الدائرة بين أعيان
- الملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ٢١٢
- المهيع الثاني — في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
- أعيان الدولة ٢١٧

صفحة

- الفصل السابع - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى مقاصد
المكاتبات، وهى قسمان ٢٣٣
- القسم الأول - مقاصد المكاتبات السلطانية، وهى على نوعين ... ٢٣٣
- النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
أضرب [صوابه أربعة] ٢٣٣
- الضرب الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
على أصناف ٢٣٣
- الصف الأول - الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة ٢٣٣
- » الثانى - من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلى الدين ٢٤٤
- » الثالث - « « « بالحث على الجهاد ٢٤٦
- » الرابع - « « « فى الحث على لزوم
الطاعة وذم الخلاف ٢٥٢
- » الخامس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكث
العهد من المخالفين ٢٥٩
- » السادس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة ٢٦٣
- » السابع - الكتب فى الفتوحات والظفر ٢٧٤
- » الثامن - المكاتب بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ... ٢٩٠
- » التاسع - المكاتب بتوبيخ المهزوم الخ ٢٩٩
- » العاشر - فى المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم ... ٣٠٣
- » الحادى عشر - الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦
- » الثانى عشر - المكاتب بالأوامر والنواهى ٣٠٨
- » الثالث عشر - المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠
- » الرابع عشر - « فى التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

صفحة

- الصف الخامس عشر — المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد... ٣١٣
- « السادس عشر — المكتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر — فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ٣٣٣
- « الثامن عشر — المكتبة بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون — المكتبة بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادى والعشرون — المكتبة بالإحماذ والإذمام ... ٣٤٦
- « الثانى والعشرون — ما يكتب مع الإنعام لتواب السلطنة بالخيال والجوارح ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون — المكتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رُزفه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان فى الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن تواب السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع — من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن التواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيع الأول — فى الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن تواب السلطان والأتباع إلى السلطان آتداء... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)